جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

ظاهرة الأسر والسَّبي في الشِّعر الجاهلي

The issue of captivity in pre-Islamic poetry

إعداد:

فراس غازي عوض الخزاعله

إشراف

د. عرسان الراميني

الفصل الثاني 2013م/2014م

ظاهرة الأسر والسّبي في الشعر الجاهلي

The issue of captivity in pre-Islamic poetry

إعداد

فراس غازي عوض الخزاعله

قدمت هذه الرسالة استكمالا للحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها

تخصص أدب ونقد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وافق عليها

الدكتور عرسان حسين عرسان الراميني.................................. مشرفا ورئيسا

أستاذ تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، جامعة اليرموك.

الدكتور محمد خالد الأحمد الزعبي.................................. عضواً

أستاذ الشعر الجاهلي، جامعة اليرموك.

الأستاذ الدكتور حمدي محمود ناجي منصور.................................. عضوا

أستاذ الشعر الجاهلي والإسلامي، الجامعة الأردنية.

تاريخ مناقشة الرسالة ٧/٥/ ٢٠١٤م

شكر وتقدير

الحمد لله ربّ العالمين الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، سيدنا محمّد، ε، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أتقدّم بخالص الشكر وعظيم الامتنان إلى الدكتور عرسان حسين الراميني، لإشرافه على بحثي هذا والذي لم يأل جهدًا في تقديم النصح والإرشاد لي لإتمامه، وقد منحني من وقته وجهده الكثير الكثير، وأفاض عليّ من علمه، فجزاه الله عنّي خير الجزاء.

وأتقدّم بجزيل الشكر والعرفان إلى جامعة اليرموك التي أتاحتْ لي الفرصة للتقدم في درجات العلم وأساتذتي الأفاضل في قسم اللغة العربية.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير أيضًا، إلى الأستاذين الأكرمين، الأستاذ الدكتور حمدي منصور والدكتور محمد الزعبي، عضوي لجنة المناقشة، اللذين تجشّما العناء في قراءة هذا البحث ومناقشته وإثرائه.

وأخيرًا، أتقدم بالشكر والعرفان إلى كلّ من قدم لي يد العون والمساعدة، وأسهم في إتمام هذا البحث، وإخراجه إلى حيّز الوجود.

الإهداء

إلى روح والدي الطاهرة، غفر الله له ورحمه.

إلى والدتي الفاضلة، التي شجّعتني على طلب العلم والمعرفة، ولازمتني بالدعاء، أمدّها الله بالصحّة والعافية.

إلى شريكة حياتي، ورفيقة دربي، التي ضحّت وصبرت على الكثير من أجلي؛ فساعدتني وساندتني.

إلى أولادي وإخواني وأخواتي وأحبائي وأصدقائي وزملائي، الذين ساندوني وساعدوني لإتمام هذا البحث، جزاهم الله عنّي خيرًا.

إلى الأخ العزيز أحمد محمد فريح الخزاعلة الذي وقف إلى جانبي وساندني في مشواري الطويل أثناء كتابة هذه الرسالة وقدم لي الكثير جزاه الله عني خير الجزاء.

إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا الجهد مع خالص تقديري واحترامي.

الباحث

فراس غازي عوض الخزاعلة

الملخص

الخزاعله، فراس غازي عوض، ظاهرة الأسر والسبي في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 2014م (المشرف: د. عرسان الراميني).

عمدتْ هذه الدراسة إلى رصد ظاهرة الأسر والسبي في الشعر الجاهلي، وذلك من خلال تتبع العوامل الاجتماعي والاقتصادية والسياسية التي ساهمت في شيوعها بين القبائل العربية حتى أصبحتْ عُرفا قائما بينهم قد تواضعوا عليه، له عاداته وتقاليده التي انعكستْ في الشعر العربي الجاهلي، فرحل الشعراء إلى بلاط الملوك ومنازل شيوخ القبائل، سفراء لقبائلهم، يسعون إلى فك الأسرى والسبايا، فمدحوهم وتقرَّبوا إليهم. وكان الحافز السياسي والاجتماعي والمادي حاضرا بقوة في سبيل إطلاق سراح الأسرى، وكان الأسرى والسبايا مجالا للشعراء يسجلون أحوالهم ويصورون معاناتهم وموقفهم في الأسر. وكان لهذه الظاهرة آثار سلبية مختلفة على الفرد --الرجل والمرأة-- والقبيلة ساهمت في تفكك المجتمع العربي في العصر الجاهلي قبيل الإسلام.

واشتملتْ هذه الدراسة على ثلاثة فصول، الأول: الأسر والسبي تاريخيا، والثاني: الأسر في الشعر الجاهلي، والثالث: السبي في الشعر الجاهلي.

الكلمات الدّالّة: الأسرى، السّبايا، الشِّعر الجاهلي، تاريخ العرب قبل الإسلام.

فهرس المحتويات

المقدمة

لقد ساهم النظام السياسي والاجتماعي الذي كان قائما في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي في إدامة الصراع والحروب بين القبائل العربية؛ فاستند النظام القبلي السائد آنذاك إلى رابطة الدم باعتبارها الرباط المقدس الذي يجمع أفراد العشيرة الواحدة بلا منازع، فامتاز المجتمع العربي في العصر الجاهلي بأنه مجتمع قبلي غير مستقر؛ يقوم على التنازع والاختلاف أكثر من الاتحاد والوفاق لأسباب مختلفة ومتعددة داخلية وخارجية.

وعلى هذا الأساس كثرت الحروب بين القبائل العربية، فكانت تقوم في أحيان كثيرة لأسباب تافهة لاتكاد تشكلّ في مجملها دافعا حقيقيا لقيام الحرب؛ فعمّ القتل، وشاع الثأر، وانتشرت العداوات فأصبحوا إما قاتلاً مترقباً، وإما طالب ثأر متأهباً.

لقد كان الشعر ديوان العرب مرافقا لهم في حلهم وترحالهم، وفي سلمهم وحربهم، يسجل أيامهم وغزواتهم، ويحفظ مآثرهم ومكارمهم، ويدوّن عاداتهم وتقاليدهم، ويصور حياتهم وأحوالهم السياسية والاجتماعية، يتناقله أفراد القبيلة، جيلا بعد جيل، فهذا يجعلنا نؤمن، بأنه يمكن الاعتماد عليه في فهم أوسع وأشمل للحياة العربية، في العصر الجاهلي، في مجالاتها المتعددة.

إن شعر الأسر والسبي يشكل ظاهرة بارزة في الأدب العربي، لا سيما في العصر الجاهلي، غير أنه لم يلق عناية كافية في الدراسة والتحليل قديما و حديثا. فكان الهدف من هذه الدراسة هو تتبع هذه الظاهرة، وبيان معالمها، وتحديد دوافعها، وتقييم آثارها، وذلك بتفسير واقعها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وصلته بالحياة العربية في العصر الجاهلي؛ مما يسهم في فهم أفضل لطبيعة العلاقات السائدة في المجتمع العربي من ناحية، ويوفر قيمة معرفية وبيئة خصبة للدراسات الأدبية والنقدية، التي تعالج قضايا الشعر العربي الموضوعية والفنية من ناحية أخرى.

لقد كان الأسر والسبي محورا أساسيا في مسار الحروب العربية في العصر الجاهلي، بل قد يكون هو غاية بحد ذاته، يسعى إليها أفراد القبيلة لأسباب متعددة ومتباينة، فكان الشعر من ناحيته شديد الاعتناء بهذه الظاهرة، حيث نلاحظ أن المادة الشعرية المواكبة لها تشكل حيزا كبيرا جديرا بالاهتمام.

ولعل الباحث لا يجانب الصواب، إذا ما قال بأن الصراع السياسي هو السمة المميزة للقبائل العربية في العصر الجاهلي، إما لأسباب داخلية كالتنافس على زعامة القبيلة، وإما لأسباب خارجية بتحريض من الممالك والدول المجاورة، الفرس والمنادرة و البيزنطيين والغساسنة. وكان للشعراء حظ غير قليل في هذا الصراع بوصفهم فرسانا مشاركين في القتال، أو شعراء في ساحة الإعلام، ومما يدل على ذلك أن عددا من الشعراء وقعوا في الأسر في ساحة المعركة، مثل الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي الذي أسره الطائيون، والشاعر أعشى قيس الذي أسره علقمة بن علاثة على خلفية الصراع السياسي بين علقمة وابن عمه عامر بن الطفيل، والشاعر عبيد بن الأبرص، أسره حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار، والشاعر عبد يغوث بن صلاءة، وقد أسره فتى من بني عمير بن عبد شمس والمهلهل بن ربيعة وقد أسره الحارث بن عبّاد.

ويرى الباحث أن ظاهرة الأسر والسبي كان لها حضور كبير في الشعر الجاهلي، ودور بارز فيه. ولم يعثر الباحث في مدونة الأدب العربي القديم على دراسات أفردها أصحابها للحديث عنها، على الرغم من معرفتهم ودرايتهم الواسعة بأحوال الأسر ووقائعه، بل بثوه في ثنايا مؤلفاتهم مكمّلا ومتّصلا بالأخبار، أو مضموما إلى المختارات أو مرفقا بذكر الأماكن والبلدان.

وكذلك الذين جمعوا المختارات الشعرية المتنوعة، ووضعوا لها أبوابا في المدح والرثاء، والنسيب والهجاء لم يجعلوا للأسر أو السبي بابا خاصا بهما، ولعلهم لم يخرجوهما عن موضوعات الشعر المعروفة. غير إن هذا الشعر --شعر الأسر والسبي-- وما اتصل به من أحداث وأخبار وقصص

تشكل مادة غنية وجديرة بالبحث والدراسة والتحليل والتقييم، تتكشف فيها الكثير من الحقائق الأدبية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والانسانية.

وفي العصر الحديث، لم يعثر الباحث على دراسات مستقلة تناولت هذه الظاهرة في الشعر الجاهلي، وإنما كانت هنالك معالجات مقتضبة لأحوال الأسرى والسبايا، توزعت في ثنايا الكتب الأدبية التي تناولت شعر الأيام والحروب عند العرب. إلا أننا نشير هنا إلى دراسة أحمد مختار البرزة بعنوان "الأسر والسجن في شعر العرب" بالرغم من أنها لم تخصص للشعر الجاهلي بل جعلها صاحبها تمتد من العصر الجاهلي إلى القرن الثامن الهجري، حيث وجدنا بعض الإشارات الجزئية إلى أحوال الأسرى والسبايا ومعاملتهم في العصر الجاهلي؛ فتناول فيها منزلة الأسير ومعاملته، ومعاناته النفسية والجسدية، إلا أنها بحاجة إلى إعادة تقييم وتفسير وتوضيح. ونشير كذلك إلى دراسة أحمد الحوفي بعنوان "المرأة في الشعر الجاهلي" حيث أفرد الفصل الخامس من دراسته هذه بعنوان "السبايا والإماء" ذكر فيه شيوع السبي في العصر الجاهلي وبغض النساء له وكذلك دراسته "الحياة العربية من الشعر الجاهلي" حيث تناول جانبا من معاناة الأسرى والسبايا. ونجد أيضا دراسة لعبدالله عفيفي بعنوان "المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها" خصص فيها موضوعا فرعيا موجزا ضمن الفصل الأول بعنوان السّباء والوأد. ومن الدراسات التي اتصلت بظاهرة الأسر والسبي؛ بحث لحمدي منصور بعنوان "السّبيّة في الشعر الجاهلي"، تناول فيه موضوع المرأة السبية، فدرس الأشعار المتصلة بالسّبيّة من جهة معاملتها والخوف عليها من السبي، والفخر بحيازة السبي، وهجو من لا يحمي نساءه. فكان لا بد من بيان دوافع هذه الظاهرة وأثرها في المجتمع الجاهلي.

ومن الدراسات ذات الصلة، بحث لمحمد بن سليمان السديس بعنوان "سبي النساء في ضوء الشعر القديم"، تطرق فيه إلى مسائل تعلقتْ بسبي النساء ومعاملتهن، والفخر بحيازة السبي، إلا أنها محدودة وجزئية.

وبالرغم من هذه الدراسات -- على أهميتها-- إلا أن الباحث يرى أن ظاهرة الأسر والسبي لم تنل ما تستحقه من العناية والاهتمام ببحث تناول مختلف أبعادها وعناصرها، وكذلك لم تفرد أي دراسة لبحثها بشكل مستقل، وإنّما تم التطرق إليها بشكل جزئي ضمن دراسة الأسر أو السبي في العصور اللاحقة للعصر الجاهلي. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم تقدم هذه الدراسات الأطر التاريخية والسياسية والاجتماعية والإنسانية لها. ومن ناحية ثالثة، لم تقم بربطها وبيان دورها وتأثيرها في مجريات الأحداث وتطورها، أو تقدم تفسيرا للدوافع والأسباب التي ساهمت في شيوعها. ومن ناحية رابعة لم تستوف هذه الدراسات شعر الأسر والسبي وأخبارهما بل فاتها الكثير منها.

إن ظاهرة الأسر والسبي، لم تتوافر لها دراسة فاحصة وشاملة، تستجلي هذه الظاهرة، وتكشف حقيقتها، وأبعادها المختلفة، في المجتمع العربي الجاهلي. ويأتي هذا البحث ليلقي الضوء على ذلك العصر الذي ما زالت الكثير من جوانبه مظلمة.

ولتحقيق ما تقدم قام الباحث باستقراء دواوين الشعر الجاهلي، والبحث في أحداث أيام العرب ووقائعهم، في كتب الأدب واللغة والتاريخ الجامعة، مما يساهم في رصد المادة الشعرية المبرزة لهذه الظاهرة، وعلاقتها بالإطار التاريخي والسياسي والاجتماعي للقبائل العربية في علاقاتها البينية وأثرها في الصراع الدائر بين القبائل العربية، فمعرفة التاريخ السياسي والاجتماعي لازمة لفهم الشعر وتفسيره مثلما أنه ضروري في كشف الحقائق التاريخية والسياسية والاجتماعية للعصر الجاهلي.

إن ظاهرة الأسر والسبي تتطلب التعامل مع الأشعار الموثوق في صحتها من جهة، ومن جهة ثانية، يتحتم على الباحث مناقشة التي لم يُجزم بصحتها، أو التي تعددت رواياتها واتصلت بها، من حيث مصداقيتها، ومدى واقعيتها، فهنالك الكثير من الأشعار وُضِعتْ على أساس غير واقعي لسبب أو لآخر، فتعددت بتعدد رواتها واتجاهاتهم وانتمائهم، إلا أن هذا الأمر لم يمنع الباحث من مواصلة التنقيب والتمحيص والبحث الدقيق فيها، بل استثمار تعدد روايتها في خدمة الدراسة وبيان ما يمكن الاعتماد عليه.

وقد اشتملتْ الدراسة على ثلاثة فصول على النحو التالي:

الفصل الأول: الأسر والسبي تاريخياً؛

الفصل الثاني: الأسر في الشعر الجاهلي؛

الفصل الثالث: السبي في الشعر الجاهلي.

الفصل الأول

الأسر والسّبي تاريخيا

ظهرتْ غريزة حب السيطرة والسيادة المتمكنة في النفس البشرية في صور وأشكال متعددة منذ فجر التاريخ، فقامت الحروب المدمرة والمعارك الطاحنة بين مختلف المجتمعات الإنسانية بهدف إخضاع الآخرين والتسّيد عليهم. ومن صور هذا الصراع الأسر والسبي لما فيه من معاني القوة والعزة للآسر، ومن معاني الضعف والذلة والعبودية للأسرى والسبايا. إنّ الأسر والسبي شكّلَا بهذا المعني أقصى حالات الضعف والانكسار البشري من فقدان الحرية، وضعف القدرة. ولقد كان الشعر الجاهلي شاهدا على ظاهرة الأسر والسبي التي عايشتها الجزيرة العربية في العصر الجاهلي حيث الصراع المستمر بين القبائل العربية داخليا وخارجيا، مما أوجد بيئة غير مستقرة، لم تنعم بالسلام إلا في حدود ضيقة، بل إنها اتسمت بالعنف والقسوة، فكثرت الحروب والغزوات أو ما يعرف بأيام العرب التي سجلت كثيرا من المعارك والغارات التي قامت بين القبائل العربية فيما بينها، أو بينها وبين الدول المجاورة للجزيرة العربية من الفرس والروم(1).

إنّ ظاهرة الأسر والسبي تمثل شكلا من أشكال الصراع الإنساني في مجابهة تحديات الواقع، ولذلك نجد أنّ مجموعة الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية التي أحاطت حياة الإنسان العربي في العصر الجاهلي فرضت عليه حالة من عدم الاستقرار، فهو في صراع دائم، وتنافس مستمر مع الآخر، إنْ على الصعيد الداخلي أو الخارجي، من أجل المحافظة على وجوده الشخصي، ووجود القبيلة نفسها. وعلى هذا الأساس، كان منطق فرض القوة، متمثلا بالحروب

---

(1) انظر، مثلا، ضيف، شوقي ، **البطولة في الشعر الجاهلي**، ط2، القاهرة: دار المعارف- ص17-31؛ والجندي، علي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار الفكر العربي، 23-26.

والغارات، والخصومات والمنازعات، طابعا مميزا للحياة العربية في العصر الجاهلي. إذ "كانت الجاهلية العربية تعبد رموز القوة، والعظمة، عبادة بدائية، وتؤله مظاهر الطبيعة المختلفة"(1). يقول قُرَيْط بن أُنَيْف العَنْبَريّ(2): (البسيط)

قَوْمٌ إذا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ طَـارُوا إليـهِ زَرَافَـاتٍ وَوُحْـدانا(3)

لا يَسْأَلُونَ أَخَاهُمْ حِيـنَ يَنْدُبُهُمْ في النائِبَاتِ عَلَى ما قَالَ بُرهَانَا

فالشاعر يقدّم في هذه الأبيات النموذج والمِثَال الذي ينبغي أن يكون عليه أفراد القبيلة من الشجاعة وسرعة تلبية نداء الاستنجاد والاستغاثة وطلب النصرة، فمدح قوم بني مازن بهذه الصفات وبقدرتهم على القتال واستعدادهم للحرب، فإذا ما استصرخهم أحد أفراد القبيلة هبّوا لنجدته، دون إبطاء أو تردد فهم قوم إذا ظهر لهم الشرّ واشتدَّ أمره سارعوا إليه غير متخاذلين، ولا ينتظرون حتى يجتمع فرسان القبيلة وشبابها، إنما ينطلقون لتلبية نداء القتال، أشتاتا وجماعات.

وسأعرض فيما يلي -- إنْ شاء الله -- العمق التاريخي لظاهرة الأسر والسبي في الجزيرة العربية وأهم الأسباب والظروف التي ساهمت في تشكيلها، وانتشارها الكبير في المجتمع العربي؛ فلقد كان النظام الاجتماعي السائد في الجزيرة العربية، ومفهوم القبيلة وشيوع الثأر، وقدسية مبدأ العصبية القبلية، وقلة الموارد المعيشية، وطبيعة العلاقات السياسية، من أهم الجوانب التي ساهمت في بروز ظاهرة الأسر والسبي في العصر الجاهلي.

---

(1) بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العرب**، ط5، نقله إلى العربية عبدالحليم النجار، القاهرة: دار المعارف، ج1: 134.

(2) المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن(421هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، ط1، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، 1991، ص27–30. وانظر، **ديوان الحماسة**، التبريزي، 13.

(3) النَّاجذ: ضرس الحِلْم، وقال بعضهم النواجذ: الضواحك، وإبداء الشَّرّ ناجذيه مثلٌ لِشِدَّتِهِ وصعوبته، والزرافات: الجَمَاعَات (ابن منظور: نجذ، زرف).

المجال الاجتماعي

ظاهرة الأسر والسبي صورة من الحياة الاجتماعية التي عرفها المجتمع العربي في العصر الجاهلي؛ فقد سعى كل فرد من أفراد القبيلة آنذاك إلى أخذ الأسرى والسبايا، في سبيل إثبات الذات واستعراض القوة، وشدة الشكيمة، تحقيقا للمفاخر والمحامد والأمجاد، وبثاً للرعب في قلوب الآخرين فيهابه القريب، ولا يعتدي عليه البعيد، وتقر له القبيلة بالشجاعة، ويمجد الشعراء فعاله. فكان الأسر والسبي ذا أبعاد اجتماعية، وآثار سلبية على الفرد والقبيلة، وعلى الآسر والأسير معا، ولكن من زاويتين مختلفتين، بل متضادتين. إنهما وجه أخر لصراع البقاء؛ فهذا زُهَيْر بن جَنَابٍ غزا بكرا وتغلب ابني وائل، وهم على ماء يقال له الحُبَيّ، يقتتلون قتالًا شديدًا، ثم انهزمت بكر أولا وتلتها تغلب، فأُسِر في هذا اليوم فرسان تغلب ورجالها، وسيقتْ أموالهم، بعد أن قتلتْ كَلْب الكثير من فرسان تغلب وسادتها، فقال زُهَيْر بن جَنَابٍ الكَلْبيّ في ذلك(1): (الكامل)

تَبّاً لِتَـغلِـبَ إذْ تُـسَـاقُ نِساؤُهُمْ ... سَوْقَ الإِماءِ إلى المَواسِمِ عُطَّلاَ(2)

لَحِقَـتْ أَوائِـلُ خَـيْـلِـنا سَرَعانَهُمْ ... حَتّى أَسَـرْنَ عَـلَى الحُبَيِّ مُهَلْهِلاَ(3)

إِنّا مُـهَلْـهِـلُ مـا تَـطيـشُ رِمَاحُنا ... أَيّـامَ تَنْـقُـفُ في يَـدَيْـكَ الحَـنْظَلاَ(4)

---

(1) زُهَيْر بن جَنَابٍ الكَلْبيّ، **الديوان**، ط1، صنعة محمد شفيق البيطار، بيروت: دار صادر 1999م ق22: 98-99. وانظر: الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد (ت356هـ) **الأغاني**، ط3، تحقيق إحسان عباس وابراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت: دار صادر، 2008م، 19: 17.

(2) المواسم: جمع المَوْسِم وهو مُجْتَمَعُ الحَجِّ والسُّوق، والعُطَّل: جمع العاطل: وهي المرأة التي لا حَلْيَ عليها ولا زينة (ابن منظور: وسم، عطل).

(3) وسَرَعانُ كلّ شيءٍ: أوائلُه (ابن منظور: سرع)، والحُبَيّ: هو ماء لبني بكر وتغلب ابني وائل كانوا عليه حين قاتلهم زهير بن جَناب، وقال ياقوت: "حُبَيّ: بالضم ثمّ الفتح وياء مشدّدة بلفظ التصغير: وهو موضع بتهامة كان لبني أسد وكنانة"، (معجم البلدان: حُبَيّ).

(4) طاشَ السَّهمُ والرُّمحُ: مالَ وانحرفَ عن الهدف فلم يصبه، ونَقْفُ الحَنْظَل: شقُّهُ عن الهبيد ليُؤْكَلَ عند عَدَم الزاد (ابن منظور: طيش، نقف).

وَلَّتْ حُماتُكَ هَارِبينَ مِنَ الوَغى وَبَقيتَ في حَلَقِ الحَديدِ مُكَبَّلاَ

فَلَئِـن قُـهِرْتَ لَـقَدْ أَسَـرْتُكَ عَـنْوَةً وَلَئِـنْ قُتِـلْتَ لَـقَدْ تَـكُونُ مُـرَمَّلا(1)

وعاب الشعراء مَنْ وقع في الأسر، وحطّوا من قدره ومكانته الاجتماعية، فهذا زُهَيْر بن جَنَاب يعير بني تغلب بهذه الواقعة، حيث لا مفر لهم من الموت المحقق، فقد أُسِرَ زعماءُ تغلب، فذكر منهم مُهَلْهِلا وأخاه كُلَيبا ابني رَبيعة التّغلبيّين، وكذلك ابن عمرو فأصبحوا مُقَيّدِين، لا يملكون من أمرهم شيئا، وسبى نساءهم، وبيّن ذلك في قصيدةٍ يقول فيها(2): (الخفيف)

أَيْـنَ أَيْـنَ المَـفَـرُّ مِنْ حَذَرِ المَـوْ تِ وَإِذْ يَتَّـقُـونَ بِالأَسْـلابِ(3)

إِذْ أَسَـرْنَـا مُـهَـلْـهِـلاً وَأَخَـاهُ وَابْنُ عَمْرٍو في القِدِّ وَابْنُ شِهَابِ(4)

وَسَبَـيْـنَـا مِـنْ تَـغْلِبٍ كُـلَّ بَيْضا ءَ رَقُـودِ الضُّحى بَرُودِ الرُّضابِ(5)

يَـوْمَ يَـدْعُـو مُـهَـلْهِلٌ يـا لَبَكْـرٍ ها أهذي حَفيظَـةُ الأَحْسـابِ

وَيْحَـكُـمْ وَيْـحَـكُـمْ أُبِيْـحَ حِماكُمْ يَا بَنِي تَغْلِبَ أَمَا مِنْ ضِـرابِ

وَهُـمُ هـارِبـونَ فـي كُـلِّ فَـجٍّ كَشَرِيـدِ النَّـعـامِ فَـوْقَ الـرَّوابي

وَاسْتَـدارَتْ رحـى الـمَـنـايـاعَـلَيْـهِمْ بِلُـيـوثٍ مِـنْ عَـامِـرٍ وَجَـنـابِ(6)

---

(1) العَنْوَةُ: القَسْرُ والقَهْرُ، ورُمِّلَ فُلانٌ بالدَّمِ: لُطِّخَ به، فهو مُرَمَّل (ابن منظور: عنا، رمل).

(2) زُهَيْر بن جَنَابٍ الكَلْبيّ، **الديوان**، ق4: 61–63. وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج19: 18.

(3) الأسلاب: جَمْعُ السَّلَبِ، وهو كلُّ شيءٍ على الإنسان مِن ثيابٍ وسِلاح (ابن منظور: سلب).

(4) ابن عمرو و ابن شهاب: غير معروفين كما يذكر محقق الديوان ولكن نستطيع القول أنهما من زعماء أو فرسان تغلب وبكر، القِدّ: سَيْرٌ يُقَدّ– أي يقطع– من جلدٍ غير مَدْبُوغٍ (ابن منظور: قدد).

(5) رَقَد: نام وهي رَقود الضّحى: تفعل ذلك كثيراً توصف به المرأةُ المخدومةُ، والرُّضابُ: الرِّيق وقيل الرِّيق المَرْشوف، والبَرودُ: ما يُبْرِدُ الغُلَّةَ مِنَ الشّراب (ابن منظور: رقد، رضب، برد).

(6) عامر: هو عامر الأكبر بن عوف بن بكر بن عوف بن عذرة بن اللّات بن رفيدة بن ثور بن كلب وهو أبو بطون كثيرة من كلب ويقال لهم جميعاً بنو عامر، وجَناب: هو والد زُهَيْر وبنو عُلَيْم وبنو عديّ وبنو حارثة.

لقد أوجدت البيئة الصحراوية في نفس العربي حب الحرية وعشق القوة، فجَعَلَ حياته حرباً دامية لا تتوقف(1). فكانت القبيلة تؤمن بأهمية إخضاع القبائل الأخرى لسلطانها ومشيئتها، تحقيقا للمجد العظيم والشرف الرفيع، مما أوجد صراعا عنيفا بين القبائل؛ ظهر أثره على العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع القبلي الواحد، ذلك المجتمع الذي أباح الغارة والسلب والنهب، واعتمد مبدأ القوة وآمن بأن "الغزو أدرّ للقاح، وأحد للسلاح"(2). مُعْلنا بأنّ البقاء للأقوى والأقدر على انتزاع الكرامة والحرية. قال الأَخْنَس التّغْلِبيّ(3): (الطويل)

وَنَحنُ أُناسٌ لا حِجَازَ بِأَرْضِنا — مَعَ الغَيْثِ ما نُلْقَى وَمَنْ هُوَ غالِبُ

تَرَى رائِدَاتِ الخَيلِ حَوْلَ بُيُوتِنا — كَمِعْزَى الحِجَازِ أَعْوَزَتْها الزَّرائِبُ

أَرَى كُلَّ قَومٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ — وَنَحنُ خَلَعْنا قَيْدَهُ فَهْوَ سَارِبُ

لقد قامت حياة العرب في الجاهلية على تعظيم شأن القوة كمعطى أساسي في التعامل مع الآخر فالحق للقوة، والغاية تبرر الوسيلة، وفي هذا يقول فيليب حتي: "إن حب القتال قد استولى على نفوس أهل البوادي، حتى أصبح شن الغارات نموذجا للأعمال التي تليق بذوي الرجولة الحقة أن ينصرفوا إليها"(4). فهذا دُرَيْد بن الصِّمَّة يخلد إخوته الثلاثة الذين قضوا في ساحات القتال، بين وقع السهام، وضرب الرماح، إنهم لا يستسلمون أمام الموت بل إن القتال قد كُتب عليهم، فقال

---

(1) انظر، مثلا، الجندي، علي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار الفكر العربي، 19-22؛ وضيف، شوقي، **العصر الجاهلي**، ط22، القاهرة: دار المعارف،2000، 62- 67.

(2) أبن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، **عيون الأخبار**، ط1، تحقيق منذر محمد سعيد أبو الشعر، بيروت: المكتب الإسلامي، 2008م، ج1: 354.

(3) المفضليات، ق41: 203.

(4) حتّى، فيلب، أدوارد جرجي، جبرائيل جبور، **تاريخ العرب**، ط7، بيروت: دار إحياء العلوم،1986، ص53.

يرثي إخوته؛ عبد الله، وقيس، وعبديغوث،(1): (الطويل)

تَقولُ أَلاَ تَبَكِي أَخَــاكَ وَقَــد أَرَى مَكانَ البُكا لَكِنْ بُنــيتُ عَلَــى الصَّبْــرِ
لِمقْتَلِ عبدِالله والـــهالِـك الــذي على الشَّرَفِ الأعْلَى قَتِيلِ أَبي بَكْرِ(2)
وَعَبْدِ يَغُوثٍ أو خَلــيليَ خــالِــدٍ وَعَزَّ المُصابُ حَثْوُ قَبْرٍ عَلى قَبْرِ(3)
أَبَى القَتْـلُ إلاَّ آلَ صِـمَّةَ إنَّــهُم أَبَوْا غَيْرَهُ وَالقَدْرُ يَجْـرِي إِلى القَدْرِ(4)
فَإمّــا تَرَيْنَـا لاَ تَـــزَالُ دِمَــاؤُنـا لَـــدَى وَاتِرٍ يَشْقَى بِـهَا آخَرِ الدَّهْــرِ
فَإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْــرَ نَـكِيرَةٍ وَنُــلْحِـمْهُ حِيناً وَلَيــسَ بِـذِي نُكْـرِ
يُـغـارُ عَـلَيْنَـا واتِـريــنَ فَيُشْتَفَى بِنَا إِنْ أُصِــبنَا أَو نُـغيرُ عَلَى وِتــرِ
بِذَاكَ قَسَمنَا الدَّهرَ شَطرَينِ قِسمَةً فَمَا يَنقَـضِي إلاَّ وَنَــحنُ عَـلَى شَطـرِ

لقد خلف هذا الصراع الكثير من الأسرى والسبايا بين أفراد المجتمع، فهم في حالة حرب دائمة وجميع الاحتمالات واردة، والنّهب والسّلب غاية، وطلب الموت في القتال بسالة. لقد أضاف الأسر والسبي بُعدا جديدا، ومجالا واسعا، لتحقيق الذات، واستمرار المنازعات، وانبرى أفراد القبيلة يهددون أعداءهم، ويحذرونهم من أسر رجالهم، أو سبي نسائهم، بل كانوا يقفون إلى جانب حلفائهم ويحذرون القبائل الأخرى من أسر أو سبي أحد من حلفائهم، فعندما أسَر بنو لأم الطائيون

---

(1) دُرَيْد بن الصّمة، **الديوان**، تحقيق عمر عبدالرسول، القاهرة: دار المعارف، 1985م، ق21: 95-97.
(2) قتيل أبي بكر: يعني به أخاه قيسًا وقد قتله بنو بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة من هوازن.
(3) عبد يغوث: أخ آخر لدُرَيْد قتله مُجَمِّع بن مُزاحِم أخو شَجْنَةَ بن مُزاحم من يَرْبُوع بن غَيْظِ بن مُرَّةِ. وخالد: أخ لدُرَيْد قتله بنو الحارث بن كَعْبِ من مَذْحِج.
(4) القدر يجري إلى القدر، يقول المرزوقي: "يريد كما قُدِّروا للقتل، قُدر القتل لهم. لأنهم بما اجتمع فيهم من الخصال الشريفة التي يختارها الدهر لنوائبه، كأنهم خلقوا للدهر ولتأثيره الذي هو القتل. لأن القتل لما كان أشرف أسباب الحتف عندهم فأحبوه ومالوا إليه، صاروا لذلك كأن القتل خُلق لهم". **الحماسة**، ص824.

جماعة من آل بدر الفزاريين --حلفاءَ أسد-- وجزوا نواصيهم على الثواب، انتفضت قبيلة أسد وانتصرت لحلفائها بني بدر، فقام بشر بن أبي خازم شاعر بني أسد يتوعد بني لأم ويهددهم بالحرب والقتال إنْ هم لم يطلقوا سراح الأسرى من بني بدر، ولم يعيدوا هذه النواصي والأسرى معاً إذ يقول(1): (الوافر)

فإذْ جُزَّتْ نَوَاصِي آلِ بَدْرٍ   فَأَدُّوها وَأَسْرَى في الوَثاقِ(2)

وإلاَّ فاعْـلَمُـوا أنَّـا وَأنْتُـمْ   بُغاةٌ مـا حَيِينَا في شِقـاقِ(3)

عظَّم المجتمع الجاهلي من شأن الآسر وقدرته وفروسيته وقدّموه في مجالس أنديتهم، واستشاروه في أوقات مصائبهم. فعندما رجع الأسود بن المنذر، أخو النعمان بن المنذر اللخمي بعد غارته على الحليفين أسد وذبيان، أغار على الطَّفّ، فأصاب نعماً وأسرى، وسبى من بني سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة رهط الأعشى، والأعشى غائب، فلما قدم وجد الحي مباحا، فانطلق محاولا إنقاذ الأسرى والسبايا(4)، فقال يمدح الأسود بن المنذر بكثرة قتله الأعداء، وكثرة ما أخذ من الأسرى(5):

رُبّ رَفْدٍ هَرَقْتَهُ ذَلِـكَ اليـو   مَ وأسْرَى مِنْ مَعْشَرٍ أقْتَالِ(6)   (الخفيف)

وَشُيُوخٍ حَـرْبَى بشَـطَّـيْ أَرِيكٍ   ونِـسَاءٍ كأَنَّهُـنَّ السَّـعَالِـي(6)

---

(1) بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، ط1، تحقيق عزة حسن، بيروت: دار الشرق العربي، ق34: 165.

(2) النواصي: جمع الناصية وهي قصاص الشعر في مقدم الرأس وجزّ الناصية: قطعها (ابن منظور: نصا).

(3) بغاة: أي متعادون يبغي بعضنا على بعض جمع باغ، والشقاق: الخلاف والتعادي (ابن منظور: بغا، شقق).

(4) البغدادي، عبدالقادر بن محمد، **خزانة الأدب ولب لباب ابن منظور**، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، ج9ط3: 573. والطَّفُّ: موضع بناحية العراق من أرض الكوفة، (**معجم البلدان**،ج4: 34-35).

(5) الأعشى الكبير ميمون بن قيس، **الديوان**، تحقيق محمد حسين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1992م، ق1: 13.

(6) الرِّفْد: القدح العظيم الضخم، أقْتَال: أعداء (ابن منظور: رفد، قتل).

(7) حَرْبَى: جمع حَريب وحَرَبَه يحْرُبه إذا أخذ مالَه، السعالي: جمع السِّعلاة وهي أخبث الغيلان (ابن منظور: حرب، سعل).

وشَـــرِيكَيْنِ فـي كَثيرٍ مِنَ الما ل وكــانـا مُـحَـالِفَيْ إقْلالِ(1)

فَسَمَا الـطَّارِفَ والتَّلِيدَ من الغُنْـ مِ فـآبـا كِـــلاهُــمَا ذُو مَالِ

شكّلتْ قضية الأسرى والسبايا محور هذه القصيدة وغايتها، التي تعدّ من أجود شعر الأعشى(2) فكان هدفها إطلاق سراح هؤلاء الأسرى والسبايا، فمجتمع قوم الأعشى تعرض لخطر كبير؛ فالنساء أصبحن سبايا يعانين الذل والهوان، والشيوخ قد سُلبتْ أموالهم، والرجال مقيدون في الأسر، فما كان من الأعشى إلا أن تصدى لمهمة إنقاذ الأسرى، فأنشد هذه القصيدة بين يدي الأسود يذكر فيها شجاعته وقدرته القتالية في صور متعددة، فما كان من الأسود إلا أن أطلق الاسرى والسبايا(3). ولقد كان الأسرى والسّبايا الثمرة الممتازة التي طلبها المقاتلون في الحروب والغارات والغزوات فكانت مجال اجتهادهم ورجولتهم، يتسابقون إلى أسر السادة والقادة والفرسان المشهورين، فما أن تنكشف المعركة حتى يسارع المنتصرون إلى ملاحقة المنهزمين لأسرهم، والنساء لسبيهن، قال طُفَيل الغَنَوِيّ(4): (الطويل)

فَرُحْنَا بأسراهُمْ مع النَّهْبِ بَعْدَما صَبَحْناهُمُ مَلْمُومَةً لا تُكَذِّبُ

فلا يكتمل نصر القبيلة ولا يكلل نجاح القوم إلا بالغنائم، وخير الغنائم كثرة الأسرى، ولقد وقف أكثم بن صيفي ناصحا قومه، لما جاءت مَذْحِج لقتال تميم قائلا لهم: "البسوا جلود النمور، والثبات أفضل من القوة، وأهنأ الظفر كثرة الأسرى، وخير الغنيمة المال، ولا ترهبوا الموت عند الحرب؛ فإن الموت من ورائكم، وحب الحياة لدى الحرب زلل"(5).

---

(1) شريكين: من جنوده، ومحالفي إقلال: فقيرون.
(2) الأعشى الكبير ميمون بن قيس، **الديوان** ، ص3.
(3) **السابق**، ص2.
(4) طفيل الغنوي، **الديوان**، ط1، تحقيق حسّان فلاح اوغلي، بيروت: دار صادر، 1997. ص61، وملمومة: يعني كتيبة منتشرة، لا تُكَذِّب: أي لا تحجم (ابن منظور: لمم).
(5) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 494.

ولمّا كان الإنسان في العصر الجاهلي لا ينفصل عن إطار قبيلته انطلاقا من مبدأ العصبية القبلية؛ فقد ساهمت مجموعة المظاهر الاجتماعية السائدة في المجتمع الجاهلي في تشكيل ظاهرة الأسر والسبي في العصر الجاهلي، وعملت على إضفاء قبول لمثل هذه الظاهرة على الرغم من قسوتها وألمها على الفرد والقبيلة؛ فالإنسان كائن اجتماعي بالفطرة، ارتضى لنفسه الانخراط في جماعة من الناس، فترتبت عليه واجبات، يؤديها نحو جماعته، وله حقوق عليها لا يتنازل عنها، ما دام في ظل جماعته. وعلى هذا الأساس، فإن الجماعة كانت توجّه سلوك أفرادها في استجاباتهم لمختلف المتغيرات الحياتية التي تمر بهم. بل وشكلت ثقافتهم ورؤيتهم للحياة، في مختلف مراحلها وتعدد مواقفها. لقد أصبح لكل جماعة منظومة أخلاقية، تتمسك بها، وتدافع عنها وتتناقلها جيلا بعد جيل. يقول طُفَيل الغَنَويّ بعد غارة لقومه على طيء فأسروا منهم، وعادوا بسبايا(1): (الوافر)

سمونا بالجـيـاد إلـى أعــادٍ   مُـغـــاورةً بِــــجِّـدٍ واعْتِصَـابِ

نَؤمُّهُمُ على وعْثٍ وشَـحْطٍ   بقُـودٍ يَطَّلِعْـنَ مِنْ النِّقَـابِ(2)

وقَتَّلْـنا سَــرَاتَـهُمُ جِـهَــاراً   وجِئْــنا بالسَّـبَايَـا والنِّـهَـابِ

وقد لجأ الإنسان الجاهلي في سعيه الدائم لتحقيق مزيد من القوة والمنعة، إلى تشكيل النظام القبلي والتمسك به، والولاء لكل مظاهره وأشكاله. إن انتماء العربي إلى قبيلته يحقق وجوده ويبلّغه أهدافه التي يسعى إلى تحقيقها، بشكل لا يتعارض مع المصلحة العليا للقبيلة، فمصلحة القبيلة ووحدتها أمر مقدس، والمحافظة عليه واجب على كل فرد من أفراد القبيلة؛ من خلال مجموعة الأعراف

---

(1) طفيل الغنوي، **الديوان**، ص128- 129.

(2) نؤمهم: نقصدهم. والوعث من الرمل: ما غابت فيه الأرجل والأخفاف، والشَّحط: البعد، والقُود بضم القاف جمع أقود قوداء: السلس الانقياد، والقَود بالفتح: الخيل، النِّقاب: الطريق الضّيق في الجبل (ابن منظور: أمم، وعث، شحط، قود).

والتقاليد الاجتماعية التي تسيّر شؤون حياتهم، وتُلزم كل فرد بأداء ما عليه من واجبات، في المقابل تكفل القبيلة مجتمعة ما له من حقوق. ومن هنا كان الانتصار على القبائل المعادية وأسر فرسانها يحقق للقبيلة أمنها الذي تنشده، فلا تطمع القبائل في غزوها، ولا تستبيح حماها، يقول طُفَيل الغَنَويّ(1) : (الطويل)

أَبَأْنَا بِقَتْلانَا من القَوْم مِثْلَهم وما لا يُعَدُّ من أَسِيْرٍ مُكَلَّبِ

ويذكر رَبيعة بن مَقْرُوم الضَّبِّيُّ، أسر قومه ابن حصن وقد أصبح مقيدا، لا يملك فكاكا من قيوده وكذلك انتصارهم على قبائل فَرير وبُحْتُر ومَعن وجَدِيلَة وعَمِيرَة والصِّلَّخم، وكلها من طيء(2):

(الطويل)

ونحن سَقَيْنا مِنْ فَرِيرٍ وبُحتُرٍ بِكلِّ يَدٍ مِنَّا سِناناً وثَعْلَبَا(3)

ومَعْنٍ ومِن حَيَّيْ جَدِيلَةَ غادَرتْ عَمِيرَةَ والصِّلَّخْم يَكْبُو مُلَحَّبَا(4)

ويومَ جُرَادَ اسْتَلْحَمَتْ أَسَلاَتُنا يَزِيدَ ولم يَمْرُرْ لَنا قَرْنُ أَعْضَبَا(5)

وقاظَ ابنُ حِصْنٍ عانِياً في بُيُوتنا يُعالِجُ قِدًّا في ذِرَاعَيْهِ مُصْحَبَا(6)

---

(1) طفيل الغنوي، **الديوان**، ص46.

(2) **المفضليات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف: القاهرة، ط7، 1983م، المفضلية رقم 113، ص378.

(3) الثعلب: ما دخل من طرف الرمح في السنان (ابن منظور: ثعلب)، أراد أنهم سقوا هذه القبائل كأس المنية برماحهم.

(4) يكبو: ينكب على وجهه. الملحب: من قولهم لحبه أي ضربه بالسيف أو جرحه (ابن منظور: كبا، لحب).

(5) جراد: موضع كان فيه يوم من أيامهم، وهو ماء في ديار بني تميم عند المروت كانت به وقعت الكلاب الثانية، استلحمت: جعلته لحما، الأسلات: القنا والواحدة أسلة، الأعضب : المكسور أحد القرنين، والعرب تتتشاءم به، يقول: لم يمرر في ذلك اليوم ما يتشاءم به (ابن منظور: أسل، عضب).

(6) قاظ: أقاظ القيظ كله. العاني: الأسير. القِدّ: السّير من الجلد، وقد مصحب: عليه صوفه أو شعره أو وبره (ابن منظور: قيظ، عنا، قدد).

وفـارسَ مَــرْدُودٍ أَشَـاطَـتْ رِماحُنا   وأَجـزَرْنَ مَسْعُوداً ضِبَـاعاً وأَذْؤُبَـا(1)

لقد سيطر النظام القبلي على علاقة أفراد القبيلة الواحدة فيما بينهم، مثلما سيطر على علاقات القبيلة الخارجية بغيرها من القبائل؛ فالفرد يمثّل القبيلة وينصهر فيها، ويدافع عنها؛ فكل ما يحققه الفرد من بطولة مادية أو معنوية يعدّ مكسبا للقبيلة كلها تخلده وتفخر به. وبالمقابل قد تدخل القبيلة في حرب طاحنة من أجل أحد أفرادها أنْ تصيبه إهانة أو ذلة أو يلحق به ضيم، فتحقق بذلك أمجادها، وتظهر قوتها ومنعتها أمام القبائل الأخرى، فالفرد يدافع عن شرف القبيلة وكرامتها ويفخر بها، ويخلد انتصاراتها، والقبيلة تحمي الفرد وتدافع عنه. وقد رسم الشاعر عنترة العبسي صورة مثالية لما ينبغي أن يكون عليه فتى القبيلة إذ يقول(2):   (الوافر)

وَإِنّي اليَومَ أَحمي عِرضَ قَومي   وَأَنـصُرُ آلَ عَبسَ عَلى العُدَاةِ

وَآخُـذُ مـالَنـا مِـنهُـم بِـحَـربٍ   تَـخِـرُّ لَـهـا مُـتُونُ الرَّاسِياتِ

وَأَتـرُكُ كُـلَّ نـائِحَـةٍ تُـنـادي   عَلَيـهِـم بِالـتَـفَرُّقِ وَالشَّتـاتِ

ومن مظاهر التكامل الاجتماعي التي حرص عليها العربي في العصر الجاهلي المحافظة على حرمة نساء القبيلة وحمايتهنّ من السّبي، والدفاع عنهن، ولذلك عملوا على حمايتهن بكل ما أوتوا من قوة وشجاعة، أمام المحاربين المعتدين، أو في ساحة القتال، قال الأفوه الأودي(3):

نقاتِلُ أَقواماً فنَسبي نساءهُمْ   ولم يَرَ ذو عِزٍّ لنسْوَتِنا حِجْلاً(4)   (الطويل)

---

(1) مردود: اسم فرس، فارسها زياد الغساني أخو محرق بن الحرث بن مزيقياء. أغار في أياد وطوائف من العرب غلى بني ضبة بن أد ببزاخة، فاقتتلوا وأسر محرق وأخوه، وقتلتهما بنو ضبة. أشاطت رماحنا: عرضته للقتل. أذؤب: جمع ذئب. أجزرن: جعلته جزرا للضباء والذئاب (ابن منظور: شيط، جزر).

(2) الخطيب التبريزي، زكريا بن يحيى بن علي(502هـ)، **شرح ديوان عنترة**، ط1، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، 1991، ق25: ص39.

(3) الأفوه الأودي، **الديوان**، ق20: 100.

(4) الحِجْل: الخلخال (ابن منظور: حجل)

وعلى النقيض من ذلك، كان سبي النساء فخرا اجتماعيا عظيما، تزداد أهميته كلما ازدادت أهمية المرأة الاجتماعية لدى قومها، فكانت القبائل تحرص على سبي النساء ذوات المكانة الاجتماعية العالية، من بنات رؤساء القبائل، وشيوخها، أو زوجاتهم. فحين أغار أبو بُرْدَة بن هِلال على هوازن سبى منهم صخرةَ بنت أسماء بن الضَّريبة النَّصريّ وامرأتين يقال لهما بَيْقَر وَرَيَّا(1)، وحين أغارت بنو سُلَيْم على كِنانة في يوم الفَيْفَاء، سبت ابنة مَكْدَم أخت ربيعة(2) وغيرهنّ كثير كما سيأتي في ثنايا هذا البحث لاحقا. ولقد تعرّض المجتمع الجاهلي إلى حالة من عدم الاستقرار نتيجة لحوادث الأسر والسّبي حيث اتخذتْ القبائل من سبي النساء سلاحا فعالا في تحطيم الروح المعنوية والاجتماعية للأعداء فيسخرون من عجزهم عن منع نسائهم من السّبي، فينتابهم الحزن العميق والألم المرير من جرح الكرامة، وتدنيس الأعراض، يقول عامر بن الطفيل(3): (الوافر)

قتلْنا كَبْشَـهُم فَنجو شِـلالا كما نفّرْتَ بالطَّردِ النَّـعاما(4)

وجئـنَا بالنّـساء مُردَّفَـاتٍ وأذوادٍ فكُنَّ لـنا طـعامـا(5)

فالشاعر يفخر بقتل قومه رئيس القوم، وقد ألحقوا بالأعداء الهزيمة النكراء، والذلّ والعار الذي لا ينسى، وانهزم البقية فارّين من ساحة القتال، مذعورين مفزوعين لا يلوون على شيء، بل يعيرهم بتركهم النساء عرضة للسبي، وقد أردفهن الفرسان خلفهم ذليلات خائبات، ولم يكونوا أوفياء

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 94.

(2) ابن عبدربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م، ج6 :39.

(3) عامر بن الطفيل العامري، **الديوان**، بشرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري قراءة على أبي العباس ثعلب، بيروت: دار صادر، 1979، 110-111.

(4) الكبش: الرئيس هنا. شِلالا: طردا، يقال شَلّه طرده، ورجل مِشَلّ طارد (المعجم الوسيط: كبش، شلل).

(5) مُرْدَّفَات: أي سبيناهنّ فهنّ مردّفات أي أركبهن خلفه، والذّود: بين الثلاثة إلى العشَرة (ابن منظور: ردف، ذاد).

لهن، فيحافظوا عليهن، وإنّما تركوهن في ساحة القتال، لقمة سائغة في أيدي الرجال، يعانين من ذلّ السبي والعبودية.

اعتزّ الجاهلي بشجاعة قبيلته، وقوة رجالها، وإنهم بسبب ذلك، لا تُسبى نساؤهم، ولا تقرب ديارهم لعزتها ومنعتها، فهذا الحَارِثُ بن غَزْوان الزَّيْديّ التَّغْلِبيّ، يذكر قدرة قومه على سبي نساء الأخرين حتى إنه لكثرة ما سبى قومه من النساء، ما ناسب حيّا من أحياء العرب، إلا وجدهم أخواله، حيث يقول(1):

أرانـي كـلَّـمـا نـاسَـبْـتُ حيّـا   أرى لي من كرام النَّاس خالا   (الوافر)

وما تحتَ السماء لنا ابن أخت   بـمُردفـةٍ علـيهـا القِـدْحُ جالا

ومن المظاهر الاجتماعية التي عززت من حوادث الأسر والسبي ظاهرة **الثأر** التي ألفها المجتمع العربي في العصر الجاهلي، بل لقد أسرف العربي في طلب الثأر، وعدّ قبول الدِّيَة عارا وذلا.

لقد كانت ساحات القتال ميدانا يكثر فيه القتلى، ولما كان القتلى ينتسبون إلى قبائلهم وعشائرهم فلا بد من الثأر، ولا يغسل الدم إلا الدم، لا يزيل العار إلا الثأر من القاتل فالقاتل يُقْتَل ولو بعد حين. لقد بالغ العرب بالثأر، فكانوا يقطعون على أنفسهم العهد، بأن يمتنعوا عن ملذّات الحياة ومباهجها فلا يشربون الخمر ولا يقربون النساء، ولا يغتسلون حتى يدركوا ثأرهم، فلا شيء يلهيهم عن طلب الثأر(2).

ذُكِرَ أن عِصْمَةَ بن حَدْرَةِ اليَرْبُوعِي الجاهليّ، عندما قتلت بنو عبس ابنَ عمٍ له، نذر ألا يقرب

---

(1) الخالديان، أبو بكر محمد ت 380هـ وأبو عثمان سعيد ت391هـ ابنا هاشم، **الاشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين**، تحقيق: السيد محمد يوسف، القاهر: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ج1: 93.

(2) انظر، مثلا، ضيف، **البطولة في الشعر العربي**، ص19-22. والحوفي، **الحياة العربية من الشعر الجاهلي**.

النساء، ولا يشرب الخمر، ولا يأكل اللحم، ولا يغتسل حتى يدرك ثأره من بني عبس، ويقتل منهم سبعين رجلاً، فلما قتلهم قال(1) : (الرجز)

الله قـد أمكننـي مـن عبـس ساغ شرابي وشفيتُ نفسـي

وكنت لا أقرب طُهْـر عِرْسِي وكنتُ لا أشرب فضل الكأس

ولا أشدُّ بالوِخاف رأسي(2)

اقترن الأسر والسبي بالثأر، بل نستطيع القول بأن الثأر يشكل دافعا قويا للأسر والسبي، ذلك أن كل الاحتمالات مشروعة ما دامت تحقق رغبة أهل القتيل في إدراك الثأر، ففي سبيل الثأر تتقاتل القبائل، وتنهب الأموال، ويؤسر الرجال، وتسبى النساء، فعندما أغارت هوازن على بني ليث فأصابوا حيًّا منهم، يقال لهم بنو المُلَوَّح بن يَعْمَر بن عَوف، وَرِعَاءً لبني ضَاطِر بن حُبْشِيَّة، فقتلوا منهم رَجلاً، وسَبوا منهم سبياً كثيراً، واستاقوا أموالهم، قال في ذلك مَالِك بن عَوْف النَّصْرِيّ(3):

ونحن جَلَبْنَا الخيلَ من بطن لِيَّةٍ وجِـلدانَ جُـرْداً مُنْعَلاتٍ ووُقَّحا(4) (الطويل)

فأصبحنَ قد جاوزن مَرًّا وجُحْفةً وجــاوزن مــن أكناف نخلةَ أَبطَحا

تلقَّطن ضَيطارِي خُزاعة بعدما أَبَرْنَ بصـحراء الـغمِـيمِ المُلَوَّحا(5)

قـتلـناهُـمُ حتى تركنا شريدهُمْ نـساء وأيــتاماً ورَجْــلاً مُسَدَّحا(6)

---

(1) المرزباني، الإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران ت 384هـ، **معجم الشعراء**، ط2، تصحيح وتعليق ف. كرنكو، ، بيروت: دار الكتب العلمية ، الناشر: مكتبة القدسي ، 1402 هـ - 1982 م، ص274.

(2) الوِخاف: وَخَفَ الخِطْمِيّ وخْفاً ضربه بيده وبلّه ليتلزج ويصير غسولا والخِطْمِيّ المضروب بالماء يغسل به الرأس والخِطْمِيّ ضرب من النبات يغسل به (ابن منظور: وخف، خطم).

(3) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 94.

(4) وقّح: صلاب الحوافر (ابن منظور: وقح).

(5) الضيطار: الضخم اللئيم، أبار: أهلك (ابن منظور: ضطر، بور،)، الغميم: موضع.

(6) السَدْحُ: الصَرْعُ بَطْحاً على الوجه، أو إلقاءً على الظهر (ابن منظور: سدح).

فإنَّك لو طـالعتـهم لحسِبتهم   بمنعـرَج الصَّـفراء عِتْرا مُذْبَّحا(1)

فلما صنعت هَوازن ببني ضَاطِر ما صنعتْ، صمم قَيْس بن الحِدَّاديَّة على الثأر منهم، فأغار على جموع هَوازن، فقتل عددا من فرسان بني قُشَيْرٍ: أبا زيد وعُرْوَة وعَامِراً ومُرَوَّحاً، وأصاب سبياً ومالاً ثم انصرف وهو يقول(2): (الطويل)

ونحن جَلَبْنَا الخـيلَ قُبّاً بطـونُها   تـراهـا إلـى الدَّاعي المُثَوِّبِ جُنَّحا(3)

بكلّ خُزاعِيٍّ إذا الحربُ شَمَّرتْ   تــسربَلَ فـيـهـا بُـردَه وتــوشَّحا(4)

قرعْنا قُشيراً فـي المحلّ عشِيَّـةً   فلـم يـجدوا في واسع الأرض مَسْرَحا

قَتَلْنَـا أبا زيـــد وزيــداً وعـامراً   وعــروة أقـصـــدْنَا بـــها ومُـرَوّحا(5)

وأُبْنَا بإبْل الـقومِ تُحدَى ونسـوةٍ   يبكِّـيـن شِــلْواً أو أســيراً مُجرَّحـا(6)

غداةَ سَقيـنا أرضَهم من دمائهم   وأُبْــنا بِأُدْمٍ كنَّ بالأمـس وُضَّــحـا(7)

ورُعْـنا كـلاباً قـبل ذاك بِغـارة   فـسُقْـنَـا جِـلاداً في المُبَارَكِ قُرَّحا(8)

لـقد علمتْ أفناءُ بكر بنِ عامرٍ   بأنَّـا نَـــذودُ الكـاشحَ المتزحـزِحا(9)

وأنّا بـــلا مَهْرٍ سوى البيض والقَنَا   نُصـيـــب بأفـنـاء الـقبـائل مَـنْكَحَا

كان الثأر عاملاً رئيسياً في الحكم على الأسرى، وفي تحديد مصيرهم، فإذا كان بين الأسير وآسريه

---

(1) العِتْر: الرجيبة، وهي شاة كانت تذبح في رجب تقربا إلى الآلهة (ابن منظور: عتر).

(2) الضامن، حاتم صالح، **عشرة شعراء مُقلُّون**، 1990م، ص33.

(3) القَبَب: دقة الخصر وضمور البطن، التثويب: تثنية الدعاء، جنح: جمع جانحة أي مائلة إليه مقبلة عليه (ابن منظور: قبب، ثوب، جنح).

(4) تسربل: كل ما لبس فهو سربال (ابن منظور: سربل).

(5) أقصده: طعنه فلم يخطئه (ابن منظور: قصد).

(6) تحدى: تساق، الشلو: كل مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية (ابن منظور: حدى، شلو).

(7) بأدم: بسبايا من النساء والأدمة: السمرة، وضحا: بيضا، والمعنى: صرن أُدما لشدة ما قاسين من السبي (ابن منظور: أدم، وضح).

(8) الجلاد من الأبل: الغزيرات اللبن أو التي لا لبن لها ولا نتاج، والقُرّح: جمع قارح، الناقة أول ما تحمل (ابن منظور: جلد، قرح).

(9) الأفناء: الأخلاط، الكاشح: الذي يضمر العداوة، المتزحزح: المتباعد (ابن منظور: فني، كشح، زحزح).

ثأرٌ فإنّه يُقتل أخذاً بالثّأر. فقد رُوي أنّه لمّا غزت بنو عامر غَطَفان في يوم الرَّقَم، واقتتلوا قتالاً شديداً، انهزم بنو عامر، وأُسِر منهم أربعة وثمانون رجلا، فدفعوهم إلى قوم من أَشْجَع، كان لهم ثأر عند بني عامر، فقتلوهم أجمعين(1).

ساهمت المرأة في العصر الجاهلي في تحريض الرجال وحثهم على إدراك الثأر، فكانت دعوتهن إلى طلب الثأر شديدة الوقع على الرجال، تنال من كرامتهم، وتسخر من رجولتهم وشجاعتهم، إن لم يدركوا ثأرهم. فكانت المرأة تعيب أن يقبل القوم الدِّيَة من القاتل، أو يتأخروا عن طلب الثأر. فعندما مضى حَولٌ على مقتل عبدالله أخي دُرَيْد بن الصِّمة، ولم يدرك ثأره من غَطَفَان، أنكرت أم دُرَيْد – رَيْحَانَة بِنْت مَعْدِي كَرِب الزَّبِيْدِي– ذلك على دُرَيْد، وقالت له تعيب عليه توانيه وتخاذله في طلب الثأر:"يا بُني إنْ كنتَ عجزتَ عن طلب الثّأر بأخيك فاستعن بخالك وعشيرته من زُبَيْد، فأنف من ذلك وحلف لا يكتحل ولا يدهن ولا يمس طيباً ولا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره"(2) فتجهّز وغزا غَطَفَان فقتل عددا منهم، وأسر قومه ذُؤَاب بن أَسْمَاء بن زَيْد بن قَارِب، أسره مُرّة بن عَوف الجُشَمِيّ، فقالتْ بنو جُشَمَ: لو فاديناه، فلم يرض بذلك دُرَيْد إنطلاقا من مبدأ العصبية القبلية وطالب بأن يسلّموه الأسير ليقتله ثأرا بأخيه، ففعلوا، فقتله دُرَيْد بأخيه عبدالله(3). وقال دُرَيْد في هذه الواقعة(4): (الطويل)

قتَــلْنا بِـعَبْدِالله خَـــيْرَ لِدَاته وخيرَ شَبابِ النَّاسِ لو ضُمَّ أجْمعا(5)

ذُؤابَ بن أسماء بن زَيْد بن قـارِبِ مَـنِيَّتُه أجْــرَى إليــها و أوْضَــعا(6)

---

(1) ابن عبدربه، **العقد الفريد**، ج6: 26.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج10: 13.

(3) **السابق**، ج10: 11.

(4) دُرَيْد بن الصّمة، **الديوان**، ق36: 131.

(5) لِدَةُ الرّجل: تِرْبُهُ والجمع لِدات (ابن منظور: ولد).

(6) ذؤابُ بن أسماء: أحد بني قارب من بني عبس أجرى إليها: قصد إليها، أوضع: الإيضاع، ضرب من السّير(ابن منظور: وضع).

فتىً مِثْل مَتْنِ السَّيف يَهْتَزُّ للْنَدى   كَــعاليــةِ الـــرُّمْــح الرُّدينـيِّ أرْوَعا

لقد شكلت **العصبية القبلية** ميثاقا اجتماعيا، تعاهد أبناء القبيلة على حفظه ورعايته، وسعوا جاهدين إلى احترام هذا الميثاق، وعدم الإخلال به؛ لأنهم رأوا فيه سبيلا للمحافظة على كيان القبيلة واستمرار وجودها. فالعصبية القبيلة مبدأ أخلاقي التزم به أفراد القبيلة الواحدة يقوم على نصرة القبيلة وأفرادها، وعدم مخالفة أمرها ورأيها في الخير والشر. وخير ما يمثل هذا المبدأ دُرَيْد بن الصمة إذ يقول(1):   (الطويل)

فلمّا عَصَوْني كُنْتُ منهم وقد أرى   غــوايتَـهُمْ وأنَّنِي غَيْرُ مُهْتَدِي

وما أنا إلّا مِنْ غَــزِيَّةَ إنْ غَـوَت ْ   غَـوَيْتُ وإنْ تَرْشُـدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

والعصبية القبلية أكبر من أنْ تكون واجباً مفروضاً على أفراد القبيلة؛ بل إنّه مضمار يتسابقون فيه إلى إثبات الذات، وإشباع طموح النفس، وإظهار صفات الرجولة والسيادة، يقول عامر بن الطفيل فارس هَوازن(2):   (الطويل)

وإنّي وإنْ كُنْتُ ابنُ سَيِّدِ عَامِرٍ   وفارِسَـهَا المَنْدوبَ في كُلّ مَوكِبِ

فَما سَوَّدَتْنِي عامِرٌ عَنْ قَرابَــةٍ   أبَـى اللهُ أنْ أسْـــمُـو بأُمٍّ ولا أبِ

وَلَكِنّنـي أحْمي حِمَـاها وأتّقــي   أذاهـــا وأرْمــي مَنْ رَمـاها بِمَنْكِبِ

لقد شكلت العصبية القبلية حماية ذاتية للقبيلة من الاندثار والتشرد والتشتت، بل إنها استطاعت أن تُوجِدَ ملامح عامة، وسمات خاصة لكل قبيلة، مما أوجد كيانا اجتماعيا وسياسيا واضح المعالم تباينت به القبائل بعضها عن بعض، وقد لــجأت القــبائل إلى عقد الأحلاف مــع قبــائل أخرى في

---

(1) دريد بن الصّمّة، **الديوان**، ق12: 62.

(2) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ص13، والمنكب من القوم: عريفهم أو عونهم (ابن منظور: نكب).

محاولة لمد نفوذ القبلية خارج نطاق رابطة الدم والنسب. فالعصبية القبلية وثيقة يحملها أفرادها في حلهم وترحالهم، تؤمِّن لهم الحماية أثناء سفرهم في الصحراء الشاسعة المترامية الأطراف، والضامن لهذ الوثيقة، القبيلة، ممثلة برئيسها، أو شيخها، وجميع أفرادها. ففي حرب بعاث بينما كان القتال محتدما بين الأوس والخزرج، مر بهم رجل من مُزَيْنَة اسمه جُؤَيّ(1)، فدخل مع حلفاء قومه الأوس فأسره رجال من الخزرج، ثم أرادوا قتله، فمر به ثابت أبو حسان الشاعر المعروف، فسأله ساخرا منه: "يا أخا مُزَيْنَة ما طَرَحَك هذا المَطْرَح؟ إنك لمن قوم ما يحمدونك. فقال جُؤَيّ وهو يجود بنفسه: أعطى الله عهدا أن يُقتل بي منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج، فسارت كلمته حتى أتت عُمْق، وهي أرض مُزَيْنَة"(2). فهزت العصبية قلوب رجالهم، وألهبت مشاعرهم، رفضا للذل والضيم فثارت مزينة، وقررت الانتصار لأسيرها القتيل، وقال كعب بن زهير قصيدة من خمسة عشر بيتاً يحرض فيها قومه على سرعة غزو الخزرج، ويعاتبهم على التأخر عن الانتقام ممن قتل جُؤَيّاً، قال فيها(3): (الوافر)

فَأَبْـلِغْ إنْ عَرَضْتَ بِنا رَسُولاً أَبا المَمْلـوحِ إِنَّ لَـهُ جَـلالا(4)

أَمُودٍ خَلْـفُكُـم هَـرَماً وَلَـمّا تَذُوقُوا مِـن عَـداوَتِـنا وَبَالا(5)

وَلَمّا تَـفعلـوا إلا وَعِـيـداً كَفـى بِـوَعِيـدِكُم لَهُمُ قِتـالا(6)

---

(1) المرزوقي، **الحماسة**، 978. جؤي: هو جُؤَيّ بن عائذ من مزينة.

(2) التبريزي، **الحماسة**، ص618.

(3) كعب بن زهير، **الديوان**، ط1، صنعة أبي سعيد السكري، شرح ودراسة مفيد قميحة، الرياض: دار الشوّاف للطباعة والنشر، 1410هـ-1989م، ص 132.

(4) عرضت بنا: مررت بنا وجزت، الجلال: الهيبة والعظمة (ابن منظور: عرض، جلل).

(5) أمودِ: من أودى أي هلك، الوبال: سوء العاقبة (ابن منظور: ودي، وبل)، إنّما يتوعدهم ويتهددهم بقوله: أتراكم تهلك جماعتكم، وحتى أولادكم، ولما تذوقوا من عداوتنا ما يؤلمكم ويكون وبالاً عليكم.

(6) الوعيد: التهديد، يقول: إنما وعيدكم هو على سبيل الأقوال لا الأفعال (ابن منظور: وعد).

فغزت مزينة الخزرج، ورئيسهم يومئذ مُقَرِّن بن عَائذ أبو النعمان بن مُقَّرِن، فاقتتلوا قتالا شديدا، كان من نتائجه أن قتل من الخزرج عشرة رجال، وأُسِر ثابت، فأراد قومه يفتدوه، فرفض رئيس مزينة أن يفديه إلا بتيس أجم أسود، إمعانا في الانتقام لصاحبهم –جُؤَيّ–- فغضبتْ الخزرج من ذلك وأَبَوه فلما رأوا أنه ليس من ذلك بدٌّ، أتوا ثابتا، فقالوا ما ترى؟ فقال ادفعوا إليهم أخاهم؛ يعني التيس وخذوا أخاكم يعني نفسه. فجاؤوا بتيس أجَمّ فأخذه مقرن في سوق عكاظ في مشهد من الناس فذبحه وأطلق ثابتاً(1)، ولما عادتْ مزينة إلى أرضها خرجتْ امرأة مُقَّرِن فقالت له قد وُلِّيتَ أمراً فليت شعري كيف صنعت فيه، فأجابها كعب بن زهير(2): (الكامل)

هَلّا سَأَلْـتِ وَأَنـتِ غَـيـرُ عَـيِيَّةٍ ... وَشِفاءُ ذي العِيِّ السُؤالُ عَنِ العَمى

عَن مَشهَدي بِبُعاثَ إِذ دَلَفَتْ لَهُ ... غَسّانُ بِالبيـضِ القَواطِـعِ وَالقَـنـا(3)

وَعَنِ اعْتِناقــي ثَـابِتاً في مَشْهَدٍ ... مُـتَـنَافِـسٍ فيـهِ الشَّجاعَةُ لِلفَتــى

فَشَرَيتُــهُ بِأَجَــمَّ أَســوَدَ حالِـكٍ ... بِعُكـاظَ مَوقـوفاً بِمَجْمَعِها ضُـــحَا

ما إِن وَجَـدتُ لَـهُ فِـداءً غَيرَهُ ... وَكَذاكَ كــانَ فِـداؤُهـمْ فيما مَضَـى

إِنّي اِمرُؤٌ أَقْنَي الحَياءَ وَشيمَتي ... كَـرَمُ الطَّبيـعَـةِ وَالتَّـجَنُّـبُ لِلـخَنَا

مِن مَـعشَرٍ فيـــهِمْ قُرُومٌ سَادَةٌ ... وَلُيُـوثُ غابٍ حينَ تَضْطَرِمُ الوَغَـى

وَيَصُولُ بِـالأَبــدانِ كُلُّ مُسَفَّرٍ ... مِـثْلَ الشِّــهابِ إِذا تَوَقَّدَ بِالغَضَا(4)

---

(1) التبريزي، **الحماسة**، ص618.

(2) كعب بن زهير، **الديوان**، ، ص 41. وقد نسبت هذه الأبيات في شرح الحماسة للتبريزي، ص618، إلى مقرن بن عائذ الذي أسر ثابت بن المنذر والد حسان بن ثابت الشاعر.

(3) مشهدي: موقفي وفعلي، ودلفتْ له: أقبلتْ عليه (ابن منظور: شهد، دلف). وبعاث: موضع في نواحي المدينة على ليليتين منها كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وغسان: قبيلة.

(4) الأبدان: الدّرع القصيرة، المسفّر: الذي يعد على الملوك ويصلح بين القبائل ويصلح بينم القبائل، الغضا: شجرٌ (ابن منظور: بدن، سفر، غضا).

إنّ رفض سيد القبيلة الأموال التي جُعِلتْ فداء للأسير، واشتراطه أن لا يُفدَى الأسير إلا بتيس أجم ما هو إلا تجسيد واضح لمبدأ الإذلال والإهانة، الذي يمثل شرف القبيلة وكرامتها وعزتها، وإن القبيلة لن ترحم من يعتدي على أبنائها، بل إنها ستلحق به العار والذل وتحطم مكانته الاجتماعية والسياسية بين القبائل، إنّ رئيس القبيلة انتصر لسلطان العصبية القبلية وفاء لأبناء قومه، وحماية لهم من الذل والضيم، فحماية أفراد القبيلة منوطة بها، من الأسر والسبي والقتل، فعزة القبيلة من عزة أفرادها. قال كعب بن زهير يصور هذه الحادثة التي قُتِل بها الأسير جؤي ويخلدُّ ذكره وانتصار قومه له بعد موته(1): (الوافر)

لَـقَـد وَلّـى أَلِـيَّـتَـهُ جُـؤَيٌّ ... مَعاشِـرَ غَيرُ مَطْلُولٍ أَخُوها(2)

فَإِنْ تَـهلِكْ جُؤَيٌّ فَكُلُّ نَـفسٍ ... سَيَجلِبُـها كَـذلِكَ جالِبـوها

وَإِن تَـهلِـك جُؤيٌّ فَإِنَّ حَرْباً ... كَظَنِّكَ كانَ بَعدَك مُوقِـدُوها

وَما ساءَتْ ظُنونُكَ يَومَ تُولي ... بِأَرماحٍ وَفَـى لَكَ مُشرِعُوها

كَـأَنَّكَ كُـنتَ تَعلَمُ يَومَ بُزَّتْ ... ثِيابُكَ ما سَيَلْـقى سَـالِبُوها

لِنَذْرِكَ وَالنُّـذورُ لَـها وَفاءٌ ... إذا بَلَـغَ الـخَـزايَـةَ بالِـغُوها

صَبَحنا الخَـزرَجِيَّةَ مُرْهَفاتٍ ... أَبـادَ ذَوي أَرُومَـتِـها ذَوُوهـا

فَما عُتِرَ الظِّباءُ بِحَيٍّ كَعبٍ ... وَلا الخَمسونَ قَصَّرَ طالِبُـوها(3)

---

(1) كعب بن زهير، **الديوان**، 165-167.

(2) ولّى: ولّى توليةً الأمر: جعله واليا عليه، ألّيته: أقسم وحلف، مطلول: الطَّل هَدْرُ الدّم وقيل هو أن لا يثأر به أو تُقبل ديّته (ابن منظور: ولي، ألا، طلل).

(3) قوله فما عتر الظباء: يقول لسنا ظالمين ولا نقتل إلا من حلف جؤيّ أنّا نقتله، وكان الرجل من العرب إذا نزلتْ به جائحة حلف أو نذر لئن ردّها الله عزّ وجلّ أو شلها يعني إبله أو غنمه وشلها: طردها، ليذبحنّ منها لنسكه، فترجع من الضَلال أو تسلم من الوباء، فيبخل أن يذبح شا أو ناقة فيصيد ظبياً فيذبحه ويسميه العتيرة، والخمسون: يريد العدد من الرجال الذين لا أعور فيهم ولا أعرج (ابن منظور: عتر).

وَلا قُلْنا لَـــهُم نَــفسٌ بِنَفْسٍ أَقِــيدُونا بِـــها إِنْ لَـم تَــدُوها
وَلَــكِنّا دَفَـعنـــاها ظِماءً فَرَوّاها بِــذِكْــرِكَ مُنْهِــلُـوها
وَلَو بَلَـــغَ القَتيلَ فِعالُ حُيٍّ لَسَرَّكَ مِن سيوفِكَ مُنْتَضـوها

المجال الاقتصادي

من أبرز التحديات التي واجهت الإنسان العربي في العصر الجاهلي قضية تحقيق سبل العيش وتوفير أسباب الحياة، التي شكلت دافعا قويا في استمرار الاضطراب والتنازع والتنافس بين القبائل العربية؛ مما أوجد بيئة خصبة للحروب والغزوات، وأرسى حالة من مشروعية السلب والنهب، وحقق قيمة ارتضاها المجتمع الجاهلي بأن البقاء للأقوى والأقدر على انتزاع أسباب الرزق والحياة "فاستحالت الجزيرة إلى ما يشبه ميدانا كبيرا ما تزال تقتل فيه القبائل، وتسل السيوف، وتصوب الرماح والنبال، وتدق الأعناق والرؤوس، وبذلك كانت حياتهم حروبا مستمرة، فكل قبييلة دائما واترة موتورة، قاتلة مقتولة"(1).

قامت الحياة المعيشية للعربي في العصر الجاهلي على تربية الماشية من الإبل والأغنام والماعز فكانت من أهم العناصر التي اعتمدها لتوفير الطعام والشراب واللباس والمأوى، فغدتْ عرضة للسلب والنهب، وهدفا للغارات والغزوات. ولما كانت هذه الماشية تعتبر ملكا خاصا لصاحبها، وتقع تحت حمايته، فيموت دونها، وترخص روحه في سبيل حمايتها؛ فهي تمثل وجوده في الحياة، وتوفر له ولأسرته العيش الكريم في ظل غياب سلطة سياسية مركزية تنظم الحياة الاقتصادية بما يكفل استقرار المجتمع وتطوره، "فلم يكن الغزو عند العرب ضربا من اللهو، وبديلا من حياة الفراغ

---

(1) ضيف، شوقي، **الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور**، القاهرة: دار المعارف، 1984م، ص19.

والبطالة، وإنما كان ضرورة حيوية ألجأتهم إليها قسوة طبيعتهم، وقلة الخيرات وأسباب الرزق في بيئتهم، وهو صورة من صور تنازع أسباب البقاء في مجتمع فقير مجزّأ تتنافر وحداته"(1) وتتصارع من أجل إثبات وجودها، واستمرار بقائها، وتوفير أسباب المعيشة الأساسية، ودفع قسوة الفقر، وقلة المال، وشح الموارد.

لقد كان الغزو والغارة من أهم مصادر الكسب التي سادت في العصر الجاهلي، فكل قبيلة تنظر إلى غيرها من القبائل على أساس الصراع من أجل توفير أسباب الرزق، وتأمين الغذاء لأفراد قبيلتهم، "تلك كانت معيشتهم بين صيد الوحش، وصيد للإنسان، ورعي للأنعام والأغنام، فتلك موارد رزقهم"(2). بل كانوا يعيبون القبائل التي كانت تعتمد في معاشها على القنص والصيد، فقد هجا عَمرو بن مَعْدِي كَرِب بني زياد لأنهم يطلبون رزقهم بالقنص والصيد، بينما قوم عمرو يحققون معيشتهم وأسباب رزقهم بالقتال والغزو، فكان من خير الغنائم التي يطعمون بها نيل الأسرى والسبايا؛ لأنهم يفدونهم بالمال أو الأبل والأغنام، وهو ما يحتاجون إليه في معيشتهم، إذ يقول(3):

أبَنــي زيــادٍ أنـــتُمُ فـــي قـومـكُمْ ذَنَبٌ ونـحن فـروعُ أصـــلٍ طَيِّبِ (الكامل)

نَصِلُ الخميسَ إلى الخميس وأنتمُ بالقَهْرِ بـــين مُـرَبِّـقٍ ومُـكَـلِّبِ(4)

حُيُدٍ عـن المعروفِ سَعْـــيُ أبيـهمُ طَلَبُ الوُعــولِ بـوَفْضَـةٍ وبأكْلُبِ(5)

تَركوا السَّــوامَ لـــنا وكُــلَّ خَـــريدةٍ بيضـــاءَ خَرْعَبَةٍ وأُخـرى ثَـيِّـبِ(6)

---

(1) النص، إحسان، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**، بيروت: دار الفكر، 1973م، ص83.

(2) ضيف، **العصر الجاهلي**، ص81.

(3) عَمْرو بن مَعْدي كَرِبَ الزُّبَيْديّ، **شعره**، ط2، جَمعهُ ونسّقه مطاع الطرابيشي، دمشق: دار الفكر للطباعة، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1985م، ق7: 65- 67.

(4) القَهْر: أسافل الحجاز مما يلي نجدا من قبل الطائف (معجم البلدان:4: 418)، مُرَبِّق: يُرَبِّقُ الغَنَم والرِّبْقة بكسر الراء: الحبل تُشدُّ به الغنم الصغار لئلا ترضع، المُكلِّب: الصائد بالكلاب (ابن منظور: ربق، كلب).

(5) حُيُد: جمع حَيُود مال عن الشيء وعدل عنه، الوفضة: جُعبة السهام إذا كانت من أدم(ابن منظور: حاد، وفض).

(6) السّوام: الإبل الراعية، الخريدة: البِكر من النساء، والثَّيِّب من ليس ببكر، الخَرْعَبَة: الشابة الحسنة الجسيمة في قَوام (ابن منظور: سوم، خرد، ثيب، خرعب).

فذكر الشاعر أنّ قومه كانوا حريصين على أَخْذِ الأنعام والسبايا، فقد كان الأسرى والسبايا يشكلان موردا اقتصاديا عزيز المنال، ومن جهة أخرى فإنهما يمثلان وجهاً أخر لصراع البقاء في بيئة المجتمع الجاهلي القاسية المنبثقة من جغرافية شبه الجزيرة العربية، التي تمتاز بشح الموارد الطبيعية والاقتصادية التي يحتاج إليها الإنسان في معيشته، فانطلق العربي في العصر الجاهلي يبحث عن بدائل توفر له سبل العيش ليحقق من خلالها مكاسب مالية ومادية؛ فكان الأسرى من هذه البدائل التي ظهر أثرها على الفرد وأسرته بشكل خاص، وعلى القبيلة بشكل عام، فهو مصدر من مصادر الثروة والمال، يتسابق الأفراد على حيازته، والمحافظة عليه، فهو يعادل ثروة مادية كبيرة، فضلا عن قيمته المعنوية، في سبيله تقوم الحروب، وتكثر الغزوات، وتشن الغارات، وفي نهاية القتال تجمع الغنائم بما فيها من أسرى وسبايا؛ لتقسيمها بين المقاتلين. فكم من فقير مُعدم غدا غنياً كثير المال والأنعام إذا ما أسر رجلا جليلا أو رئيسا شريفا، ففي يوم السُّلَّان(1) نجد أن يزيد بن عمرو بن خويلد الصَّعِق ألحّ على وَبْرَةِ الكَلْبيّ أخي النعمان بن المنذر لأمه، حتى تمكّن من أسره، ثم افتدى وَبْرَةِ الكَلْبيّ نفسه فداء الملوك، بألف بعير وفرس من يزيد بن الصَّعِق فكثر مال يزيد ونما.

لقد أصبح الأسير سلعة باهضة الثمن، فكان الفرسان يشتركون في الأسير الواحد، ويقتسمونه كما تقتسم السلعة الواحدة، ففي يوم زَرُود(2) أغار خُزيمة بنُ طارق التغلبيّ على بني يَرْبوع، فتصدى لهم بنو يربوع، واقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الغلبة لبني يَرْبوع وانهزمت تغلب، فاشترك كل من

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 506- 507 . يزيد بن عمرو بن خويلد، وخويلد يقال له الصَّعِق، قال ابن الكلبي: سمي بهذا الاسم لأنه عمل طعاما لقومه بعكاظ، فجاءت ريح بغبار فسبها ولعنها، فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته.

(2) ابن عبدربه، **العقد الفريد**، ج6: ص49.

أُنَيْف بن جَبَلَة الضَّبِّي وأُسِيدُ بن حِنَّاءة السّلِيْطي في أسر خزِيمة بن طارق، فتنازعا فيه، ثم احتكما إلى الحارث بن قراد ليفصل بينهما، فأمر لأنيف بجز ناصية الأسير، وجعل لأُسِيد عند أُنَيْف مائة من الإبل، فرضيا بحكمه، فكان مقدار ما دفعه خزيمة مئتي بعير وفرس، وقال أُنيف(1):

أخذتُك قَسْراً يا خُزَيمَ بنَ طارقٍ ولاقيت منِّي الموتَ يوم زَرُود (الطويل)

وعانقتُه والخيلُ تَدْمَى نُحُورُها فأنزلتُه بالقاع غيرَ حَميد

لقد كان الأسير مُلْكا للآسر، لا يتنازل عن حقّه فيه، ولا يسمح لأيٍّ كان أن يأخذه أو يسلبه، فهو حق مكتسب يدافع عنه، والجميع يشهد له بحقه فيه، إذا ما كان قد أسره فعلا، ففي يوم زُبَالة(2) أغار أبو جُعَل أخو بني عمرو بن حنظلة، و الأقرع بن حابس، وأخوه فراس من بني مجاشع --وهم من تميم -- على بكر بن وائل، فأَسر بنو تيم الله -- من بكر -- كلاً من الأقْرَع وأخيه فراساً، بينما أَسر عمران بن مرة بن هند أبا جُعَل. ثم لقي بنو تيم الله بني شيبان، ومعهم بنو رِباب فانتزع بِسْطام بن قيس رئيس بني شيبان الأقرع وأخاه منهم، فاختصموا فيهما، فحكّموا عمران بن مرة، فحكم لبني الرباب على بِسْطام بمائة من الأبل، وجعل الأسيرين لبِسْطام. وقال أوس بن حجر في هذا اليوم(3): (الطويل)

وصبّحَنَا عارٌ طويلٌ بناؤهُ نُسَبُّ بهِ ما لاحَ في الأفْقِ كَوْكَبُ

فلَمْ أرَ يَوْماً كانَ أكْثرَ باكِياً وَوَجْهاً تُرَى فِيهِ الكَآبةُ تَجْنَبُ(4)

---

(1) ابن عبدربه، **السابق**، ج6: 49.

(2) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 476- 477.

(3) أوس بن حجر، **الديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م، ق2: ص6.

(4) تَجْنَبُ: تبدو مكفهرة متغيرة (ابن منظور: جنب).

أَصَابُوا البَرُوكَ وابنَ حـابِـس عَنْوَةً فَظَلّ لَهُمْ بالْقاعِ يوْمٌ عَصَبصَبُ(1)

وإنّ أبَا الصّهْبَاءِ في حَوْمةِ الوَغَى إذا ازْوَرّتِ الأبْطالُ لَيْثٌ مُحَرّبُ(2)

المجال السياسي

سيطرت أكبر دولتين في القرنين الخامس و السادس الميلاديين – الفرس والروم– على المشهد السياسي العربي في العصر الجاهلي، فكانت إمارة المناذرة صنيعة الفرس بينما كانت إمارة الغساسنة صنيعة الروم. وكانت هاتان الإمارتان أشبه بقاعدتين عسكريتين تابعتين للقوى العظمى آنذاك تنفذا رؤيتها، وتسير في نهجها، وتدير حربا بالنيابة عنها. فكان لهما أثر كبير في عدم وجود كيان سياسي عربي مستقل تنضوي داخله مختلف القبائل العربية.

لقد توزعت القبائل العربية في الجزيرة العربية بشكل عشوائي دون وجود نظام محدِّد للعلاقات بين هذه القبائل؛ فلا توجد حدود سياسية متعارف عليها لكل قبيلة، والقبيلة تشكل وحدة سياسية ينتظم فيها الأفراد على أساس رابطة الدم والنسب؛ ليتشكل بينهم مجموعة من الأعراف والعادات والتقاليد التي تنظم شؤونهم الحياتية والمعيشية، في محاولة للحفاظ على كيانهم السياسي، وإتاحة الفرصة لاستمراريته وتقويته، بما يخدم جميع أفراد القبيلة، وينعكس على أمن القبيلة واستقرارها وديمومتها(3).

---

(1) البَرُوك: أبو جُعَل، من فرسان تميم، وابن حابس: هو الأقرع التميمي، عصبصب: شديد (ابن منظور: عصب).

(2) أبو الصّهباء: هو بسطام بن قيس بن مسعود فارس بكر ويضرب المثل بفروسيته، ليث مُحرّب: شديد الغضب من قولهم حربه إذا أغضبه (ابن منظور: حرب).

(3) انظر، عشّا، جدلية العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**، الجزء3، المجلد 83، ص1– 28.

نستطيع القول بأن القبيلة في العصر الجاهلي كانت تمثل شكلا من أشكال الدول الصغيرة حيث لكل قبيلة مجلس من شيوخها يرأسه شيخ يختارونه من بينهم، وكانوا يسمونه بالرئيس أو الشيخ أو الأمير أو السيد، وكانت القبيلة تقيم علاقاتها مع الجوار وفقا لمصالحها المشتركة بما يكفل المحافظة على كيانها السياسي، ويحقق لها أمنها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، فكان لكل قبيلة ارتباطات داخلية ضمن إطار الجزيرة العربية، وارتباطات خارجية مع الدول المتاخمة للبلاد العربية وأهمها دولة الفرس ودولة الروم، اللتان كان لهما أبعد الأثر في استمرار التنازع والتنافس بين القبائل العربية(1).

وقد يُطلب الرجل ويصبح مطاردا فيكون قتيلا أو أسيرا نتيجة لمواقفه القبلية والسياسية أو نتيجة لصراع أصحاب النفوذ السياسي فيما بينهم على السلطة. ومن الشعراء الذين عانوا بسبب ذلك الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي، ذلك أنه وقف موقفا معاديا من سيد بني جديلة من طيئ أوس بن حارثة بن لأم(2)، فانتقص من قدره وشرفه، فراح بشرٌ يهجوه هجاء قاسيا وذكر أمه، فكان هجاؤه لأوس في ستّ قصائد(3)، وذكرتْ الروايات أنّ هجاء بشر لأوس يعود لأسباب مادية، وأن طمع بشر بالمال دعاه إلى هجاء أوس(4)، إلا أن سيرة بشر وشعره تقدمانه على أنه فارس معدود من فرسان قبيلته، ومعبر عن مواقف قبيلته واتجاهاتها، فقد قتل وهو في ساحة الحرب يدافع عن قومه، بل إنه ظل يفتخر بقومه حتى وهو ينازع الموت فقال قصيدته المشهور(5): (الوافر)

---

(1) انظر: الراميني، الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم، الراميني، **دراسات.** الراميني، في مصطلح المرباع، **أبحاث اليرموك**، م26، ع2، 2010م، ص351– 370.

(2) انظر: **بشر بن أبي خازم**، الديوان، 24– 30.

(3) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، 29.

(4) **السابق**، ص19– 22.

(5) **السابق**، ق5: 24– 30.

أَسـائِلَـةٌ عُـمَـيْرةُ عـنْ أَبـِيها   خِــلالَ الجيْشِ تَعْتَرِفُ الرِّكابَا

تُـؤَمِّـلُ أنْ أؤوبَ لــها بِنَهْبٍ   ولــمْ تَـعْلَـمْ بأنَّ السَّهْم صابَا

إلى أن يقول:

فَـيا للنَّـاس إنّ قـنَـاةَ قَـوْمِي   أَبَـتْ بِثِـقافــها إلَّا انْـــقِلابَا

هُـمُ جَدعُوا الأُنوفَ فأَوْعَبُوها   وهُــمْ تَــركوا بَـنِي سَعدٍ يَبَابَا

لقد كان بِشْر شأن غيره من الشعراء يُمثّل السلطة الإعلامية لقبيلته، الناطق بلسان حالها، والمعبر عن مصالحها وتوجهاتها وتحالفاتها، وقد ذهب فوزي أمين إلى "أن بشر بن أبي خازم لم يعبر في شعره عن ذاته بقدر ما عبر عن قبيلته، وأن صوت الجماعة يطغى في شعر بشر على صوت الفرد حتى يكاد يطمسه"(1) وشاعر هذا ديدنه لن يقبل على نفسه أن يدخل في عداوة سيد بمنزلة أوس بن حارثة مقابل قدر من المال وعده به بنو بدر رؤساء بني فزارة، وكذلك "فإن بشر بن أبي خازم كان لسان قبيلته وإنّ شعره يعد على نحو من الأنحاء صورة لتاريخ بني أسد في المدة التي عاشها"(2). وعلى هذا الأساس فإنّ بشرا وموقعه من قبيلته يجعلنا نعيد النظر في الروايات التي تناولت خبر بشر وأوس، فإن كانت واقعة الهجاء مؤكدة إلا أن الروايات التي أثيرت حولها أبعدتها عن دوافعها الحقيقية، وأخرجتها من سياقها التاريخي؛ وذلك لخلط القدماء في نقل الأخبار، فتعددت الأخبار بتعدد رواتها، ومن أسباب ذلك تشابه الأحداث والأسماء، ولعل ذلك يعود أيضا إلى

---

(1) أمين، فوزي محمد، **شعر بشر بن أبي خازم الأسدي رؤية تاريخية وفنية**، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص31.

(2) **السابق**، ص33.

اهتمامهم بالشعر أكثر من عنايتهم برواية الخبر، وذلك لتوظيف الشعر في الناحية اللغوية والنقدية فتساهل القدماء في رواية الأخبار أكثر من تساهلهم في رواية الأشعار، ففي خبر بشر وأوس يرد أن الحطيئة رفض هجاء أوس، وقال في ذلك شعرا، بينما نجد أن الحطيئة قال هذا الشعر حين وقع أسيرا في يد زيد الخيل(1) ثم منّ عليه وأطلقه بعد أن أنشده هذه الأبيات(2): (البسيط)

كَيْفَ الهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَـالِحَةٌ إذَا ذُكِرْتَ بِظَهْرِ الغَيْبِ تَأتِيني

جادَتْ لهُمْ مُضَرُ العُلْيا بمجْدِهِمِ وَأحْرَزُوا مَجْدَهُمْ حِينًا إلى حِينِ

وهذا بدوره يساعد في التخلص من الشوائب التي علقتْ بخبر هجاء بشر لأوس، ويدفعنا إلى القول بأن حادثة الهجاء لم ترتبط بالجوانب المادية، وإنّما لها دوافع أخرى ومن ناحية ثانية يمكن الاستناد إلى إشارات وردت في هذه القصيدة قد تسهم في فَهْم أكبر لطبيعة علاقة بشر بأوس، فقد ذهب دارسوا بشر إلى أن القصيدة رقم34 التي مطلعها(3): (الوافر)

أَهَمَّتْ مِنْكَ سَلْمَى بانْطِلاقِ وَلَيْسَ وِصَـالُ غانِيَةٍ بِباقي

قالها بشر يهجو أوسا(4)، ولكن بعد دراسة هذه القصيدة نستطيع القول إنها لا تمثل هجاء لأوس وذلك لِخلوها من ألفاظ تحمل معاني الهجاء، وإنّما هي رسالة يطلب فيها بشر من بني لأم أن يطلقوا أسرى بني بدر بعد أن أسروهم غدرا، وإنْ لم يفعلوا فعليهم أن يتحملوا النتائج المتمثلة بنقد لاذع وهجاء مر لبني لأم وأنه سيوجه هذا الهجاء لزعيمهم وسيدهم المطاع أوس. وكأنه حريص

---

(1) الفريحات، عادل، **بشر بن أبي خازم الأسدي حياته وشعره**، ص99.

(2) الحطيئة، **الديوان**، 146.

(3) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ق34: 161.

(4) انظر: بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ص20. والفريحات، **بشر بن أبي خازم الأسدي حياته وشعره**.

على علاقة قبيلته بالطائيين، بل إنه يشكو منهم على مضض، وهو مكره على ذلك، ولكنه في الوقت نفسه لا يتخلى عن حلفائه بني بدر(1)، ثم إن هذه القصيدة قد تكون هي الأولى زمنيا في علاقة بشر بأوس(2) حيث يذكر صراحة شكواه من بني لأم، ثم يحذر أوسا من عدم إطلاق أسرى بني بدر. ونستطيع الإتكاء على ما ورد فيها من معان وإشارات لبيان موقف بشر من أوس، وأهم هذه الإشارات بنو بدر، حلفاء أسد في هذه الحادثة، وبنو بدر هم عظم فزارة ورأس الحلف الذبياني الأسدي،(3) بل إنّهم محور هذه الحادثة ونتائجها البعيدة المتمثلة، بيوم ظهر الدّهناء، والأمر الأول الذي نؤكده في خبر بشر وأوس هو أسر بني لأم الطائيين لجماعة من بني بدر، كما نلاحظه في قول بشر(4): (الوافر)

فَإِذ جُزَّتْ نَواصي آلِ بَدْرٍ   فَــأَدُّوها وَأَسْــرَى فـي الــوَثاقِ

والأمر الثاني أن بشرا يقدم من خلال قصيدته احتجاجا واضحا وصريحا لبني لأم على غدرهم بجماعة بني بدر، وأخذهم أسرى ثم جز نواصيهم. قال بشر(5): (الوافر)

فَإِنّي وَالشَّــكَاةَ مِــنَ آلِ لَأمٍ   كَذاتِ الضِّغْنِ تَمْشِي في الرِّفاقِ(6)

---

(1) انظر، الراميني، عرسان، "الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم"، **مجلة دراسات** ، المجلد 36، العدد2، حزيران2009، رجب1430، ص299-303.

(2) الفريحات، **بشر بن ابي خازم الاسدي حياته وشعره**، ص190.

(3) أمين، **شعر بشر بن أبي خازم الأسدي رؤية تاريخية وفنية**، 52.

(4) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ق34: 165

(5) **السابق**، ق34: 163.

(6) الرّفاق: حبل يشد من العنق إلى المرفق وذلك إذا أعتلت إحدى يدي الناقة فتشد إليه اليد الصحيحة فلا يعنت السقيمة (ابن منظور: رفق).

وذهب محقق الديوان إلى شرح هذا البيت على النحو الأتي: "وذاتُ الضِّغْن: ناقة تَنْزِعُ إلى وَطَنِها يعني أَنَّ ذات الضغن ليست بمُستقيمة المشي لما في قلبها من النِّزاع إلى وطنها، وكذلك أَنا لست بمستقيم لآل لأْم لأَن في قلبي عليهم أَشياء، وزعموا أن بني بدر كانوا يأمرونه بهجاء آل لأم وأن يُخْبِرَ أنهم ينهونه، فقال كما أرادوا. وفيه قول آخر يقول أنا وهم كامرأة في صدرها ضغن على قوم فهي تمشي في الرفاق تشكوهم، يقول فأنا على آل لأم كهذه المرأة لأن في قلبي حنقا عليها"(1). ولكن هذا التفسير بهذه الصورة يقف عند حدود المجال اللفظي المعجمي فلا يقدم فهما مُقنعا لما أراده الشاعر، ويعدّ تفسيرا سابقا للنص الشعري، اعتمادا على ما تناوله القدماء حول خبر بشر وأوس، فعند إعادة دراسة هذا البيت دراسة موضوعية من خلال النص نفسه نلاحظ أنه يحمل إشارة واضحة إلى تصوّر ما كان يريده بشر، فيصور نفسه وبني لأم بالناقة التي تنزع إلى وطنها وهواها فلا يستقيم مشيها، وحال الشاعر كحال هذه الناقة فهو يعتبر بني لأم الطائيين أهلا له، ولا يريد أن تكون بينهم عداوة، إنه حريص على إبقاء علاقته مع بني لأم، مثل حرص الناقة على البقاء في وطنها لا تفارقه، وهل يفارق أحدٌ وطنه إلا مكرها، ثم يؤكد هذا المعنى بصورة الناقة التي اعتلت إحدى يديها بينما اليد الأخرى صحيحة سليمة أي أنها ليست بمستقيمة المشي، فهو يؤكد ابتداء أنه لا يريد أن يشتدّ الخصام بينهما، ويطلب منهم لِما كان بينهم من جوار أنْ يحافظوا على حسن جوارهم، وأن يطلقوا أسرى بني بدر حلفاء بني أسد، وإنْ كانوا قد جزوا نواصيهم فخرا عليهم، ولكنهم إن رفضوا هذا الأمر، فليعلموا أنهم في عداء دائم، وهذا يشير إلى إمكانية تغيّر موقف بشر وقومه من آل لأم في المستقبل، وقد يـصل الأمـر بينهم إلى حد المواجهة في ساحة المعركة، فبشر يؤكد

---

(1) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ص163.

على علاقة قومه المتينة بحلفائهم بني بدر(1): (الوافر)

وَإِلّا فَاعلَموا أَنّا وَأَنتُم بُغاةٌ ما حَيينا في شِقاقِ

ولذلك لا نلاحظ أي إشارة إلى الهجاء في هذه القصيدة، وإنما هي طلب بشدة يصل إلى درجة التهديد، وذلك لاتصاله بأمن قبيلة بني أسد، وتعريضها للخطر، "وهكذا إذا كان بشر بن أبي خازم ينطق باسم قبيلة موالية للحيرة؛ أي بني أسد، فإن شعره في أوس بن حارثة، وبني لأم عموما، ينبغي أن ينظر إليه بوصفه صدى للصراع على النفوذ في الجزيرة العربية بين الغساسنة واللخميين"(2). إلا أن طلب بشر باطلاق الأسرى رُفِضَ، وقُوبل بالتهديد والوعيد من سيد جديلة أوس، فكان لابد لبشر أن يرد على هذا التهديد من مبدأ المعاملة بالمثل، فقال بشر(3): (الوافر)

أَتوعِدُني بِقَومِكَ يا اِبنَ سُعدى وَذَلِكَ مِن مُلِمّاتِ الخُطوبِ

وَحَولي مِن بَني أَسَدٍ حُلولٌ مُبِنٌّ بَينَ شُبّانٍ وَشيبِ(4)

وقال أيضا(5): (الوافر)

فَيا عَجَبًا أَيُوعِدُني اِبنُ سُعدَى وَقَد أَبْدى مَسَاوِئَهُ الهِجاءُ

وَحَولي مِن بَني أَسَدٍ حُلُولٌ كَمِثْلِ اللَّيلِ ضَاقَ بِها الفَضَاءُ

---

(1) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ق34: 165.
(2) الراميني، **الارتباط السياسي لشعر بسر بن أبي خازم**، ص303.
(3) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ق4: 20.
(4) حلول: جمع حال وهو النزول في المكان أي نقيض الارتحال (ابن منظور: حلل).
(5) **السابق**، ق1: 4.

وهكذا اشتدت العداوة بينهما واستفحل شرهما فكان لابد من المواجهة فكان يوم ظهر الدهناء وانهزمت بنو أسد(1)، فأصبح بشر مطاردا من أوس، وهرب بشر "فجعل لا يأتي حيا يطلب جوارهم إلا امتنع من إجارته على أوس"(2). إلا أن بشرا أخيرا وقع أسيرا في يد أوس، وذكرت المصادر أكثر من رواية في أسر بشر(3)، الأولى أنّ بشر بن أبي خازم غزا طيئًا ثم بني نبهان، فجرح فأثقل جراحه وهو يومئذ بحمى أحد أصحابه وإنّما كان في بني والبة، فأسرته بنو نبهان فخبؤوه كراهية أن يبلغ أوسًا، فسمع أوسٌ أنه عندهم، فقال: والله لا يكون بيني وبينهم خير أبدًا أو يدفعوه ثم أعطاهم مائتي بعير وأخذه منهم فجاء به. وفي رواية ثانية إنّ بني نبهان لم تأسر بشرًا قط إنّما أسره النعمان بن جَبَلَة بن وائل بن جُلاح الكَلْبيّ، وكان عند جَبَلَة بنت عبيد بن لأم فولدت منه عوف بن جَبَلَة فبعث إليه أوس بن حارثة يتقرّب بهذه القرابة، فبعث ببشر إليه . وفي رواية ثالثة نزل بشر على جُنْدُب بن حِصْن الكِلابي بأعلى الصَّمَّان، فأرسل إليه أوس يطلب منه بشرًا، فأرسله إليه.

وعلى هذا الأساس فإن الشيء المؤكد في هذه الروايات هو أن أوسًا لم يتمكن من بشر مواجهة، بل أن بشرا قد حُمِل أسيرًا إلى أوس، عن طريق طرف ثالث، وهذا الأمر يؤكد المكانة الاجتماعية والسياسية التي كان يحظى بها أوس، وأن أسْرَ بشر كان يحمل معنى سياسيا ظهر من خلال علاقة قوم أوس مع مختلف القبائل المحيطة بمنطقتهم التي أدت إلى وقوع بشر أسيرا في يد أوس وهذا "يؤكد أن جَدِيلة كانت في زمن أوس بن حارثة ذراعا طويلة للغساسنة في نجد"(4)، في حين

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 496.

(2) **السابق**، 496- 497.

(3) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج4: 442- 445. وانظر: بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ص23- 25.

(4) الراميني، **الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم**، ص301.

أن بشرا وقومه كانوا موالين للحيرة(1). وكذلك يمكن الإشارة إلى أثر الإنتماء السياسي في استمرار حالة التفكك والصراع بين مختلف القبائل العربية في معظم الأحداث التي شهدتها الجزيرة العربية قبيل الإسلام(2).

ثم إنّ بشرًا تعرض للتعذيب والتَّنْكِيل وهو في أَسْرِ أوس، فكان يعاني عذابا جسديا ونفسيا، ومن ذلك أنه "أوقد له نارًا ليحرّقه، وقال بعض بني أسد : لم تكن نارا ولكنّه أدخله في جلد بعير حين سلخه، ويقال جلد كبش ثم تركه حتّى جفّ عليه فصار فيه كأنه العصفور"(3). وبناء على ذلك فقد مكث بشر فترة من الزمن أسيرا لدى أوس، ثم أن أوسًا استشار أمه سعدى بشأن بشر، ذلك أن بشرًا كان قد ذكرها في شعره عندما هجا أوسًا، فقالت أم أوس: "أوتطيعني فيه؟ قال: نعم. قالت: أرى أن تردّ عليه ماله وتعفو عنه وتحبوه، وأفعل مثل ذلك، فإنه لا يغسل هجاءه إلاّ مدحه."(4) فقبل ما أشارت به، وخرج إليه، وقال: يا بشر ما ترى أني فاعل بك؟ فقال بشر معتذرا مستعطفا وراجيا كرم أوس(5): (الطويل)

وَإِنّـــي لَــراجٍ مِـنـكَ يا أَوسُ نِعمَةً وَإِنّـي لِأُخرى مِنكَ يا أَوسُ راهِبُ

فَــهَـل يَـنـفَعَنّي اليَومَ إِن قُلتُ إِنَّني سَأَشكُرُ إِن أَنعَمتَ وَالشُكرُ واجِبُ

وَإِنّـــيَ قَـــد أَهجَرتُ بِالقَولِ ظالِمًا وَإِنّيَ مِـنـهُ يا بـنَ سُـعدى لَتائِبُ

---

(1) الراميني، **الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم** ، ص300.
(2) **السابق**، ص312.
(3) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج4: 444. وانظر، بشر بن أبي خازم، **مقدمة الديوان**، ص24.
(4) البغدادي، **خزانة الأدب**، ج4: 445. وانظر، بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ص25.
(5) بشر بن أبي خازم، **الديوان، ق9: 41– 42.**

وَإِنّــي إِلــى أَوسٍ لِـيَـقبَلَ عِذرَتي وَيَـعـفُـوَ عَـنّـي ما حَيِيتُ لَراغِبُ

فَــهَب لــي حَـياتي فَالحَياةُ لِقائِمٍ بِشُـكـرِكَ فيها خَيرُ ما أَنتَ واهِبُ

فَقُل كَالَّذي قالَ ابنُ يَعقوبَ يوسُفٌ لِإِخـوَتِـهِ وَالـحُـكمُ فـي ذاكَ راسِبُ

فَـإِنّــي سَــأَمـحو بِالَّذي أَنا قائِلٌ بِــهِ صــادِقًا ما قُلتُ إِذ أَنا كاذِبُ

فأمر أوس بإطلاق سراح بشر، فأخذ بشرٌ على نفسه عهدا أن لا يمدح أحدا إلا أوسا. إلا أن بشرا لم يقنع بمنّ أوس عليه بإطلاق سراحه فقط، بل إنّه طمع في كرم أوس وتمام نعمته، وما تمام النعمة التي يريدها بشر إلا إطلاق أسرى قومه بني أسد، فقال(1): (الطويل)

تَدارَكَني أَوسُ بنُ سُعدى بِنِعمَةٍ وَقَد ضاقَ مِن أَرضٍ عَلَيَّ عَريضُ

فَـمَـنَّ وَأَعـطاني الـجَزيلَ وَإِنَّهُ بِأَمــثالِــها رَحــبُ الذِراعِ نَهوضُ

تَدارَكتَ لَحمي بَعدَ ما حَلَّقَت بِهِ مَعَ النَـسرِ فَتخاءُ الـجَناحِ قَبوضُ(2)

فَـقُـلتَ لَـها رُدّي عَـلَيهِ حَياتَهُ فَـرُدَّت كَـما رَدَّ المَـنيحَ مُفيضُ(3)

فَإِن تَجـعَلِ النَـعماءَ مِنكَ تِمامَةً وَنُـعماكَ نُـعـمى لا تَـزالُ تَـفيضُ

يَـكُن لَكَ في قَومي يَدٌ يَشكُرونَها وَأَيدي النّـدى في الصالِحينَ قُروضُ

---

(1) بشر بن أبي خازم، **الديوان** ، ق22: 106.

(2) فتخاء الجناح: عقاب صفتها كذلك، والفتخاء: اللينة الجناح تكسره كيف شاءت. القبوض: تقبض جناحها (ابن منظور: فتخ، قبض).

(3) المَنيح: سهم من سهام الميسر لا غنم له ولا غرم عليه، المفيض: الضارب بقداح الميسر (ابن منظور: منح، فيض).

فَكَكتَ أَسيـرًا ثُمَّ أَفضَلتَ نِعمَةً   فَـسُـلِّـمَ مَـبْـرِيُّ الـعِـظـامِ مَهيضُ(1)

وبناء على ما تقدم أرجح أن أوسا أطلق سراح أسرى بني أسد بعد أن أنشده بشر هذه القصيدة؛ فقد قال بشر قصيدته الهائية التالية يصرّح بها أن أوسا قضى حاجته، ولبّى مطلبه، وفك أسر قومه ولا يظهر في ثناياها رجاء أو طلب لحاجة، بل هي شكر ومديح وثناء لأوس(2) :   (الوافر)

إِلى أَوسِ بـنِ حـارِثَـةَ بـنِ لَأمٍ   لِـيَـقضِيَ حاجَتي وَلَقَد قَضـاها

فَما وَطِئَ الحَصى مِثلُ ابنِ سُعدى   وَلا لَـبِسَ النِّـعالَ وَلا اِحـتَذاها

ثم قال بشر قصيدته العينية يشكر صنيع أوس وتمام نعمته بإطلاق أسرى قومه، مقرّاً له بالسّيادة والرّئاسة، وأنّه سيبقى وفياً له يقوم على نصرته ويقف بجانبه لا يخذله، لأنّه أهل للزعامة، فأوس يمتلك علامات السيادة والقيادة؛ فهو يقضي دين من أثقلهم الدّين، ويؤدّي حاجة المحتاجين، ولا يتأخّر عن نجدة المفزوع، وإنّه كريم، عطاؤه وافر، لا يتخلّى عن جماعته، يقول بشر(3): (الطويل)

إِلى ماجِدٍ أَعطى عَلـى الحَـمـدِ مـالَهُ   جَـمـيلِ الـمُـحَيّا لِـلـمَغارِمِ دافِــعُ

تَـدارَكَـني أَوسُ بنُ سُـعـدى بِـنِعمَةٍ   وَعَرَّدَ مَن تُحـنى عَـلَيهِ الأَصابِعُ(4)

تَـدارَكَـني مِـنهُ خَـليـجٌ فَـرَدَّني   لَـهُ حَـدَبٌ تَستَنُّ فيهِ الـضَـفادِعُ(5)

---

(1) مَبريُّ العظام: أي هزيل من براه السفر إذا هزله، والمهيض: المكسور (ابن منظور: بري، هيض).

(2) بشر بن أبي خازم، **الديوان** ، ق46: 222.

(3) **السابق**، ق24: 115.

(4) عرّد الرجل: أحجم وفر ومن تحنى عليه الأصابع الذين يعدّون على الأصابع من الإخوان ويعتمد عليهم (ابن منظور: عرد).

(5) الخليج: النهر، وحدبه: كثرة مائه وارتفاع أمواجه، تستن: تذهب وتجيء وتنزو مرحا ونشاطا (ابن منظور: خلج، حدب).

تَدارَكَني مِـن كُـربَـةِ المَوتِ بَعدَ ما   بَـدَت نَـهِلاتٌ فَـوقَـهُنَّ الـوَدائِعُ

لَـعَـمـرُكَ لَـو كـانَت زِنـادُكَ هُجنَةً   لَأَورَيتَ إِذ خَدّي لِـخَـدِّكَ ضـارِعُ(1)

فَأَصبَـحَ قَـومي بَعـدَ بُؤسى بِنِعمَةٍ   لِـقَـومِـكَ وَالأَيّـامُ عـوجٌ رَواجِـعُ

عَبيدُ العَـصا لَـم يَمـنَعوكَ نُفوسَهُم   سِوى سَـيبِ سُعدى إِنَّ سَيبَكَ نافِـعُ(2)

فَـتـىً مِـن بَنـي لَأمٍ أَغَـرُّ كَأَنَّهُ   شِهابٌ بَدا في ظُلمَةِ اللَـيلِ سـاطِـعُ

فِدىً لَكَ نَفسي يا اِبنَ سُعدى وَناقَتي   إِذا أَبدَتِ البيـضُ الخِدامَ الـضَوائِـعُ(3)

لِمُستَسلِمٍ بَـيـنَ الـرِمـاحِ أَجَـبتَهُ   فَأَنـقَـذتَـهُ وَالبـيـضُ فـيهِ شَوارِعُ

ومدحه أيضا بقصيدتين هما رقم29 في الديوان ومطلعها(4):   (الوافر)

كَفَى بالنَّأي مِنْ أسْماءَ كافي   وَلَيسَ لِحُبِّها إذْ طال شَافي

والقصيدة رقم 35 في الديوان ومطلعها(5):   (الوافر)

أَنِيَّـةٌ الـغَـداةَ أمِ انْـتِـقـالُ   لِمُنْصَرِفِ الظّعَائنِ أمْ دلالُ

---

(1) الهاجن: الزند الذي لا يوري بقدحة واحدة وفي زناد هجنة إذا كان أحد الزندين وارياً والآخر صلودا(ابن منظور: هجن).

(2) السَّيْب: العطاء (ابن منظور: سيب)، وسُعدى: أمُّ أوس.

(3) البيض: النساء. الخدام: جمع الخَدَمة وهي الخلخال (ابن منظور: بيض، خدم).

(4) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، ق29: 142.

(5) **السابق**، ق35: 167. النيّة: البعد، مُنْصَرف: الصِّرف ردُّ الشيء عن وجهه وصرَّف الشيء أعمله في غير وجه كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه (ابن منظور: صرف، نأي).

وبناء على ما تقدم فقد أمضى بشر وقتا ليس بالقصير عند أوس بن حارثة، وأنه قال في حضرته أكثر من قصيدة كان قد ضمنها رجاءه بأن يطلق أوس باقي أسرى قومه، وقد فعل. وهذا يخالف ما ذهب إليه فوزي محمد أن مدة هذا الأسر كانت مدة قصيرة، ويعلل ذلك بقوله "فليس في ديوان بشر سوى مقطوعة واحدة من سبعة أبيات يعتذر فيها لأوس"(1).

إنّ بشرًا من الشعراء الفرسان الذين وقعوا في الأسر نتيجة للمواقف القبلية والسياسية التي كان ينتهجها. لقد كان للأسر دور كبير في حياة الشاعر بشر بن أبي خازم، إنْ كان على صعيد الموقف القبلي أو الموقف الشخصي، بل وتعداه إلى الجانب الفني في مسيرة الشاعر، فوظّف بشر شعره في مواجهة مصيره المؤلم، فكان وقوعه في الأسر معاناة حقيقية، ومواجهة حتمية لأمر واقع مشكل يمثل لحظة ضعف وذلّ، كان فيها مجرّدا من قوته، وفاقدا لحريته، ومُحَددًا في خياراته، مقرّا بالهزيمة والانكسار، آملاً الحرية والفكاك من قيد الأسر، وذل العبودية. ولقد حقق أوس مكاسب سياسية من إطلاق سراح بشر من الأسر، من تأكيد لزعامته، وبيان قدرته، أمام القبائل العربية، ثم إقرار بشر بهذه السيادة، من خلال مدائحه في أوس.

لقد ساهم التركيب السياسي للقبائل العربية في العصر الجاهلي، في استمرار التنازع والخصام بينها حيث انعدام وجود دولة عربية موحدة مستقلة، وشيوع مبدأ العصبية القبلية، ووجود ممالك كبرى على أطراف الجزيرة العربية، كان من مصلحتها استمرار الخلاف والتنازع بين مختلف القبائل من أجل حماية منازلها، وحماية طرق التجارة المكلفة بحمايتها. وعلى هذا الأساس توافرت أسباب قيام الحروب والغزوات والغارات بين القبائل العربية، التي تعد المورد الرئيسي للأسرى والسبايا، فنجد

---

(1) أمين، **شعر بشر بن أبي خازم الأسدي رؤية تاريخية وفنية**، ص116.

مَنْ ذهب إلى أسْر الحليف أو الجار بالرغم من أنّ العرب في العصر الجاهلي قد عظّموا حرمة الجار والحليف، وافتخروا بحمايته والدفاع عنه، فعابوا من اعتدى على جاره، وذمّوا هذا الفعل القبيح ومن ذلك إنّ عتيبة بن الحارث بن شهاب فارس تميم الملقب بصياد الفوارس وسم الفوارس أسر في يوم الجونين أنس بن مرة السُّلمي، فأتى به أصحابه فقال بنو عبيدة: قد عرفنا أن لأُمَ بن سَلَمة وابن مزنة قد أسرا الحوثرة فدفعاه إليك فضربت عنقه؛ فأعقبهما في أنس بن عباس فأبى عتيبة أن يفعل ذلك حتى افتدى أنس نفسه بمائتي بعير. فقال العباس بن مرداس يعيّر عتيبة بأسره جاره(1): (الكامل)

كثُر الضّجاجُ وما سمعتُ بغادرٍ كعُتيبةَ بـن الحارث بن شهابِ

جَـلَّلتَ حـنظلة المَـخَانَةَ والخنا ودنِـسْـتَ آخــرَ هذه الأحقابِ

وأَسَــرتـمُ أنـــسًا فـما حاولتمُ بـإســارِ جـارِكُـمُ بنـي المِيقابِ

إلا أننا نجد موقفا مغايرًا اتّسم بالوفاء للجار وحمايته ورد الظلم عنه. فقد جاور رجل من ثُمَالَة عبدالله ين الصِّمَّة، فلما قُتل عبدالله، أقام في جوار أخيه دُرَيْد بن الصمة، وعندما أغار أنس بن مُدْرِكَة الخَثْعَمي على بني جُشَمَ، فأصاب مال الثُّماليّ، وأصاب ناسًا من ثُمَالَة، فكف دُرَيْد عن طلب القوم وشغل بحرب من يليه، وقال لجاره ذلك: أمهلني عامي هذا. فقال الثُّمَاليّ: قد أمهلتك عامين، وخرج دُرَيْد ليلة لحاجته وقد أبطأ في أمر الثُّمالي فسمعه يقول(2): (الطويل)

كـساك دُريدُ الــدَّهرَ ثُــوبَ خَزايةٍ وجَـدّعـكَ الــحامــي حقيقتَه أَنَسْ

دَعِ الخــيلَ والسُّمرَ الطِّوالَ لخَثْعَمٍ فما أنتَ والرُّمحُ الطويل وما الفَرَسْ

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج15: 234- 235. الميقاب: التي تلد الحمقى والوقْب: الأحمق (ابن منظور: وقب).

(2) **السابق**، ج10: 29- 31.

ومــا أنـت والـغَـزوَ المُـتابَع للعِدا   وهَمُّكَ سَوقُ العَودِ والـدَّلو والمَرَسْ
ولا أصبحتْ عِرسي بأشقى معيشةٍ   وشـيخٌ كـبيرٌ من ثُمـالةَ في تَعَسْ
يُـراعي نجومَ الليل من بعد هَجعةٍ   إلى الصبح محـزونًا يُطاوله النَّفَسْ
وكـنـتُ وعبدُ اللهِ حــيٌّ ومـــا أُرى   أُبالي من الأعـداء مَن قـام أو جلسْ
فأصـبحتُ مهضومًا حـزينًا لفقده   وهل من نَكيرٍ بعـد حولين تَلتَمِسْ
فـــلـو كـــان عبدُ الله حـيًا لردَّها   وما أصبحتْ إبلي بنَـجرانَ تُحتَبَسْ

فلم يصبر دُرَيْد على ما سمع، فشاور قومه، فقالوا له: ارحل إلى يزيد بن عبد المدان فإن أنسًا قد خلف المال والعيال بنجران للحرب التي وقعت بين خثعم، وأن يزيد يردها عليك. فقال دُرَيْد: بل أقدّم إليه قبل ذلك مدحة، ثم أنظر ما موقعي من الرجل، فقال هذه القصيدة وبعث بها إلى يزيد(1):

بني الديَّان رُدّوا مالَ جارِي   وأسْـرَى في كُبُولِهمُ الثِّـقالِ   (الوافر)
ورُدُّوا السَّبْيَ إنْ شِـئْتُم بِمَنٍّ   وإنْ شِـئْتُم مُـفَادَاةً بمــالِ
فـأنـتم أَهْلُ عَـائِدَةٍ وفَضْلٍ   وأَيْـدٍ فـي مَـوَاهِـبِكم طِوَالِ
متى ما تَمْنَعُوا شَيْئًا فَلَيْسَتْ   حَـبَائلُ أخْـذه غَيْـرَ السُّؤالِ
وحَرْبُكُمُ بنـي الـدَّيَّانِ حَرْبٌ   يَـغَصُّ الْـمرءُ مـنها بالزُّلالِ
وجَارَتُكُم بني الـدَّيَّان بَسْلٌ   وجَــارُكُـمُ يُـعَـدُّ مع العِيَالِ
حَذَا عَبْدُالمدانِ لـكم حِذَاءً   مُخَصَّرَة الصُّدورِ على مِثَالِ
بَنِي الدَيَّان إنَّ بـني زِيَـاد   هُــمُ أهــلُ التــكرُّمِ والـفعالِ
فَأَوْلُوني بَني الدَيَّان خَيْرًا   أَقِــرُّ لكم به أُخْــرَى الليالي

---

(1) دريد بن الصمة، **الديوان**، ق48: 149- 150.

قال: فلما بلغ يزيد شعره، قال: وجب حقُّ الرجل، فبعث إليه أن أقدم علينا فلما قدم عليه أكرمه وأحسن مثواه. فقال شيخ منهم(1): (المتقارب)

أَتَتـكَ السلامةُ فارعَ النِّعَمْ   ولا تَقُـلِ الـدَّهـرَ إلا نَعَمْ

وسَرِّحْ دُرَيـدًا بنُعمَى جُشَمْ   وإن سألَكَ المرءُ إحدى القُحَمْ

فردّ يزيد عليه الأسارى من قومه وجيرانه.

كان للشعر والشعراء دور كبير في معالجة قضايا الأسرى والسبايا؛ فقد كان الشاعر يمثل روح القبيلة، والناطق بلسانها، والراوي لأخبارها، والحافظ لأمجادها، والمسجل لإنجازاتها، والمنفذ لسياساتها، يهابه البعيد، ويجله القريب، رغبة في مدحه وثنائه، ورهبة من لسانه وهجائه، فكان خير من يتوسط في إطلاق الأسرى وَرَدِّ السبايا. فعندما وقعت أخت عمرو بن الصَّعِق العدواني سبيَّة في يد عمرو بن الحارث الأكبر، وقد كانت له في كل ليلة جاريةٌ بكرٌ من السبايا، فلما أمر أن يؤتى بها، سمع صوتا ينشده(2): (الكامل)

يا أَيُّها المَلِكُ المَهِيـبُ أما ترى   ليـلاً وصُبحاً فِيكَ يختلِفانِ

هل تستطيعُ الشَّمسَ أن تأتـي بِهَا   مشياً وهلْ لَكَ في الصَّباحِ يَدانِ

اعلـمْ وأيـقِنْ أنَّ مُلـكَكَ زائِلٌ   واعلـمْ بأنَّ كـما تـدِينُ تُدانُ

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج10: 31.

(2) الأصمعي، عبدالملك بن قريب الباهلي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، تحقيق:آل ياسين ومحمد حسين، بغداد: مطبعة المعارف، 1959، ص104.

فالشاعر يخاطب عمرو بن الحارث، برفق ولين وإقناع لعله يتكرم بإطلاق سراح أخته، ويردها إلى أهلها، فيبين له أن المُلك لا يدوم، وأن دورة الزمان مستمرة ومتعاقبة بتعاقب الليل والنهار، وأن ما يقدمه الرجل سيجده، ويُجزى به، إن كان خيرا أو شرا، فأعلن عمرو، أنه سيرد السبايا جميعا، ثم أمر أن تُكسى السبايا وأن يُحمَلن إلى أهليهن، وأن يرد عليهن مالهن، ومن كان في الأسر من أهلهن. وآلى يمينا أن لا يعود إلى ما كان يفعله أبدا. وفي ذلك يقول عمرو بن الصَّعِق العدواني(1): (الطويل)

أتيتُ ابن هندٍ طارقاً بعدَ رقبةٍ مخافَةَ مـــا تصتكُّ مِنهُ المسـامعُ

قرعتُ برُمحِي لهجه فوعـظتُهُ وضاقَتْ بأحشائِي وقلبِيْ الأضالِعُ

فأمَّننِيْ ممَّا خَشِيتُ ولــم تـزلْ بهِ تنـجلِي عنَّا الأمُــورُ الـرَّوائعُ

وأَطلقَ لي عُـونَاً وعـذراً كأنَّـها وقد أقبلتْ تمشِـيْ الظِّباءُ الرَّواتِـعُ

فِـداءً لـــهُ عدوانُ طُرَّاً وغيـرُها ألا ونأَى عَنهُ الـرَّدى والفجـــائِعُ

هوَ المَلِكُ البَرُّ السَّميدعُ والّذي نَمَتهُ المُلوكُ الأكرمُونَ السَّـمادِعُ

ومن ذلك أيضا ما قام به حاتم الطائي من وساطة لدى الحارث بن عمرو الجفني، عندما أغار جيشه على طيىء(1)، فأصاب من بني عدي بن أخزم سبعين رجلاً، وأصاب رئيسهم وَهْم بن عمرو مِنْ رهط حاتم، وحاتم يومئذ بالحيرة عند النعمان، فلمّا عاد إلى الجبلين فزعتْ إليه النساء يحملن صبيانهن، وقد أُسِر آباؤهم، فتقول إحداهن: يا حاتم أُسِر أبو هذا، فسار حاتم من ليلته ومعه مَلْحَان بن حارثة، فدخل علــى النعمان فأنشده قصيدة يتشفَّع بها لقومه، فبيّن فيها مـا حلَّ

---

(1) الأصمعي، **تاريخ العرب قبل الإسلام** ، 104.

(2) حاتم بن عبدالله الطائي، **الديوان**، صنعة يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي، دراسة وتحقيق عادل سليمان، المؤسسة السعودية بمصر: مطبعة المدني: 1990م، ص187- 188. وانظر، الأصفهاني، **الأغاني**، ج17: 268- 270.

بقومه من الحزن والهمّ، وما آل إليه مصيرهم من ذلّ الأسر فقد قيّدهم الحارث بالحبال ووضعهم في الحبس، فيمدحه حاتم بأنه خير النّاس وأنه يظنّ فيه ظنا حسنا بأن يطلق سراح قومه من الأسر، وأما إنْ لم يطلقهم فإنّ حاتما وقومه قد خبروا الحرب وعرفوها وصبروا على نتائجها ولم يجزعوا لويلاتها ولن تذلّهم مصائب الدهر، ثم يعود فيدعو بدوام الخصب والحياة على مملكة النعمان من مآب إلى زُغَر، ثم يذكر من أسرى قومه على وجه الخصوص ابن عمه وَهْم ويذكر شجاعته وصبره وهو مقيّد في الأسر لم يجزع لما حلّ به. ونلاحظ أنْ حاتما في قصيدته هذه يصدر عن حسٍّ عالٍ بالمسؤولية تجاه أفراد قبيلته تشير إلى مكانته في قومه، فعندما بادر بالاتصال بالحارث نجد أننا أمام رئيسٍ أو زعيمٍ يخاطبه مخاطبة النِّدّ للنِّدّ، فلا يوجد في القصيدة استجداء أو إظهار لضعف يمسّ شرف القبيلة أو ينتقص من قيمتها أو من قدرة رجالها في الحروب والدفاع عن منازل القبيلة وحمايتها. ونستطيع القول إن حاتما وقومه كانوا يقيمون علاقة سِلْمّية ومتوازنة تتسم بالحذر مع إمارة الغساسنة في هذه الفترة الزمنية تتضمن احترام كل طرف لِحِمَى أو منازل الطّرف الأخر، وعدم الاعتداء على أماكن الرعي التابعة لكل فريق، وأن الغساسنة كانوا حريصين على استمرار هذه العلاقة وتوطيدها وتطويرها من خلال إطلاقه سراح الأسرى فيكون له فضلٌ ويدٌ لا تُنكر عند حاتم وقومه. قال حاتم في ذلك(1): (الطويل)

أَلا أَنَّنِي قَدْ هَاجَنِي اللَّيْلَـةَ الذِّكْـرْ   وَمَا ذَاكَ مِنْ حُـبِّ النِّـسَاءِ وَلا الأَشَرْ(2)

وَلَكِـنَّني مِـمَّا أَصَـابَ عَشِيـرَتِي   وَقَـوْمِـي بِأَقْـرَانٍ حَوَالَيْــهِمُ الصِّيَرْ(3)

لَيَالِيَ نَمْـشِـي بَيْـنَ جَوٍّ وَمِسْطَحٍ   نَشَـاوَى لَنَـا مِـنْ كُــلِّ سَائِمَةٍ جَزَرْ(4)

---

(1) حاتم بن عبدالله الطائي، ، **الديوان** ، ص187– 190.

(2) الأشر: البطر والمرح (ابن منظور: أشر).

(3) الأقران: الحبال الواحد قَرَن، الصير: جمع صيرة وهي الحظيرة أي أنهم أسرى (ابن منظور: قرن، صير).

(4) جو ومِسْطَح: موضعان في جبلي طيء (معجم البلدان، ج5: 126)، السائمة: الماشية، الأبل الراعية، الجزر: ما يجزر يذبح للأكل (ابن منظور: سوم، جزر).

فَيَا لَيْتَ خَيْـرَ الـنَّاسِ حَـيًّا وَمَيِّتًا يَقُولُ لَنَا خَيْرًا وَيَمْضِــي الّـَذِي ائْتَمَرْ (1)
سَقَى اللَّهُ رَبُّ النَّاسِ سَحًّا وَدِيـمَةً جَنُــوبَ الشَّراةِ مِــنْ مَـآبٍ إِلَى زُغَرْ (2)
بِــلادَ امْرِئٍ لا يَعْـرِفُ الـذَّمُّ بَيْتَهُ لَــــهُ الْمَشْرَبُ الصَّافِي ولَيْسَ لـه الْكَدَرْ
تَذَكَّرْتُ مِنْ وَهْـمِ بْنِ عَمْرٍو جَـلادَةً وَجُــرْأَةَ مَـعْـدَاهُ إِذَا صَــارِخٌ بَــكَرْ (3)
فَأَبْشِـــرْ وَقـرَّ الْعَيْـنَ مِنْـكَ فَإِنَّنِي أَجِيىءُ كَرِيـمًا لا ضَعِيفًا وَلا حَصِرْ (4)

ويذكر الخبر أن الحارث أُعجب بمقالة حاتم، وقال له خيرا فوهب له بنِي امرئ القيسِ بنِ عَدِيٍّ ثُمَّ أَنزلهُ عندهُ، وأَمر بحُسْنِ ضيافتهِ والإحسان إليه وبِتَعَهُّده، فَحُمل إليه الطَّعامُ والخمرُ، فقال لهُ مِلْحَانُ: أَتشرب الخمر وقومك أَسرى في الأغلال؟ سلهُ أَنْ يَمُنَّ عليهم، ويهبهم لك. فدخل عليه فأنشده(5): (البسيط)

إِنَّ امْرَأَ القَيْسِ أَضْحَتْ مِن صَنِيعَتِكُمْ وَعَبْدَ شَمْسٍ أَبَيْتَ اللَّعْنِ فَاصْطَنِعِ
إِنَّ عَدِيّاً إذا مُلِّكْتَ جانِبَها مِن أَمْرِ غَوْثٍ عَلى مَرأىً وَمُسْتَمَعِ

ثم قال(6):

أَتْبِعْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ أَمْرَ إِخْوَتِهِمْ أَهْلي فِداؤُكَ إِنْ ضَرُّوا وَإِنْ نَفَعُوا
لا تَجْعَلَنَّا أَبَيْتَ اللَّعنَ ضاحِيَةً كَمَعْشَرٍ صُلِمُوا الآذانُ أَو جُدِعُوا(7)

---

(1) ائتمر فلان: إذا قلّب وجوه الرأي ثم أجمع على أحدها (ابن منظور: أمر).
(2) السح: المطر الغزير، الديمة: السحابة يدوم مطرها (ابن منظور: سحح، ديم)، الشراة: موضع بالشام جنوب دمشق، مآب: بلدة بالبلقاء في طرف الشام، زغر: قرية بمشارف الشام (معجم البلدان، ج3: 332، ج5: 31، ج3: 143).
(3) معداه: من عدا عليه: ظلمه، النّازح: البعيد، بَكر: ذهب باكرا (ابن منظور: عدا، نزح، بكر).
(4) قَرّ العين: من قرّتْ عينه: بردت سرورا، الحصر: العيي في النطق (ابن منظور: قرر، حصر).
(5) حاتم الطائي، **الديوان**، ص 191– 192.
(6) **السابق**، 280.
(7) صلموا: قطعتْ آذانهم، جدعوا: قطعتْ أُنوفهم (ابن منظور: صلم، جدع).

أَو كَالجَنَاحِ إذا سُلَّتْ قَوادِمُهُ   صارَ الجَناحُ لِفَضْلِ الرِّيشِ يَتَّبِعُ

فأطلق له بني عبد شمس بن عدي بن أخزم، وبقي قيس بن جَحْدَر الأجئي ، وهو من لَخْم، وأمه من بني عَدِي، وهو جدُّ الطِّرِمَّاح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جَحْدَر، فقال له النعمان: أفبقي من أصحابك أحد؟ فقال حاتم(1):   (الطويل)

فَكَكْتَ عَدِيّا كُلَّها مِن إسارِها   فأفْضِلْ وشَفِّعْنِي بِقَيْسِ بن جَحْدَرِ

أبُوه أبـي والأُمَّـهاتُ أمَّـهاتُنا   فأنْعِمْ فَدَتْكَ اليوم قَوْمي ومَعْشَري

إنّ المدح والهجاء لاشكّ يحمل معنىً سياسياً، فعندما ينتقل الشاعر من الهجاء إلى المدح فإنّه يعلن موقفاً سياسياً، فرضته عليه طبيعة الموقف الجديد، والأمر الواقع الذي تكُون فيه الخيارات محدودة، والنتائج حتميّة، فلقد اتّخذ الشعراء من بلاط الملوك مزارا لهم، يعرضون أمامهم مصالح قبائلهم واتّجاهاتهم في مختلف الأحداث السّياسية والعسكرية المحيطة بهم، أو المستجدة على الجزيرة العربية برمتها، نتيجة للتنافس القائم بين زعماء القبائل العربية وشيوخها من جهة، وصراع القوى الأجنبية في بسط سيطرتها ومد نفوذها على المنطقة العربية، من جهة أخرى، ممثلة بإمارتي الغساسنة والمناذرة، فكان هدف كل فريق اخضاع القبائل العربية لها، "وتوطيد سلطانهم عليها، لذا كانوا يرغبون في أن يقدم عليهم شعراء القبائل، يعلنون دخولهم في دينهم ويستعطفون، ويعتذرون اعتذار المغلوب للغالب، ليطلقوا لهم أسراهم وسباياهم"(2). فعندما استباحت ذبيان وأسد، وادي أُقر الخصيب الذي كان تحت حماية الحارث الأصغر الغساني، أمر الحارث جيشه بمعاقبة المعتدين

---

(1) حاتم الطائي، الديوان، 193.

(2) دقة، محمد علي ، **السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي**، ص283.

من أسد وذبيان، فسار الجيش إليهم بقيادة النعمان بن الجُلاح الكَلْبيّ، وقتل منهم الكثير وأسر من رجالهم، وسبى من نسائهم وذراريهم، وسلب أموالهم، فقال النّابغة في ذلك(1): (البسيط)

لم يَبقَ غيرُ طَريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ ومُوثَقٍ في حِبالِ القِدّ مَسْلوبِ(2)

أو حُرَّةٍ كَمهَاةِ الرّملِ قد كُبِلَتْ فوقَ المعَاصِمِ منها والعَرَاقيبِ

تدعو قُعَيْناً وقد عَضّ الحديدُ بها عَضَّ الثّقافِ على صُمّ الأنابيبِ(3)

مُستَشعِرينَ قدَ الفوَا في ديارِهِمُ دُعاءَ سُوعٍ ودُعميٍّ وأيّوبِ(4)

لقد كان النابغة قد وجّه النصيحة لقومه بعدم الاعتداء على وادي أُقُر الخصيب؛ فهو في حمى الغساسنة، وأن لا يغترّوا بقوّتهم، فلا طاقة لهم بجيش عمرو بن الحارث الغساني، ولكنّ قومه رفضوا نصيحته، وعيّروه ورموه بالجبن والخوف من مواجهة الغساسنة، قال النابغة(5): (البسيط)

وعَيّرَتْني بَنُو ذُبيانَ خَشْيَتَهُ وهل عليّ بأنْ أخشاكَ مِنْ عَارِ

ثم نزلوا وادي أُقُر، فوجّه عمرو جيشه لتأديبهم وردّهم عن الوادي، فكانت النهاية مؤلمة على قبيلتي ذبيان وحلفائهم من أسد، حيث قَتل فرسانهم، وشردهم في أصقاع الأرض، وسيقتْ النساء سبايا مفزوعات يذرفن الدموع، ويقلّبن نظرهن خائفات مترقبات فرسان قومهن؛ حصن بن عيينة وزبّان بن سيار، ليخلصاهن من ذلّ العبودية، وفقدان الحرية، وفي ذلك يقول النابغة الذبياني(6): (البسيط)

---

(1) النابغة الذبياني، **الديوان**، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1985م، ق4: 52-53.

(2) الطريد: الذي طرده الخوف وأبعده عن محلّه، القدّ: هو الشرك الذي يشدّ به الأسير (ابن منظور: طرد، قدد).

(3) قُعين: حيّ من بني أسد، الأنابيب: جمع أنبوب وهو ما بين كعوب العصا، الثقاف: خشب تقوّم بها الرماح (ابن منظور: نبب، ثقف).

(4) مستشعرين: أي داعين بشعارهم والشّعار: علامة يتعارف بها الرجال في المعركة(ابن منظور: شعر)، سوع: حيٌّ من أحياء اليمن من غسان وكذا دعميّ وأيّوب.

(5) النابغة، **الديوان**، ق9: 78.

(6) **السابق**، ق9: 75- 76.

لـقــد نَهَيْتُ بَنِـي ذُبْيانَ عــن أُقُـــرٍ وعـــنَ تَرَبُّعِـــهِمْ فــي كلِّ أصْفارِ(1)

وقلــتُ يـا قـــومُ إنَّ اللّـــيْثَ مُنقَبِضٌ علـــى بَراثِنِـــهِ لـوثْبَــةِ الــضّاري(2)

لا أعْـرِفَنْ رَبْـرَباً حُـــوراً مَـدامِعُـها كـأنّ أبـكـــارَهـا نِــعــاجُ دَوَّارِ(3)

يَنْظُرْنَ شَزْراً إلى مَنْ جاء عن عُرُضٍ بأَوْجُـهٍ مُنـــكِـراتِ الرِّقِّ أحــرارِ(4)

خَلْـفَ العَضارِيطِ لا يُوقَـيْنَ فاحشةً مُستمسِكاتٍ بأقتـــابٍ وأكْـوارِ(5)

يُذْرِيـنَ دَمْـعاً على الأشفارِ مُنْحَدِراً يَأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابنِ سَيَّارِ(6)

وعلى أثر هذه الأحداث غادر النابغة بلاط النعمان بن المنذر في الحيرة، وتوجه إلى بلاد الغساسنة – أعداء النعمان بن المنذر– فسارعَ إلى الاتصال بقادة الغساسنة وسادتها، في محاولة لاحتواء نتائج الهزيمة المنكرة التي أصابت قومه، وأضعفت قوتهم، وكسرت شوكتهم، فقد كان أمن القبيلة ووحدتها وسيادتها من الدوافع الأساسية التي جعلت النابغة يفد على بلاط الغساسنة، ويتصل بهم مادحا وراغبا في مسالمتهم. فنزل بالنعمان وأخوه عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن

(1) عن تربُّعهم: أي حلولهم زمن الربيع فيه. في كل أصفار: لأن صفراً كان في الربيع يومئذ.

(2) إن الليث منقبض: أي مجتمع متهيِّي للوثوب، البراثن: المخالب، الضّاري: من صفة الليث معناه المتعوّد أكل الناس (ابن منظور: قبض، برثن، ضرا).

(3) الربرب: القطيع من البقر شبه النساء به في حسن العيون وسكون المشي، المدامع: العيون وهي مواضع الدمع، النِّعاج: إناث البقر، دَوّار: موضع سجن باليمامه ودُوّار بالضم اسم جبل أو واد (معجم البلدان ج2: 487)، لا اعرف ربربا: يريد: لا تقيموا في هذا الموضع فتسبى نساؤكم فأعرف ذلك فيكم (ابن منظور: ربرب، دمع، نعج).

(4) ينظرن شَزْراً: ينظرن بمؤخَّر أعينهنّ، يلتفتن يمينا وشمالا، عن عُرُض: عن ناحية، منكرات الرِّقِّ أحرار: أي كُنّ في حرية فلمّا سُبين أنكرن الرِّقَّ والعبودية (ابن منظور: شزر، عرض).

(5) العضاريط: الأجراء والتُّباع واحدهم عُضْرُوط، لا يوقين فاحشة: أي لا يمنع منهنّ الفواحش لأنهنّ سبايا مملَّكات فالعضاريط يتمتعون منهنّ بما شاؤا، والأقتاب: أعواد الرَّحل، والأكوار: الرِّحال يصف السبايا أنهنّ مردفات فهنّ يستمسكن بالرّحال (ابن منظور: عضرط، قتب، كور).

(6) حصن وابن سيّار: يريد حصن بن حذيفة الفزاريّ وزياد بن سيّار وكانا سيدي فزارة وإنما قال هذا تعريضا بهما وتحضيضا لقومه على مخالفة فزراة بن ذبيان والنابغة من سعد بن ذبيان في الإقامة بهذا الموضع الذي احتماه الملك وكانت فزارة حلفاء بني ذبيان.

الحارث الأكبر بن جَبَلَة، ومدحهما، وتقرب لهما. وقد كان من السبايا التي وقعت في أسر قائد جيش الحارث الأصغر، النعمان بن الجُلاح، عَقْرَب بنت النابغة، فقال لها من أنت ؟ فقالت: أنا عقرب بنت النابغة، فقال لها : والله ما أحد أكرم علينا من أبيك، وما أنفع لنا عند الملوك، فأكرمها وأطلق سراحها، ومما قاله النابغة في مدح النعمان بن الجُلاح(1) : (الطويل)

فآبَ بأبْـــكارٍ وعُـــونٍ عَـــقائِلٍ   أَوَانِسَ يَحْـمِيها امرؤٌ غيرَ زاهــدِ(2)
يُخَطِّطْــنَ بالعِـيدانِ في كلِّ مَقْعَدٍ   ويَخْبَـأْنَ رُمّـانَ الـثُّـدِيِّ الـنَّــواهِدِ(3)
ويَضْـرِبْنَ بالأَيْــدي وراءَ بَــراغِزٍ   حِـسانِ الـوُجُوهِ كالظِّباءِ العَـــوَاقِـدِ(4)
غَـرائرُ لـــم يَـلْقَيْـنَ بَـأْسـاءَ قبلَها   لَـدى ابنِ الـجُـلاح مـــا يثِقْنَ بوَافِدِ(5)
أصابَ بَنِي غَيْظٍ فأَضْـحَوْا عِبادَةً   وجَلَّلَها نُـعْمَى علــى غـيرِ واحــدِ(6)
فلا بُدَّ مِن عَـوْجاءَ تَهْـوي براكبٍ   إلى ابنِ الجُلاحِ سَيْرُها اللَّيْلَ قاصِدِ(7)
تَخُبُّ إلى النُّعمانِ حـتَّى تَنـــالَه   فِدىً لَــكَ مِن رَبٍّ طَرِيـفِي وتالِدِي(8)

---

(1) النابغة، **الديوان**، ق25: 139– 141.

(2) العُون: جمع عَوان وهي مَنْ كانت في منتصف عمرها من النساء، العقائل: جمع عقيلة وهي الكريم من النساء، الأوانس: جمع للآنسه وهي التي تؤنِسُ بحدِيثها (ابن منظور: عون، عقل، أنس).

(3) يُخَطِّطْنَ بالعيدان: أي هُنّ مأسورات قد بلغ منهنّ الحزن فإذا قَعَدْنَ خطَّطن بالعيدان في الأرض وذلك من فعل المحزون يَتَعَبَّثُ بالحَصَى والتَّخطيط يَتَلَهَّى بذلك عما هو فيه، وقوله: رُمّان الثُّدِيّ: أي هنّ شوابٌ لم تتكسر ثُدِيُّهنّ بعدُ، النَّواهد: التي نتأت ولم تسترسل (ابن منظور: رمم، نهد).

(4) البراغز: جمع بَرْغَز وهو ولد البقرة الوحشية إذا مشى مع أمه، وقد استعاره لأولاد السبايا، العواقد: التي مدّت أعناقها ويقال هي العاطف على أولادها (ابن منظور: برغز، عقد).

(5) ما يثِقن بوافد: أي قد يَئِسْنَ من أن يرحل إليهنّ أحد من قومهنّ بفدائهنّ فيفديهنّ.

(6) قوله: أصاب بني غَيْظ: أي أصابهم بالغارة والأسر، وبنو غيظ بن ذبيان وهو غيظ بن مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان. جلَّلها النعمى: يريد أنه مَنَّ على الأسرى فأطلقهم وأنعم عليهم.

(7) العوجاء: الناقة التي اعوجّت لطول السفر فأصابها الهزال (ابن منظور: عوج).

(8) الطريف: كل ما اكتُسِبَ من مال، التّالد: كل ما ورث عن الآباء (ابن منظور: طرف، تلد).

فسَكَّنْتَ نَفْسي بعدما طار رُوحُها وأَلْبَسْتَنِي نُعْمَى ولستُ بشاهِدِ(1)

لقد كان إطلاق الأسرى والسبايا علامة قبول واتفاق بين الأطراف والقوى المتنازعة، وعهدا ضمنيا بعدم التعدي على الأخر، فكان الملوك يطلقونهم ليؤكدوا صدق نواياهم تجاه القبيلة، وأن يبقوا على حبل من المودة بينهم بما يحقق مصالحهم، ويأمن استقرارهم وسيادتهم. وهذا قد يكون السبب الحقيقي في غضب النعمان بن المنذر ملك الحيرة على النابغة الذبياني، نتيجة لاتصاله ببلاط الغساسنة، ومدحه لملوكهم، واحتجاجا على علاقاته السياسية معهم، وما يحمله من تهديد غير مباشر لإمارة الحيرة، "فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنبا شخصيا، وإنما كان ذنبا سياسيا"(2) ولذلك لم يسرف النابغة في مدح النعمان بن المنذر حتى لا يغضب الغساسنة؛ فأمْنُ قبيلته وسلامة أفرادها، وحماية مراعيها، على درجة كبيرة من الأهمية، فمصالح القبيلة تقدّم على المصالح الشخصية، ولذلك كان لا بد من الاتصال مع الغساسنة، لتدارك ما يستجد من خطوب، وما يطرأ من أحداث، وكان لهذا الاتصال نتائج ايجابية، ولعل من أهمها إنقاذ أسرى وسبايا قومه وحلفائهم ورد ما يسلب منهم من أموال وغنائم، نتيجة للمناوشات المستمرة مع الغساسنة(3).

كان النابغة شديد الاعتداد بنفسه، إلا أنه أكثر في مديح الغساسنة، "ولم يكن النابغة يمدح إلا مضطرا، فحيث يسقط قومه أسرى وسبايا بأيدي الغساسنة، نراه يتجه إليهم بالزيارة والسِفَارة والمديح فينزل عن هذا الكبرياء، وتلك المكانة مدعيا معاني شتى من صداقة تربط بينه وبين ملوك

---

(1) قوله: وألبستني نُعْمى: يريد ما أنعم به عليه من إطلاق الأسارى له وهو غائب عنه.
(2) ضيف، **العصر الجاهلي**، ص272.
(3) أنظر: الشطي، عبدالفتاح، **شعراء إمارة الحيرة في الشعر الجاهلي**، ص190.

الغساسنة"(1)، في سعيه لتوفير أسباب العيش الكريم لعشيرته، ولكي يجنبهم المخاطر المحدقة بهم في بيئة امتازت بالعنف الشّديد، وشهدتْ الكثير من الحروب والصّراعات، فكانت أرضهم مسرحا لهذه النزاعات والمواجهات الدامية.

لقد كان الأسر والسبي مجالا واسعا تسابق فيه الشعراء من أجل إنقاذ أبناء قبائلهم ورد أموالهم وأنعامهم، فوجد فيه الشعراء قدرا كبيرا من الأهمية الاجتماعية والسياسية التي حملوها بالنيابة عن قبائلهم، فزادت مكانة الشعراء في المجتمع الجاهلي، حيث تمتعوا بمكانة خاصة لدى قبائلهم، وعند مختلف القبائل الأخرى فكان لهم دور كبير في الحفاظ على كيان القبيلة انطلاقا من مبدأ العصبية القبيلة، فدافعوا عن قبائلهم، وعملوا على تأكيد وحدتها وتماسكها، ورعاية شؤونها، وتوجيه سياستها في بعض الأحيان، بما يخدم مصلحة القبيلة وأمنها؛ فكان وفودهم على زعماء القبائل والملوك وغيرهم من خصومهم وأعدائهم من أجل فكاك أسراهم وسباياهم، يحمل بعدا سياسيا بارزا يقترب نحو شكل من أشكال الاتفاقيات التي تُعْقدُ بين القوى المتخاصمة، يكون ثمرتها المَنُّ باطلاق الأسرى والسبايا، وردّ الأموال والغنائم أحيانا. لقد كان الأسرى والسبايا الدافع القوي الذي عمل على إيجاد نوع من التواصل السياسي بين القبائل العربية، من حيث علاقتها بعضها ببعض، أو علاقتها بالدول والإمارات المحيطة بالجزيرة العربية، ممثلة بدولة الفرس وإمارة المناذرة من جهة ودولة الروم وإمارة الغساسنة من جهة أخرى؛ فقد ساهم الأسر والسبي في أحيان كثيرة في تحديد علاقات القبائل فيما بينها، على الصعيد الداخلي أو الخارجي، بل ويعد سببا رئيسا في تغيير خريطة التحالفات الموثقة آنذاك، وإعادة رسم العلاقات القائمة فيما بين مختلف القوى المتنازعة والساعية إلى تحقيق مصالحها، وحماية أفرادها، بما يوفر لهم الأمن والاستقرار والسيادة.

---

(1) الشطي، **شعراء إمارة الحيرة في الشعر الجاهلي**، ص191.

الفصل الثاني

الأسر في الشعر الجاهلي

شاعت ظاهرة الأسر في المجتمع العربي في العصر الجاهلي، نتيجة لعوامل مختلفة أحاطت به منها الجغرافية والاقتصادية والسياسية والثقافية، وقد اجتمعتْ هذه العوامل في ظاهرة الأسر، بل أنها -- ظاهرة الأسر -- تعدُّ مرآة تعكس كثيرًا من جوانب حياة الإنسان العربي في العصر الجاهلي على الصعيد الفردي أو الجماعي(1). وإن افتقار القبائل العربية لنظام سياسي واضح، وكذلك غياب السلطة المركزية، التي تحفظ الحقوق وتطبق القانون على جميع شرائح المجتمع وعناصره المتباينة كان له الأثر الكبير في سيادة النظام القبلي العشائري المتمثل بالعصبية القبلية والثأر الذي ألقى بظلاله على مختلف الجوانب الحياتية للمجتمع العربي آنذاك، وانعكس من جهة ثانية على مجمل علاقات هذا المجتمع وعاداته وتقاليده المتّبعة والسّائدة في المجتمع العربي آنذاك.

والأسير هو المشدود بالإسار، والإسارُ: ما شُدّ به، والجمع أُسُرٌ. وما أَحسَنَ ما أَسَرَ قَتَبَه،-- القَتَبُ رَحْلٌ صغير على قدر السّنام-- أَي ما أَحسَنَ ما شدّه بالقِدِّ؛ والقِدُّ الذي يُؤْسَرُ به القَتَبُ يسمى الإسارَ، وجمعه أُسُرٌ؛ وقَتَبٌ مَأْسور وأَقْتابٌ مآسير(2).

والإسارُ: الْقَيْدُ ويكون حَبْلَ الكِتافِ، ومنه سمي الأَسير، وكانوا يشدّونه بالقِدِّ فسُمي كُلُّ أَخِيذٍ أَسِيرًا وإن لم يشدّ به. يقال: أَسَرْت الرجلَ أَسْرًا وإسارًا، فهو أَسير ومأْسور، والجمع أَسْرى وأُسارى. وتقول:

---

(1) انظر: الجندي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، 15-61.

(2) ابن منظور: أسر.

اسْتَأْسِرْ أَي كن أَسيرًا لي. والأَسيرُ: الأَخِيذُ، وأَصله من ذلك. وكلُّ محبوس في قدٍّ أَو سِجْنٍ: أَسيرٌ. وقوله تعالى: " وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا"(1)؛ والأَسير المسجون، والجمع أُسَرَاءِ وأُسارى وأَسارى وأَسرى؛ والأسير يُشَدّ بالإسار بهدف منعه من الحركة، وسلبه حرية التصرف فيصبح عاجزا عن الدفاع عن نفسه(2)، والآسر يفرض سلطته وسلطانه على أسيره يتحكم بمصيره ويقيد حريته، فيُوضع الأسير في القيود لا تفارقه، فلا يقدر على الحركة والتنقل.

محنة الأسر

شكّل الأسر محنة قاسية ومؤلمة؛ يقف فيها الأسير عاجزًا خاضعًا مستسلمًا لمصيره المجهول وواقعه المرير في معاناته الجسدية والنفسية، يَرْسُفُ في قيود الذل والعبودية، ويعاني من فقدان الحرية والعجز عن التصرف في مصيره؛ فيصبح ملكًا لآسره، يتحكم في مصيره، ويقيد حريته ويمعن في إذلاله وإهانته بصفة عامة. فهذا الأعشى يقع أسيرًا في يد علقمة بن علاثة بعدما هجاه بقوله(3): (السريع)

عَلْقَمَ لا لَسْتَ إلى عَامِرٍ   النَّاقِضِ الأَوْتَارِ والوَاتِرِ

---

(1) سورة الإنسان، الآية 8.

(2) ابن منظور: أسر.

(3) الأعشى الكبير ميمون بن قيس، **الديوان**، تحقيق: محمد محمد حسين، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1983م، ق18: 141.

فينذر علقمة دمه، فخرج الأعشى يريد وجهًا، فأخطأ به دليله، فألقاه في ديار بني عامر بن صعصعة، فأخذه رهط علقمة فأتوه به، وقد أمسى فاقدًا لحريته، فقال معتذرًا ومستجديًا كرم آسره(1): (المتقارب)

أَعَلْقَمُ قَــدْ صَيَّرَتْنِى الأُمُــورْ   إِلَيْــكَ وَمَا كَانَ لي مَنْكَصُ

فهَبْ لي ذُنُوبى فَدَتْكَ النُّفُوسْ   ولا زِلْــتَ تَنْمِى ولا تَنْقُــصُ

وكان الآسر يتفنن في تقييد الأسير، فيعمد إلى غَلِّ اليدين والساعدين نحو الصدر. يقول الأعشى(2): (البسيط)

فَفَكَّ عَنْ مِائَةٍ مِنْهُمْ وثَاقَهُمُ   فَأَصْبَحُوا كُلُّهُمْ مِنْ غُلِّهِ خُلِعَا

وقد يلجأ الآسر إلى تكتيف الأسير بجعل يديه وراء ظهره مشدودة بالحبال. يقول قُرة بن قيس بن عاصم في يوم ثَيْتل في الجاهلية(3): (الطويل)

وجَثَّامة الذُّهــــلي قُدْنــاه عَنْوَةً   إلى الحيِّ مَصْفُودَ اليَدَينِ مُفكِّرا

(1) الأعشى، **الديوان**، ق81: 369.

(2) **السابق**، ق13: 111.

(3) انظر: **العقد الفريد**، ج6: 48. ثيتل: ماء على عشر مراحل من البصرة، ويسمى يوم النُّباح وهو موضع قريب من ثيتل، (معجم البلدان،ج2: 89).

ونجد أن هنالك أحوالا متعددة لتقييد الأسير، منها "القَرْفَصَة"(1)، وهي أن تشد يدا الأسير تحت رجليه. قال الشاعر في هذا المعنى(2): (البسيط)

ظَلَّتْ عليه عُقابُ الموتِ سَاقِطةً قد قَرْفَصَتْ رُوحَه تلك المَخاليبُ

وقد سُمي اللصوص المتجاهرون "القَرافِصة" لشدِّهم يد الأسير تحت رجليه. ومنها أيضا "الجَرْفَسَة"(3) و"الكَرْفَسَة" أو "الكَرْدَسَة"(4)، وهي شدة الوثاق الذي يسبب الألم والجروح؛ حيث تجمع يدا الأسير ورجلاه. وكذلك حيث يشدّ الوَثاق على الأسير فلا يستطيع الحركة إلا بجهد كبير. قال أحدهم(5): (الرجز)

وحــاجِبٍ كَــرْدَسَــه فـي الـحَـبْـلِ(6)

مِــنَّـا غُــلامٌ كــانَ غـير وَغْــلِ(7)

حتــى افْـتَـدى مِنَّــا بمــالٍ جِبْلِ(8)

---

(1) **ابن منظور**: قرفص.

(2) **السابق**: قرفص.

(3) **السابق**، جرفس.

(4) **السابق**، كرفس، كردس.

(5) **السابق**: وَغَل.

(6) حاجب: هو حاجب بن زُرارة ، أُسِرَ يوم جَبَلَة، أَسَره رجل قُشيري اسمه زَهْدَم، وفي ذلك اليوم قُتل لقيط، وكان يوماً شديداً على بني تميم (العقد الفريد، ج6: 11).

(7) الوَغْل من الرجال: النّذل والضّعيف المقصّر في الأشياء، والجمع أوْغال (ابن منظور: وغل).

(8) مالٌ جِبْلٌ: مالٌ كثيرٌ (ابن منظور: جبل).

و قال امرؤ القيس أيضا في هذا المعنى(1): (الطويل)

فَبَاتَ على خَدٍّ أحَمٍّ ومَنْكِبٍ وضِجْعَتُهُ مثل الأسِيرِ المُكَرْدَسِ(2)

لقد شكلتْ أحوال تقييد الأسير الصورة القاسية التي كان يعيشها الأسرى، فكلها توحي بالهلاك والفناء المحتوم الذي لا مفرّ منه سوى رحمة الآسر وشفقته عليه. ومما زاد في محنة الأسير تلك القيود التي يوثق بها، فتمنعه من الحركة فلا يقدر على شيء من أمره. فقد كان المحارب يحمل معه القِدّ-- والقِدّ بالكسر: سَيْرٌ يقَدُّ من جلد غير مدبوغ. والقِدَّةُ أخصُّ منه، والجمع أقُدٌّ(3)-- المصنوع من جلود الأنعام؛ لما يمتاز به من خفة وزنه وسهولة حمله، فيسارعون إلى غَلّ الأسير بالقِدِّ، وأحيانا يكون هذا القِدّ غير مدبوغ، فتكثر فيه الحشرات من الديدان والقمل فيشتد أذاه، والغُلُّ بالضم: واحد الأغْلال. يقال: في رقبته غُلٌّ من حديد. ومنه قيل للمرأة السيِّئة الخلق: غُلٌّ قَمِلٌ. وأصله أنّ الغُلَّ كان يكون من قِدٍّ، وعليه شعرٌ، فَيَقْمَلُ. وغَلَلْتُ يده إلى عنقه وقد غُلَّ فهو مَغْلولٌ(4). قال الحارث بن عَبّاد(5): (الخفيف)

وَقَـتَلْنا عَـلَـى الثَّـنِـيَّةِ عَـمْرًا وَجَلَـبْنا عَـــدِيَّهُمْ مَـــغْلُولَا

---

(1) أمرؤ القيس، **الديوان**، ط5، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، ص102.

(2) بات: أي الثور، الأحم الأسود. ضجعته: هيئة نومه (ابن منظور: حمم، ضجع).

(3) ابن منظور: قدد.

(4) السابق: غلل.

(5) شيخو، **شعراء النصرانية**، 280. عَديّ هو المهلهل أخو كليب أسره الحارث بن عبّاد.

وعُرِف في العصر الجاهلي أنواع متعددة من القيود المستخدمة في شدّ وَثاق الأسير ومَنْعِهِ من الحركة، منها القيد المصنوع من الحديد، يكون أسود اللون، يوضع في يديه أو رجليه. قال قُرّة بن قَيس بن عاصم(1): (الطويل)

وحُمْران أدّته إليـنا رمــاحُنا   يُنــازع غُلّاً مِنْ ذراعيْه أسمرا

ويتكون القيد من حلقتين تحيطان بالقدمين أو اليدين(2). قال عدي بن زيد العبادي يصف نفسه وقد صار من الكبر يمشي كالأسير المقيد(3): (الطويل)

أَعاذِلُ قَدْ لاقَيْتُ ما يَزَعُ الفَتَى   وطابَقْتُ في الحِجْلَيْنِ مَشْيَ المُقَيَّدِ

والقيد قد يكون مقفلا. وقال سَوّار بن حَيَّانِ المِنْقَرِيّ(4): (الطويل)

وحُمْرانُ قَسْرًا أنزلتْه رِماحُنا   فعالَجَ غُلّاً في ذِراعَيْهِ مُقْفَلا

ومن أسماء القيود السَّوارق.(5) قال أبو الطَّمَحان القَيني يمدح بجير بن أوس بن حارثة بن لأم الطائي(6): (الطويل)

---

(1) **العقد الفريد**، ج6: 48. وانظر: جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**، 177.

(2) **ابن منظور**: حجل.

(3) عدي بن زيد، **الديوان**، ق23: 103.

(4) الأصفهاني، **الأغاني** ج14: 52.

(5) **ابن منظور**: سرق.

(6) الأصفهاني، **الأغاني**، ج13: 9 .

ولـم يَدْعُ داعٍ مثلَكُم لِعَظِيمَةٍ   إذا وَزَمَتْ بالسَّاعِدَيْن السَّوارِقُ(1)

قد تسمى القيود الجوامع. قال النابغة الذبياني(2)   (الطويل)

أَتــاكَ بِــقَولٍ لَــم أَكُـن لِأَقُولَهُ   وَلَو كُبِلَتْ في ساعِدَيَّ الجَوامِعُ

ومن أنواع القيود؛ الصِّفَاد،(3) وهو ما يُوثقُ به الأسير من قدٍّ وقَيْدٍ وغُلٍّ. قال عَوف بن عَطية التّيمي: (الكامل)

هلا كرَرتَ على ابـنِ أُمِّك مَـعْـبَدٍ   والــــعامـريُّ يـقــوده بــــصِـفادِ

وفي ابن منظور الصَّفْد والصَّفادُ: الشَّدُّ. وصَفَده يَصْفِدُه صَفْداً وصُفُوداً وصَفَّدَه: أَوْثَقَه وشدّه وقَيَّده ويكون من نِسْع أَو قِدٍّ؛ وكذلك التَّصفِيد. والصَّفد: الوَثاقُ، والاسم الصَّفادُ. والصِّفادُ: حَبْلٌ يُوثَقُ به أَو غُلٌّ، وهو الصَّفْد والصَّفَدُ، والجمع الأَصْفادُ. وفي التنزيل العزيز: "وآخَرِين مُقَرَّنِين في الأَصْفاد"(4)، قيل: هي الأَغلال، وقيل: القيود، واحدها صَفَد. يقال: صَفَدْتُه بالحديد وفي الحديد وصَفَّدْتُه، مخفف ومثقل؛ وقيل: الصَّفَد القيد، وجمعها أَصفاد.

وكان من القيود ما يحيط بجسد الأسير ويوضع في عنقه لا يفارقه فيمنعه من الحركة. قال قَيْسَبة بن كلثوم السَّكوني: (الخفيف)

---

(1) وَزَمَتْ: وَزَمَه بفيه وَزْما: عضّه. السّوارق: الجوامع، مفردها سَارقة، (ابن منظور: وزم، سرق).

(2) النابغة الذبياني، الديوان، ق2: 35

(3) **ابن منظور**: صفد.

(4) **سورة ص**: أية 38.

هَزِئَتْ جــارتِي وقـــالتْ عـجــباً		إذ رأتْنــي في جِيـــدِيَ الأغــلالُ(1)

وقال عدي بن زيد متألما من كثرة القيود التي أحاطت بيديه وعنقه(2):		(الخفيف)

ولَـقَدْ ســاءَني زِيـارَةُ ذي قُرْ		بَى حَــبـيـبٍ لِـوِدِّنا مُـشــتـاقِ

ســاءَهُ مــا بِنا تَبَيَّنَ في الأَيْ		دي وإِشْنـــاقُـها إلَـــى الأَعْناقِ(3)

وقال في موضع آخر يذكر القيود التي أحاطتْ بجسده وهو في سجنه، وقد بلغت عشرين قَيدا(4):

جاءَني من لَدَيه مروانُ إذْ قَفـ		ـفِيتُ عَنهُ بِخَيْرِ مـــا أَحـذاني		(الخفيف)

بِإِفَـــالٍ عِشرينَ قَحَّمَهَا الصَّعـ		ـبُ بِحُـسنِ الإخـاءِ والـخُـلّانِ(5)

لا صَــفَايَا دهم فأَسنَمَها الرِّسـ		ـلُ ولا جِـــلَّة قَــطيعٍ هِـجَان

وكان من القيود ما هو خفيف، ومنها ما هو ثقيل فما أنْ يقوم به الأسير حتى يسقط على وجهه ويسمى عندئذ الكَبْل(6)، والكَبْل: قَيْدٌ ضخم، والكَبْل والكِبْل القَيْد من أَيِّ شيء كان، وقيل: هو

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج13: 6. هو قيسبة بن كلثوم السكوني من عرب اليمن كان ملكا في قومه ولكنه وقع أسيرا في بني عامر بن عُقيل.

(2) عَدي بن زيد العبّادي، **الديوان**، تحقيق محمد جبّار المعيبد، بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد 1965م، ق92: 150.

(3) الأشناق: أن تغل اليد إلى العنق (ابن منظور: شنق).

(4) عدي بن زَيد، **الديوان**، ق142: 187.

(5) الإفال: القيود، قحّمها: ادخل بعضها في بعض، الصّعب: النعمان بن المنذر سمي بذلك لصعوبته في ملكه (ابن قتيبة، **المعاني الكبير**، 878).

(6) ابن منظور: كبل.

أَعظم ما يكون من الأَقْياد، وجمعهما كُبُول. يقال: كَبَلْتُ الأَسير وكَبَّلْتُه إذا قيَّدتُه، فهو مَكْبُول ومُكَبَّل. وقيل هو القَيْد والكَبْل والنِّكْل والوَلْمُ والقُرْزُل والمَكْبُول: المحبوس. قال قَيْس بن الحِدادِيّة وكانت خزاعة أسرته في غارة لها على اليمامة(1): (الطويل)

دعوتُ عَديًّا والكُبولُ تَكُبني ألا يا عديٌّ يا عديّ بن نوفلِ

دعوت عَديًا والمنايا شوارِعٌ ألا يا عــدِيّ للأســير المكبّلِ

وتجتمع القيود المختلفة تحت اسم الوَثاق(2)، وهو في الأَصل حَبْلٌ أو قَيْدٌ يُشدّ به الأسير والدّابة. قال عَديّ بن زَيد(3): (الخفيف)

فاذهَــبي يا أُمَيْمَ غيرَ بَـعيدٍ لا يُوَاتــي العِـنَاقُ مَنْ في الوِثَاقِ

وقال أيضا(4): (الخفيف)

أَبْـلِــغَا عــامِــرًا وأَبْــلِغْ أَخَاهُ أَنَّــني مُـوثَـقٌ شَــديدٌ وِثَاقي

في حَديدِ القِسْطاسِ يَرْقُبُني الحَا رِسُ والمَرْءُ كُلَّ شَــيْءٍ يُلاقي

في حَديدٍ مُضــاعَفٍ وغُــلُولٍ وثِــيابٍ مُنَـضَّــحاتٍ خِــلَاقِ

وعلى هذا الأساس، كانت القيود بأنواعها وأشكالها المتعددة تعمق من حزن الأسير ومعاناته وتوحي

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 98.
(2) **ابن منظور**: وثق.
(3) عدي بن زيد، **الديوان**، ق92: 151.
(4) **السابق**، ق92: 151.

بالعذاب والقهر الذي يلاقيه في أسره .

حرص القوم على **حبس الأسرى**، وتشددوا في مراقبتهم حتى لا يفروا، فلم يكن هنالك أماكن محددة يوضع فيها الأسرى؛ فكانت تجتهد القبيلة في إيجاد الأماكن المناسبة لحبسهم فيها. فقد يوضع الأسير في خيمة ويوكل إلى أحد رجال القبيلة حراسته ومراقبته. وقد يُلقى في بئر أو يجعلون له حفرة في الأرض، قال عوف بن عطية التيمي مخاطبا لقيط بن زرارة يعيره بتركه أخاه معبدًا يعاني في الأسر(1): (الكامل)

لكـنْ تَرَكْــتَهُ في عَمِـيقٍ قَعْرُها جَــزَرًا لِخامــــعةٍ وطــيرِ عَوادِ(2)

ونجد بعضهم من وضع الأسرى في حظيرة للأغنام، كما فعلت خُزاعة، عندما أسرتْ قَيس بن الحُداديِّة مع جماعة من قومه في غارة لها على اليمامة، وقال قيس مخاطبا ومستغيثا بعّديّ بن نَوفل(3): (الطويل)

تداركتَ أَصحاب الحظيرة بعدما أصــابهمُ مـــنّا حــريقُ المــحلّلِ(4)

إلا أننا نجد سجونًا وجدت في بعض المدن، ومن ذلك سجن في مدينة الطائف، يقوم عليه رجل كان يعذب الأسرى، ويقتلهم مقابل أجر. ففي خبر أسر معبد بن زرارة، سيد تميم زمن النعمان أنّهم

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج11: 91.
(2) الخامعة: الضّبع لانها تخمع إذا مشت (ابن منظور، خمع).
(3) **السابق**، ج14: 98.
(4) المحلل: الذي حلل إحراقنا في الأشهر الحرم.

بعثوا بمَعْبَد إلى رجل في الطائف كان يعذب الأسرى، فقطعه إربا أربا حتى قتله(1). وحُبس طَرَفَة بن العَبْد في حصن بالبحرين وفيه قتل(2).

أما في الحيرة فإننا نجد سجنًا للنعمان بن المنذر يسمى "الثَّوِيّة" وهو موضع قريب من الكوفة، وقيل بالكوفة، وقيل خُرَيبة إلى جانب الحيرة على ساعة منها، كان يحبس فيه من أراد قتله(3). وفيه حبس عدي بن زيد، حتى قتله.

أما في إمارة الغساسنة فنعرف سجنًا في منطقة البلقاء. وقد ذكره رجل من لَخْم عند تحريضه الأسود بن المنذر على قتل الأسرى الغسانيين(4): (البسيط)

واذْكُـرْ لمَـــنْجاهُمُ مَثْوَى أَبِي كَرِبٍ وحَـــبْسَ آلِ عَدِيٍّ عِـــنْدَهُمْ حِقَبا(5)

أَمْسَـــتْ تُضَرَّبُ بالبَلْقَاءِ هـــامَتُهُ ونــحنُ نَسْتَعْمِلُ اللَّذَّاتِ والــطَرَبا(6)

وهكذا نجد أن الآسر كان حريصا على أسيره فكبّله بالقيود المختلفة، ووضعه في أماكن مخصوصة ومحروسة بعناية، مما جعل من الصعوبة بمكان أن يتمكن الأسير من الفرار من أسره.

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج11: 70.

(2) طرفة، **الديوان**، ص100.

(3) الحموي، **معجم البلدان**، ج2: 87.

(4) البصري، علي بن أبي الفرج بن الحسن، ت659 هـ. **الحماسة البصريّة**، تحقيق عادل جمال سليمان، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1999م، ق194: 278.

(5) واذكر لمنجاهم: أي إذا أردت أن تعفو عنهم فينجون، فاذكر حبسهم أصحابنا وما فعلوه معهم.

(6) البلقاء: أرض بالشام منزل الغساسنة. (معجم البلدان،ج1: 489).

لقد امتازتْ **معاملة الأسرى** في العصر الجاهلي بالقسوة والعنف، انطلاقا من الغالب والمغلوب والمنتصر والمهزوم. فكانت القيود والأغلال لا تفارق الأسير، وإنْ كان هذا الأسير من السادة أو الزعماء أو الأشراف، قال عُتَيْبَة بن الحَارِث اليَرْبُوعِي بعد أن أسر بِسْطام بن قَيْس، وهو زعيم شيبان وفارسها وصاحب غاراتها، فوضعه في القيود، وأثقله بالحديد، وراح ينتقل به بين الصحاري والجبال(1): (البسيط)

أبْــلـغْ سَــــرَاة بني شَيْــبان مَألِكَةً إنّـي أبَأْتُ بِـــعَبْدِ الله بِسْـطاما(2)

قَـاظَ الشَّرَبَّةَ فـــي قَيْــدٍ وسِـــلْسِلَةٍ صَوْتُ الحَديــدِ يُـغَنِّيهِ إذا قَاما(3)

إنْ يَحْصُرُوكَ بِـذي قــارٍ فذا قِنَّةٍ فَـــقَدْ أُعَرِّفُهُ بِـيدًا وأعْـــلامًا(4)

وقد تعرض الأسير إلى الذلّ والإهانة فلا يُحمَل على المطيّة بل يسير على قدميه يقطع الصحراء مُوَثق اليدين، مشدودا إلى الإبل السَّريعة يَعْدُو معها. وهذا الذي فَعَلَهُ زَيدُ الخيل بالحَارث بن ظَالِم حين أسره، إذ يقول(5): (الطويل)

---

(1) أبو عبيدة، معمر بن المثنَّى التَّيميّ البَصريّ ت209هـ، **نقائض جرير والفرزدق**، ط1، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م،ج1: 61.

(2) مألكة: رسالة. أبأْتُ القاتل بالقتيل واستبأته ايضاً: إذا قتله به، وأبأت بعبدالله: رجعتُ به مأسورا (ابن منظور: ألك، بوأ).

(3) الشَّرَبَّة: أرضٌ لَيِّنَة تنبتُ العشب (ابن منظور: شرب).

(4) ذو قار وذو قنة: مواضع، الأعلام: جمع علم، الجبل الطويل (ابن منظور:علم).

(5) البرزة، أحمد مختار، **شعر زيد الخيل الطائي**، ط1، بيروت: دار المأمون للتراث، 1988م، ق33: 157.

وسُقْنا نســاءَ الحيِّ مُـرّةَ بالــقنا وبالـخيل تَرْدي قد حَوَيْنا ابنَ ظَالِمِ(1)

جَنيبًا لأعضادِ النـواجي يَـقُدْنَه على تَعَبٍ بينَ الـنَّواجي الـرَّواسمِ(2)

يقولُ: اقبلوا مني الفِداءَ وأَنْعـموا علـيَّ وجُـزّوني مَـكانَ الـقَـوادِمِ(3)

وقد أمعن بعضهم في إذلال الأسير، فخاطبه بالعبد إهانة له وتحقيرا لشأنه، فهو عبد بالقوة لآسره. قال زيد الخيل عندما أسر الحطيئة(4): (الطويل)

أَقُـولُ لـعَبْدي جَـرْوَلٍ إذ أَسَــرْتُهُ أَثِـبْـني وَلا يَــغْرُرْكَ أَنَّك شاعِرُ(5)

أَنا الفارِسُ الحامي الحَقيقَةَ وَالَّذي لَهُ المَكـرُماتُ وَاللُّــها وَالـمَآثِرُ(6)

وقد يُحرم الأسير الطعام والشراب، فيذوق طعم الموت من شدة الجوع والعطش، فلمّا رأى عبدالله بن عَنَمةَ الضّبي قومه وأهله قد منعوا من الطعام والشراب، وهم في الأسر، قال آسفا لحالهم وقد أصبحو يباعون بالبعران لا يملكون من أمرهم شيئا(7): (الطويل)

---

(1) مُرَّة: هم بنو مُرّة من ذبيان، تردي: تعدو، ابن ظالم: الحارث بن ظالم من غطفان كان فاتكا مثيرا للحرب قتل شرحبيل ولد الأسود بن المنذر فعرض رجالا وأقواما للخسران ولغضب الملك.

(2) النواجي الرواسم: النواجي: النوق، والرواسم: التي تمشي فتترك أثرا، من رسمت الناقة أي أثرت في الأرض والرسم: سير الإبل (ابن منظور: رسم، نجا).

(3) وجزوني مكان القوادم: جزوا ناصيتي.

(4) البرزة، **شعر زيد الخيل**، ق16: 114.

(5) أثبني: من الثواب والمراد هنا الفدية (ابن منظور: ثوب).

(6) اللُّها: جمع لُهْوَة: الأُعْطية (ابن منظور: لها)

(7) أبو عبيدة، **كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق**،ج1: 48. عبدالله بن عنمة الضبي من بكر كان في بني شيبان فأسر يوم طلوح وافتكه متمم بن نويرة (العقد الفريد، ج6: 50).

رَأَيْتُ رِجالاً لــم نَكُنْ لِنَبيعَــهُمْ   يُباعونَ بالبُعْرانِ مَثْنَى ومَوْحَدا(1)

طَعامُهُمُ لَــحْمٌ حَرامٌ عَــلَيْهِمُ   ويُسْقَوْنَ بَعْدَ الرّيّ شِرْباً مُصَرَّدا(2)

وبلغتْ القسوة لدى بعضهم أنْ تركوا الأسير يموت عطشا. مثلما فعل بنو سهم من هُذيل عندما أسروا عَمرو بن عَاصِية، أسره فتيان من بني سَهْم، فطلب منهما حين أخذاه أن يرويانه من الماء ثم ليفعلا به ما بدا لهما فلم يسقياه وتعاوراه بأسيافهما حتى قتلاه. فقالت أخته ريطة بن عَاصِية ترثيه(3): (البسيط)

يـــا لَهْــفَ نَـفْسِيَ لَهْفاً دائماً أبداً   عـلـى ابن عاصيةَ المقتولِ بالوادي

إذ جاء ينفُض عن أصحابه طَـفَلًا   مَشْيَ السَّبَنْتي أمام الأيكة العادي(4)

هلَّا سَـقَيْـتُـمْ بـني سَـــهْمٍ أَسيرَكُمُ   نَـفْسِي فِداؤك من ذِي غُلَّةٍ صادي(5)

الطاعنُ الطَّعْنَةَ النَّــجلاء يَتْــبَعُها   مُـضَـرِّج بـعد ما جـادتْ بـإزْبـادِ(6)

---

(1) يباعون بالبعران مثنى وموحدا: يباعون ويشرون بالبعير والبعيرين.

(2) يقول إذا رَوَوا سَقَوْا أسراهم شِرْباً قليلاً، والشِّرب: النصيب، والمصرّد: القليل (ابن منظور: شرب، صرد).

(3) الأصفهاني، **الاغاني**، ج12: 71-73.

(4) ينفض طفلا: الطفل: الشمس قرب الغروب (ابن منظور: طفل)، السبنتي: النمر (المخصص كتاب السباع).

(5) ذو غلة: ذو ضمأ شديد، صادي: عطشان (ابن منظور: غلل، صدي).

(6) الطعنة النجلاء: الطعنة الواسعة التي لا يرجى لها التئام. جادتْ بإزباد، الإزباد: توهج الدم المتدفق إثر الطعنة. (ابن منظور: نجل، زبد).

وكان بعضهم يعذب الأسير نفسيا بتهديده بالأفاعي ونحوها. وهذا عين ما قام به الجَعْد بن الشَّماخ البُرجُمي(1) عندما أسر مالك بن بكر بن عُلَّفة بن جُداعة أخا بني جُشَم بن معاوية بن بكر ابن هوازن حين قام مالك بغزو بني قيس بن حنظلة من البَرَاجِم، فانهزم وقومه وفَضّ أصحابه. فمكث عامًا لا يفدى، فلما طال ذلك عليه، جعل يأتيه في كل رأس شهر بأفعى، فيقول والله لتُفْدَينَّ أو لأُعِضَنَّها بك.

ومن أصناف التعذيب التي كان يتعرض لها الأسير أن يُجعل داخل جلد بعير أو كبش فالشاعر بشر بن أبي خازم(2) حين وقع أسيرا في يد أوس بن حارثة الطائي ادخله في جلد كبش ثم تركه حتى جفّ عليه، فصار فيه كأنه العصفور، وقد أصبح عرضة للدود والحشرات والرائحة النتنة.

وقد كان بعضهم يتلذذ بتعذيب الأسير بلا رحمة، ففي أحد الأيام خرج وائل بن صُرَيْم اليَشْكُري من اليمامة، فلقيته بنو أسد بن عمرو بن تميم، فأسروه، وجعلوا يغمسونه بالماء في الرَّكيَّة، ويقولون:"أيها الماتحُ دَلْوِي دُونَكا"(3)، حتى قتلوه. وحين أُسِر مَعْبَد بن زُرارة، وقعد أخوه عن فدائه بَعث به آسروه إلى رجل في الطائف كان يعذب الأسرى، فقطّعه إربا إربا حتى مات(4). ومن ذلك ما فعله بنو سلامان عندما أسروا الشّنفرى، فقالوا له: أنشدنا، تهكما به واستهزاء، فقال: إنما النّشيد

---

(1) البغدادي، أبو جعفر محمد بن حبيب ت245هـ، **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء**، ط2، المجموعة السادسة في نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1973، ص129.

(2) بشر بن ابي خازم، **الديوان**، ص24.

(3) ابن عبدربه ،**العقد الفريد**، ج6: 68. الرّكيّة: البئر لم تطو. الماتح: الذي ينزل في البئر إذا قلّ الماء فيملأ الدلو.

(4) الأغاني ج11: 70.

على المسرّة، ثم ضربوا يده فتعرضت، أي اضطربت، فقال الشنفري في ذلك(1): (الرجز)

لا تَبْعَدِي إمّا هَلَكْتِ شامَهْ فرُبَّ وادٍ نَفَّرَتْ حَمَامهْ

ورُبَّ قِرْنٍ فَصَلَتْ عِظَامَهْ

ثم قال له السلامي: أأطرفك؟ ثم رماه في عينه فقال الشنفري له: كأنّا كنا نفعل أي كذلك كنا نفعل وكان الشنفري إذا رمى رجلًا منهم قال له: أأطرفك؟ ثم يرمي عينه. ثم قالوا له حين أرادوا قتله: أين نقبرك؟ فقال(2): (الطويل)

لا تَقْبُروني إنّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْكُم وَلكِنْ أَبْشِرِي أمَّ عامِرِ

ومن أشكال التعذيب والإهانة الجماعية، ما تعرضت له قبيلة الشاعر عَبِيد بن الأبْرَص حين بطش بهم الملك حجر بن الحارث، عندما غزاهم، وأسر جماعة منهم، فضربهم بالعصا إذلالا لهم، وقهرًا لشوكتهم(3).

وأحيانا كان الأسرى يعذبون وينكّل بهم انتقاما وثأرا، فعندما أقدم الحارث بن ظالم على قتل شُرحبيل ولد الأَسْوَد بن المُنْذِر الَّذي كان في بني ذُبْيَان يتعهدونه، فانتقم الأسود من بني ذبيان كلها وسار

(1) الشنفرى، عمرو بن مالك، **الديوان**، ط2، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، 1996م، ق18: 74-75. الشّامة: شامة سوداء كانت في يده.

(2) السابق، **الديوان**، ق10: 48. أم عامر: كنية الضبع.

(3) عبيد ين الأبرص، **الديوان**، ط1، شرح أشرف أحمد عدرة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1994م، ص108 .

إليهم بجيشه، فقتل وأخذ منهم أسرى، فأحمى لهم الصّفا التي بصحراء أضاخٍ وقال لهم: إني أَحذِيكم نعالًا. فأمشاهم على الصَّفا المُحْمى؛ فتساقط لحم أقدامهم. وقد عير جَوْشَنٌ الكِنْدِيُّ، بني محارب بتحريق الأسود أقدامهم، فقال(1): (الطويل)

على عَهْدِ كِسْرى نَعَّلتكم ملـوكُنا صَـفاً من أَضـاخٍ حامـيًا يَتَلهَّبُ

وفي يوم الصَّفْقة، تعرضت قبيلة بني تميم للقتل الجماعي، فضُربت أعناق مئتي أسير من فرسان بني تميم بعدما حُصروا في حصن المُشَقَّر، في البحرين، على يد عامل كسرى فيه، ويدعى المكعبر. وقد قام رجل من بني تميم يدعى عُبَيْد بن وَهْب على سلسة باب الحصن، فقطعها وخرج فقال في ذلك (2): (الطويل)

تَذَكّـرْتُ هِـنْدًا لاتَ حـــينَ تَـذَكُّـرِ تَذَكَّرْتُها ودُونـــها سَـــيْرُ أَشْـــهُرِ

حـجـازيــــةً عُلْـوِيَّةً حــلّ أهـــــلها مصابَ الخريفِ بين زورٍ ومنورِ(3)

ألا هل أتى قـومي على النّأي أنـني حَمـــيتُ ذِمَاري يوم بـاب المُشَقَّر

ضربتُ رِتاجَ الباب بالسَّيف ضربـةً تَفْـــرِجُ منـــها كلَّ بـابٍ مُـضَبَّر(4)

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج11: 77.

(2) الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ت310هـ، ، بيروت: دار الكتب العلمية ط1، 1407. ج1، ص 461.

(3) عالية الحجاز أعلاها بلدا وأشرفها موضعا، وهي بلاد واسعة وإذا نسبوا إليها قيل عُلْوِيّ والأنثى عُلوِيَّة. (معجم البلدان: ج4: 71).

(4) باب مُضَبَّر: أي محكم الإغلاق. (ابن منظور: ضبر).

لقد تَحيَّنَ الأسير الأوقات المناسبة، والأحداث الطارئة، لعلّه ينجو من شقاء العبودية وذلِّ القَيد، فلم يدعْ طريقًا إلا سلكه في سبيل فكاكه، وخلاصه من ضيق الأسر، فعندما وقع الأعشى أسيرا في يد رجل كلبي، وهو لا يعرف بأنه الأعشى، حمله مع باقي الأسرى إلى شُرَيْحُ بنَ السَّمَوْأَلِ بن عَادِيَاء الغسّاني، صاحب تَيْمَاء، بحصنه الذي يقال له الأَبْلَق. فمرّ شُرَيْحُ بالأعشْى فناداه الأعشى مستغيثا مستنجدا، فذهب يذكر عظيم وفاء أبيه في قصته المشهورة مع الشاعر امرئ القيس ويمجِّد صنيعه مستنهضا بذلك همّته، لعله ينقذه من أسره، فقال(1): (البسيط)

شُرَيْحُ لا تَتْـرُكَنِّي بَـــعْدَ مَا عَلِقَتْ ... حِبَـــالَكَ اليَــوْمَ بَــعْدَ الْقِدِّ أظْفَارِي

قَـدْ طُفْـتُ مَا بيْنَ بَانِقْيا إلَى عَدَنٍ ... وَطَالَ فِي الْعُجْمِ تِرْحالِي وَتَسْيَارِي(2)

فَكَـان أُوْفَـاهُمُ عَـهْدًا وأَمْـنَـعَـهُمُ ... جَــارًا أبُــوكَ بِعُــرْفٍ غَـيْـرِ إنْكَارِ

كالْـغَيْثِ مَا اسْتَمْـطَرُوهُ جَادَ وَابِلُهُ ... وَعِـنْدَ ذِمَّــتِهِ الْمُسْـتَـأْسِدُ الضَّارِي

كُـنْ كَالسَّمَوْأَلِ إذْ سَارَ الهُـمَامُ لَهُ ... فــي جَـحْفَـلٍ كَـسَوادِ اللَّيْلِ جَرَّارِ(3)

جَــارُ ابنِ حَيًّا لِمَنْ نَــالَتْهُ ذِمَّــتُهُ ... أَوْفَى وَأَمْنَـــعُ مِـنْ جَــارِ ابْنِ عَمّارِ(4)

بِالأَبْلَقِ الْفَـرْدِ مِــن تَيْـماءَ مَـنْزِلُهُ ... حِـصْنٌ حَــصِينٌ وَجَـارٌ غَيْرُ غَدَّارِ

---

(1) الأعشى، **الديوان**، ق25: 178- 181.

(2) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة. (معجم البلدان، ج1: 331)

(3) الهمام هو الحارث بن أبي شمر الغساني أو هو الحارث بن ظالم على خلاف بين الرواة. (الديوان،179)

(4) حيا: هو أبو السموأل.

إِذ سَــــامَهُ خُطَّتَيْ خَسْفٍ فَقَالَ لَهُ   مَهْـــمَا تَـقُــلْهُ فَـــإِنِّي سَامِعٌ حَارِ(1)

فَقـالَ ثُـكْـلٌ وَغَـدْرٌ أَنْتَ بَيْنَهُما   فَاخْـتَـــرْ وَما فِيـــهِما حَـظٌّ لِمُخْتَارِ

فَـشَـــكَّ غَـيْـرَ قَـليلٍ ثُمَّ قالَ لَهُ   اذبَـــحْ هَـديَّــكَ إِنّــي مَـانِــعٌ جاري

إِنَّ لَـــهُ خَـلَـفـاً إِنْ كُنْتَ قاتِلَهُ   وَإِن قَـتَــلْتَ كَــرِيــماً غَيْــرَ عُوَّارِ

مَالاً كَثِيراً وَعِرْضاً غَيْرَ ذِي دَنَسٍ   وَإِخْــوَةً مِــثْلَهُ لَـــــيْسُوا بِـأَشْــرَارِ

جَـرَوا عَـلى أَدَبٍ مِنّي بِلا نَـزَقٍ   وَلا إِذا شَـمَّــرَتْ حَـــــرْبٌ بِأَغْـمَارِ

وَسَـــوفَ يُعـقِـبُنيهِ إِنْ ظَفِرْتَ بِهِ   رَبٌّ كَـريـمٌ وَبـيـضٌ ذاتُ أَطْـــهَارِ

لا سِــرُّهُـــنَّ لَـــدَيْنا ضائِعٌ مَذِقٌ   وَكــاتِـمـاتٌ إِذا اِستُـودِعْنَ أَسْرَارِي

فَـقَـــالَ تَـقْـدِمَـــةً إِذ قَـامَ يَقْتُلُهُ   أَشْـرِفْ سَمَوْأَلُ فَانْـــظُرْ لِلدَّمِ الجَارِي

أَأَقْـتُـلُ اِبْنَكَ صَبْراً أَوْ تَجِيءُ بِـهَا   طَـوْعـــاً فَـــأَنْـكَـــرَ هَذَا أَيَّ إِنْكَارِ

فَشَكَّ أَوْدَاجَهُ وَالصَّدْرُ فِي مَضَضٍ   عَلَـيْهِ مُنْطَــوِيــاً كَـاللَــذْعِ بِــالنَّارِ

وَاخْــتَـارَ أَدْرَاعَهُ أَنْ لا يُسَبَّ بِهَا   وَلَـــمْ يَــكُـنْ عَــهْـدُهُ فِيـــهَا بِـخَتَّارِ

وَقَـــالَ لا أَشْـتَرِي عَـاراً بِمَكرُمَةٍ   فَاخْـتَارَ مَـــكْرُمَــةَ الـدُّنْيَا عَلى الْعَارِ

---

(1) حار: ترخيم حارث.

وَالـصَّـبْـرُ مِنْهُ قَدِيماً شِيمَةٌ خُلُقٌ   وَزَنْــدُهُ فــي الــوَفَـاءِ الثَّاقِبُ الوَارِي

فلمّا سمعه شُرَيح عرف أنه الأعشى، فقال للكلبي: "هب لي هذا الأسير المضرور."(1) فقال هو لك فأطلقه. ثم طلب شريح من الأعشى أن يقيم عنده ليكرمه ويحسن إليه، ولكنه فضّل الإسراع بمغادرة هذا المكان الذي حمل له الذكريات المؤلمة، فقال له الأعشي: إنّ من تمام صنيعتك أن تعطيني ناقة نجيبة وتخليني الساعة، فأعطاه ناقة فركبها ومضى من ساعته(2).

وكان الأسرى إذا ما صادفوا رجلا كريما، أو سيدا شريفا، سارعوا إلى الاستغاثة به، لعله ينقذهم من الأسر؛ فبينما كان حاتم الطائي خارجا في الشهر الحرام يطلب حاجة، مرّ بأرض قبيلة عنزة فاستغاث به أسير، فقال له: "يا أبا سَفَّانة أكلني الإسار والقمّل. فقال حاتم: ويلك والله ما أنا ببلاد قومي، وما معي شيءٌ، وقد أسأتَ بي إذ نوّهت باسمي، وما لك مترك. فساوم به العنزيين فاشتراه منهم. فقال لهم: خلّوا عنه، وأنا أقيم مكانه في قيده حتى أودي فداءه، ففعلوا، فأتى بفدائه"(3).

ويذكر صاحب كتاب الأغاني خبر استغاثة الجُذامِي بيزيد بن عبدالمَدان عند ابن جفنة، فبينما كان يزيد مرتحلا من ديار الغسّانيين بعد زيارة له عند ابن جفنة، استغاثه رجل من جُذَام، كان في أسر ابن جَفْنَة، فقال الجُذَامِيّ(4):   (المتقارب)

أَمَا مِنْ شَــفِيعٍ من الـزّائرينَ   يُــحِبُّ الثَّــنا زَنْـدُه ثـاقِـبُ(5)

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج6: 234.
(2) **السابق**، ج9: 87-89.
(3) حاتم الطائي، **الديوان**، ص50. وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج17: 280.
(4) الأصفهاني، **الأغاني**، ج12: 12.
(5) زنده ثاقب: كناية عن الكرم وغيره من الصفات الحميدة.

يُــريد ابنُ جَــفْــنَةَ إكْــرامه   وقـــد يـمـسحُ الـضَّرَّةَ الحالِبُ

فــيُــنْقِــذَني مــن أَظـافيرِهِ   وإلّا فـــإنِّــي غـــــدًا ذاهــبُ

فـقـد قلــتُ يومًا على كُرْبةٍ   وفـــي الشَّرْبِ في يَثْرِبٍ غالِب

ألا لَـــيْتَ غَــسَّانَ في مُلْكِها   كـلَخْمٍ وقَــد يُخْطِىءُ الشَّاربُ

ومـــا فــي ابـن جَفْنَةَ من سُبَّةٍ   وقد خَفَّ حِلْمِي بــها العازِبُ(1)

كـأنِّـي غــريــبٌ من الأَبْعَدِينَ   وفــي الحَـلْقِ مِنِّي شَجاً ناشِبُ

فلمّا أراد يزيد الارتحال دخل على ابن جَفْنة ليودّعه فاستوهبه الجُذامي، فوهبه له، فاحتمله يزيد معه، ولم يزل مجاورًا له بنجران في بني الحارث بن كعب(2).

ومن ذلك أيضا أنّ قيس بن عاصم المِنْقَرِيّ أغار على بني مُرَّة بن عَوف بن ذبيان. فأصاب أسرى كان بينهم، رجل من هوازن، يدعى عامرًا، كان مجاورا هو وأخوه في بني مرة، ففدى كل قوم أسيرهم من قيس بن عاصم، إلا الهوازني، لم يجد من يفديه، فاستغاث أخوه وقد عجز عن فدائه بوجوه بني مرَّة، فلم يغيثوه. فركب إلى موسم عكاظ، فأتى منازل مَذْحِج ليلًا فنادى(3): (الطويل)

دعـــوتُ سِنـانـًا وابنَ عوفٍ وحارثًا   وعـــالَيـتُ دَعْوى بالحُصَـيْنِ وهاشِمِ

أُعَـيِّــرُهم فــي كُــلِّ يــومٍ ولـيـلةٍ   بِتَرْكِ أسِـيرٍ عـند قـيسٍ بــن عاصمِ

---

(1) العازب: أعْزَبَ عنه حلمه وعَزَبَ يَعْزُبُ عنه عُزُوبا: ذهب (ابن منظور: لسان العرب).
(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج12: 12.
(3) السابق، ج12: 13.

حَلِيــفِهمُ الأَدْنـــى وجــارِ بيــوتهم ... ومَنْ كــان عــمًّا ســرَّهــم غيرَ نائمِ

فَـصَمُّوا وأحــداثُ الــزَّمانِ كـثيرةٌ ... وكَمْ في بــني الـعَلَّاتِ مِــن مُتَصامِمِ(1)

فيا ليتَ شِعْرِي مَنْ لإطــلاقِ غُـلِّهِ ... وَمَنْ ذا الـذي يَحْظى بـه فـي المَواسِمِ

فأجابه أحدهم قائلا(2): (المتقارب)

أَلا أيُّــهذا الـذي لـــم يُجَبْ ... عــلـيـكَ بحَيٍّ يُجَلِّي الــكُرَبْ

عليــكَ بــذا الحيِّ من مَذْحِجٍ ... فَإنَّــهـمُ للــرِّضــا والـغَـضَبْ

فــنادِ يزيدَ بــنَ عــبدِ المَدانِ ... وقَــيْسَاً وعمرَو بنَ مَـعْدِ يَكرِبْ

يَـفُـكُّــوا أخــــاكَ بــأموالهمْ ... وأَقْـلِـلْ بِـمِـثْـلِـهِمُ في العَربْ

أُولاكَ الـرؤوسُ فــلا تَعْدُهُمْ ... ومَـنْ يجعلُ الرأسَ مــثلَ الذَّنَبْ

وأتى يزيد بن عبدالمدان، فذكر حاجته، وعجزه عن فداء أخيه من الأسر. فتعهّد له يزيد بأن يسعى إلى فكاك أخيه من الأسر وإن كلّفه هذا الأمر قتالهم. فأرسل يزيد إلى قَيس بن عاصمٍ بهذه الأبيات(3): (البسيط)

---

(1) بنو العلّات: بنو أمهات شتى من أب واحد (ابن منظور، علل).

(2) الأصفهاني، **الأغاني** ، ج12: 13.

(3) **السابق**، ج12: 14.

يا قَيْسُ أَرْسِلْ أَسيرًا من بني جُشَمٍ   إنِّي بكلِّ الذي تأتي به جازي

لا تأْمَنِ الدَّهْرَ أنْ تَشْجى بِغُصَّتِه   فاخْتَرْ لنفسِك إحمادِي وإعْزازي

فافْكُكْ أَخا مِنْقَرٍ عنه وقُلْ حَسَنًا   فيما سُئِلتَ وعَقِّبْهُ بإنجازِ

فاعتذر قَيس بن عَاصِم أن الأسير لو كان في يده أو في بني مِنْقَر لأخذه وبعث به، ولكنَّه في يد رجل من بني سعد، وقد غالى في فدائه. فأرسل يزيد إلى السعدي يطلب منه فداء أسيره، فطلب في فدائه مائة ناقة ورعاءها. فأعطاه ما احتكم. فجاوره الأسير وأخوه حتى ماتا عنده بنجران(1).

وبناء على ما تقدم، نجد أن الأسرى تحيّنوا الفرصة للنجاة من الأسر، فكانت إغاثة الأسير من المكرمات التي سعى إليها العربي، حتى تكتمل له معاني السيادة، ومراتب الشرف. وهذه المعاني حاول العربي في العصر الجاهلي إثباتها لنفسه وانعكستْ صورتها في أشعارهم.

كان الفرسان **يأنفون مِن الأسر** فلا يستسلمون بسهولة لآسريهم، بل كان بعضهم يفضل الموت على الوقوع في الأسر ومكابدة آلامه. فرأوا أن الموت أهون على نفوسهم من فقد الحرية، وذل القيد؛ وقد وُجِد أن بعض المحاربين إذا ما انكشفوا وانهزموا وخافوا من الوقوع في الأسر، لجأوا إلى قتل أنفسهم، ليتخلصوا من ألم الأسر ومصيره المجهول. ففي يوم الرَّقَم(2) الذي انتصرت فيه غَطَفَان على بني عامر، وأسروا كثيرا من رجالهم، وانهزم من فرسان بني عامر الحكم بن الطفيل فلما خشي أن يؤسر ويمثّل به جعل في عنقه حبلا، وشده، وصعد إلى شجرة، ودلى نفسه، فاختنق.

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني** ، ج12: 14.

(2) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج6: 26.

فقال عُرْوَةَ بن الوَرْد في ذلك يصف ما حلّ ببني عامر وكيف أنهم يقتلون نفوسهم خوفا من العقوبة والتنكيل(1). (الطويل)

نَحْنُ صَبَحْنا عامرًا إذ تمرَّست عُـلالَة أرماحٍ وضـــربًا مُـذَكَّـــرا(2)

بكــلِّ رُقـــاقِ الشـــفرتين مهندٍ وَلَدْنٍ مـن الخَطيِّ قد طُرَّ أسمرا(3)

عَجِبْتُ لَهُم إذ يخنقون نفوسَهم وَمَـقتَلُهُم تحتَ الـوغى كان أعذَرا

يَشُــدُّ الـحليمُ منهمُ عَقْـدَ حبلهِ ألا إنّـما يــأتي الـــذي كـانَ حُذِّرا

ومن الشعراء الذين لم يقبلوا الخضوع للآسر، قَيْس بن الحِداديّة ، حين صادفته جماعة من قوم مُزَينة، "فقالوا له: استأسرْ، فقال: وما ينفعكم مني إذا استأسرتُ وأنا خليع. والله لو أسرتموني ثم طلبتم بي من قومي عَنزًا جَرْباء جَدْماء ما أُعطِيتموها، فقالوا له: استأسر لا أمّ لك. فقال: نفسي علي أكرم من ذاك، وقاتلهم حتى قتل، وهو يرتجز ويقول(4):

أنـــا الـــذي تَـــخـلَـعُـه مَـواليهْ وكُـلُّهم بـــعـد الصَّفاء قاليهْ

وكُـــلّـــهم يُــقْـــسم لا يبالِيَهْ أنـــا إذا الـــموت ينوب غاليهْ

---

(1) عروة بن الورد، **الديوان**، ص80-82.

(2) تمرست: تعرضت وعالجت ذلك، وعلالة كل شيء من جاء منه بعد ما يمضي أوله يقول طعناهم بعد طعن وهو مأخوذ من العلل والنّهل، والنَّهل الشّرب الأول، والعلل الشرب الثاني (ابن منظور: مرس، علل).

(3) لَدْنٌ: الرمح اللين، وطُرَّ: سُنّ والسَّنُ: التّحديد، الخَط: قرية بالبحرين ينسب إليها الرمح الخَطي (ابن منظور: لدن، طر، سنن، خطط).

(4) الضّامن، حاتم صالح، **عَشَرَة شُعراء مُقِلُّون**، بغداد: جامعة بغداد، 1990م، ص44. وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 102.

مــخــتـلـطٌ أســـفــلـه بـعاليهْ   قـد يـعـلـم الـفتيان أني صاليهْ

إذا الـحـديـد رفــعـتْ عَــواليهْ

مصير الأسرى

كان مصير الأسرى مجهولا، فالأسير مُلْكٌ لآسره، يتحكم به على النحو الذي يشاء، فلما "أَسر ابن بوّ، وهو رجل من تميم، رجلا من طوائف مَذْحِج فجعله عند يَزِيد بن الصَّعِق فأطلقه يزيد، وقال: قد أَفْلَتَ منّي، فقال ابن بَوّ: أردِدْ إليّ أسيري أو هات فداءه"، فقال يزيد(1):   (الطويل)

بإصْرٍ يَـقُـــولَنْ حِـمْيَرِيّ لقومهِ   أو ابن أُبَير أو يقولنَّ عاصمُ

متى عقلت عُليا هوازن مَذْحِجًا   كـأنَّـــا بنو أم إلــيــكِ تـوائمُ(2)

وعلى هذا الأساس كان الآسر يعتبر الأسير مُلْكًا خاصًا به، وله حقّ حرّيّة التّصرف في مصيره وقد أقرّت التقاليد والأعراف العربية في العصر الجاهلي هذا الحق، كما هو واضح في أدب ذلك العصر.

---

(1) ابن قتيبة، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، صححه سالم الكرنوكي، بيروت: دار النهضة، ص 1024- 1025.

(2) حِمْيَرِيّ الذي ذكر رجل من بني رياح، وابن أُبَير تميمي أيضا، وعاصم أبو قيس بن عاصم المِنْقَري، الإصر: العهد الثقيل أقسم به. يقول: بإصر يقولن هؤلاء متى أخذت هوازن بفعل مَذْحِج ثم تعجب فقال: كأنا بنو أم إليك – بمعنى عندك في حكمك، وقوله: يقولن، أراد ليقولن فأضمر اللام. (المعاني الكبير، 1024- 1025).

لقد انتظر الأسير مصيرا مجهولا؛ وقد خضع لاعتبارات مختلفة ومتعددة، بتعدد الظّروف والمناسبات التي أحالته أسيرا. فكان مصير الأسير إما الفِداء، وإما القتل، وإما المنّ عليه وجزّ ناصيته أو يتخذه عبدا له.

كان **فداء الأسرى** مطمعاً كبيراً رغب فيه الكثير من المقاتلين، وعَدّوا الأسرى غنيمة ثمينة، لا يتنازلون عنها إلا عن طيب خاطر منهم، وفداء الأسرى لم تكن له قيمة محددة، وإنما تتفاوت قيمة الفداء حسب مكانة الأسير الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية. "وليستْ في الأَفْدية قواعد معينة في فداء النفس، وإنما سارت على التّعامل، وعلى التّشدد والتّساهل وفق منزلة الأسير"(1). ولذلك نجد أن فداء الأسير إذا كان ملكا أو أميرا قد يصل إلى ألف بعير، وإذا كان سيدا معروفا قد يصل فداؤه إلى أربعمائة بعير، وأما إذا كان الأسير غير ذي مكانة فقد لا يتعدى فداؤه بضع نِيَاق. وقد حرص المقاتلون على أسر الزعماء والقادة والفرسان والسادة، وكذلك الأشخاص المعروفين بمكانتهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السّياسية. لقد كان سادة القبائل وأشرافهم وفرسانهم يحرصون على حضور الأسواق مع التّجار، لينالوا نصيبا وحظا من الهبات والأعطيات، من أجل "أن الملوك كانت ترضخ للأشراف، لكلّ شريفٍ بسهمٍ من الأرباح، فكان شريف كل بلدٍ يحضر سوق بلده، إلاّ عُكاظ فإنّهم كانوا يتوافون بها من كلّ أوبٍ ولا يوافيها شريف إلا وعلى وجهه بُرْقُع، مخافة أن يؤسَر يومًا، فَيَكْبُر فِداؤه، فكان أوّل مَن كَشَف القناع طَرِيْف العَنْبَرِي لما رآهم ينظرون في وجهه ويَتفرّسون في شمائله، فقال: قَبّح مَنْ وطّن نفسه إلا على شرفه، ورمى بالقناع وحَسر عن

---

(1) علي، جواد، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط2، بغداد: جامعة بغداد، 1993م، ج5: 573.

وجهه"(1). وقال في ذلك: (الكامل)

أو كــــلّما وَرَدَتْ عُـكَــاظَ قـبيلةٌ بـعــثـوا إليَّ عــريــفَـهم يـتـوسّمُ

وفي هذا المعنى يؤكد يزيد بن الصَّعِق أنه يسعى جاهداُ إلى أسر الفرسان من أصحاب النعم والأبل الكثيرة التي سيدفعونها فدية له(2): (الطويل)

أُسـَاور بَيْــضَ الـدّارعينَ وأبتغي عقالَ المئين في الصباحِ وفي الدَّهم(3)

وفي يوم السُّلَّان نجد أن يزيد بن عمرو بن خويلد الصَّعِق ألحّ على وَبْرَة الكَلْبيّ أخي النعمان بن المنذر لأمه، حتى تمكّن من أسره، ثم افتدى وبرة الكَلْبيّ نفسه فداء الملوك، بألف بعير وفرس من يزيد بن الصَّعِق(4).

لقد كان المقاتل يوجه أكبر همّه لأسر ذوي السيادة من الأعداء، حرصا منه على تحقيق فدية كبيرة يحقق بها ثراء سريعا ومالا وفيرا، فلما عجز أبو براء عامر بن مالك عن أسر ضرار بن عمرو الضبّي، "قال له: لتموتن أو لأموتن دونك فأحلني على رجل له فداء. فأومأ ضرار إلى حُبَيش بن

---

(1) المرزوقي، أحمد بن محمد بن الحسن، **الأزمنة والأمكنة**، ط1، ضبطه خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م، ص386.

(2) ابن قتيبة، **المعاني الكبير**، ص 1027. البيضة: غطاء الرأس في الحرب.

(3) أساور بيض الدارعين أي آخذُ برؤوس الفرسان وأعانق، أبتغي عقالَ المئين: أي الفرسان الذين فداؤهم مائة، وأصله أن يقال: فلان قَيد مائة أي إذا أُسِر فمِائته مُقيّدة عند صاحبه، والدُّهم: العدد الكبير من الرجال (ابن منظور: عقل، دهم).

(4) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 507. ويزيد بن عمرو بن خويلد وخويلد يقال له الصَّعِق، سمي بهذا الاسم لأنه عمل طعاما لقومه بعكاظ فجاءت ريحٌ بغبار فسبّها ولعنها، فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته.

دُلَف، وكان سيدًا في قومه، فحمل عليه أبو براء فأسره، وكان حبيش أسودا نحيفًا دميمًا، فلما رآه كذلك ظنه عبدًا وأن ضرارًا خدعه، فقال: أنا لله، ألا في الشؤم وقعت، فلما سمعها حبيش منه خاف أن يقتله، فقال: أيها الرجل إن كنت تريد اللبن، يعني الإبل، فقد أصبته. فافتدى نفسه بأربعمائة بعير"(1).

لقد كان فداء الأسرى والقيمة المنتظرة لفدية الأسير أهمية خطيرة بالنّسبة إلى أفراد القبيلة الواحدة أو الفريق الواحد؛ لِما تُوجده من تناحر وتخاصم وتنافس شديد بين أفرادها على أسر أشخاص بعينهم وبخاصة إذا كانوا من ذوي السيادة والشرف، ممن ارتفعت قيمة فدائهم، ويدفع مقابل فكّ أسرهم الغالي والنفيس. ففي يوم شِعب جَبَلَة(2) أُسِر حاجب بن زرارة، وقد كان هنالك تنافس شديد على أَسْرِهِ بين كلٍّ مِن الزَّهْدَمين -- زَهْدَم وقيس ابني حَزْن بن وَهْب بن عُوَيمر بن رواحة العبسّيين-- ومَالِك ذي الرُّقَيبة بن العَامِريّ قد تنازعا في أحقّيّة كل منهما في الأسير فلجأوا إلى قَيس بن زُهير بن جُذيمة، ثم إنّهم حكّموا حاجبا نفسه في هذا الأمر، فَحَكَمَ لِمَالك بألف ناقةٍ، وللزَّهْدَمين مائة. وقد كان لحادثة الأسْرِ هذه أثرٌ سلبيٌّ على العلاقة بين أبناء القبيلة الواحدة، فقد أصبح بين قَيْس بن زُهير وبين الزَّهْدَمِين مُخَاصَمَة بعد ذلك؛ فقال قيس(3): (الوافر)

جَـزاني الــزَّهْدمان جـزاءَ سَوْءٍ وكـنــتُ الــمرءَ يُـجْـزى بالكَرامةْ

وقـد دافعــتُ قــد عَلِمتْ مَعَدٌّ بــنـي قُـرْطٍ وعَــمَّـهمُ قُـدامةْ

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج1: 506- 507.

(2) الأصفهاني، **الأغاني، ج11، 104- 105.**

(3) **السابق**، ج11: 105.

رَكِبتُ بهم طريقَ الحقِّ حَتَّى أَثـبِّـتُـهم بـها مـائةً ظُـلامهْ

وفي يوم زَرُود أُسِر حُزِيمةُ بن طارق، أسره أُنَيْف بن جَبَلَة الضَّبّي، فتنازعا فيه، فحَكما بينهما الحارث بن قُراد، فحكم بناصية حَزِيمة لأنيف، على أنّ لأسيد على أنيف مائةً من الإبل فرضيا بذلك. وقال أُنَيْف(1): (الطويل)

أخذتُك قَسرًا يا خُزَيمَ بنَ طارقٍ ولاقـيتَ منِّي الموتَ يوم زَرُود

وعانَقْتُه والخـيلُ تَدْمَى نُحُورُها فـأنزلـتُه بالقاعِ غـيرَ حَـميد

لقد كان للفدية أهمية كبيرة في تحديد مصير الأسير، بل إنها قد تكون الفيصل في عاقبة هذا الأسير، فإذا ما طمع الآسرُ بالمال، ورغب بالفدية كان شديد الحرص على سلامة أسيره، فلقد حرص الآسر على أسيره، وأحاطه بعنايته ورعايته، ووفر له أسباب الحماية، إذ خشي عليه القتل وخاصة إذا كان من سادة القوم، الذين يفدون بالمال الكثير. ولم يقبل لهذا الأسير أن يؤخذ فيُقْتَل وإن كان قد قَتَل بعضًا من رجال القبيلة، أو كان لأحدٍ من أفراد القبيلة ثأر عنده. ففي يوم الغبيط وقع بِسْطام بن قيس الشيباني أسيرا في يد عتيبة بن الحارث اليربوعي، وقد كان بِسْطام قتل بعضا من رجال بني ثعلبة، فرغب بنو ثعلبة بقتل بِسْطام ثأرًا لقتلاهم، فأبى عليهم. فخشي عتيبة على أسيره من القتل فقرر أن يرتحل به إلى مكان أكثر أمنًا ، فسار بأهله وأسيره إلى بني عامر بن صعصعة . فقال مالك بن نويرة في ذلك(2): (الطويل)

---

(1) ابن عبدربه، **العقد الفريد**، ج6: 49.

(2) السابق، ج1: 475.

لله عتّــابُ بن مـــيّة إذا رأى إلى ثأرنا فـــي كَـفِّه يَـتَـلدَّدُ

أتُحيي امرءًا أردى بجيرًا ومالكًا وأتوى حريثًا بعدما كان يقصدُ

ونحن ثأرنا قبل ذاك ابن أمّه غداة الكِلابيّين والـجمع يَـشْهَدُ

وقد تكون الفدية من جهة أخرى وسيلة ناجعة استغلها الأسير لعلها تكون من أسباب نجاته من الموت، وخلاصه من قيد الأسر؛ فمثلما كان الآسر حريصا على حياة أسيره، فإن الأسير كان أشد حرصا على نفسه من القتل، ففي خبر أَسْر بِسْطام السابق نجده أدرك شدَّة حرص عتيبة عليه، وإنّه لن يطلقه إلا بمال وفير، فأراد أن يغريه بالمال ليخلّص نفسه من القتل، فبينما هم في الطريق إلى بيت عمرو بن جُنْدُب، قال بِسْطام وقد رأى مركب أم عتيبة: "يا عتيبة هذا رَحْل أمك؟ قال: نعم. قال: ما رأيتُ رَحْل أم سيدٍ قط مثل هذا. فقال عتيبة: واللات والعزى لا أُطْلِقُكَ حتى تأتيني أمك بهودجها، وكان كبيرًا ذا ثمن كثيرٍ، وهذا الذي أراد بِسْطام ليرغب فيه فلا يقتله. فأرسل بِسْطام فأحضر هودج أمه"(1) فكانت قيمة فداء بِسْطام لنفسه أربعمائة بعير، وهودج أمه وحَدجها(2) وخلص من الأسر(3).

وسجل البراء بن قيس الكندي، أنه دفع المئات من الأبل في سبيل فكاكه من الأسر، عندما وقع

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج1: 476.

(2) حدج: الحِدْجُ مَرْكَبٌ ليس بِرَحْلٍ ولا هَوْدَجٍ، تركبه نساءُ الأَعراب. قال الأَزهري: الحِدْجُ، بكسر الحاء مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمِحَفَّة؛ ومنه البيت السائر:

شَرَّ يَوْمَيْها وأَغْواهُ لَهَا رَكِبَتْ عَنْزٌ بِحِدْجٍ جَمَلا. (ابن منظور: حدج)

(3) السابق، ج1، 475.

أسيرا في يد تميم في يوم الكُلاب الثاني، فقال في ذلك(1): (الخفيف)

لَقِيَتْنا أسودُ سَعدٍ وسعدٌ ... خُلِقتْ في الحروب سَوْط عذابِ

تركوني مُسهَّدًا في وَثاق ... أرقبُ النَّجم ما أُسيغُ شرابي

خائفًا للردى ولولا دفاعي ... بمئينٍ عن مهجتي كالهضبابِ

لسُقيتُ الرّدى وكنتُ كقومي ... في ضريح مغيَّبًا في الترابِ

تذرفُ الدَّمعَ بالعويلِ نسائي ... كنساءٍ بكتْ قتيلَ الرِّبابِ

والفدية حقّ للآسر لا يتنازل عنها إلا عن طيب نفس منه، ولذلك حرص الآسرون على حقهم بالفدية، فيبقون الأسرى في الوثاق حتى يأخذوا الفدية المتفق عليها كاملة دون نقصان فلما أسر بنو سعد هَوذَة بن علي، فادى هوذة نفسه منهم بثلاثمائة بعير، إلا أنهم لم يفكّوا وثاقه وجعلوا القيود في يديه والأغلال في عنقه، وساروا معه إلى هَجَرَ، ولم يطلقوه إلا وقد أخذوا منه فداءه، وفي ذلك يقول شاعر بني سعد(2): (الطويل)

ومِنَّا رئيسُ القَوْمِ ليلةَ أَدلَجُوا ... بِهَوْذَةَ مقرونَ اليدين إلى النَّحْرِ

ورَدْنا به نَخْلَ اليمامةِ عانِيًا ... عليه وَثاقُ القِدِّ والحَلَقِ السُّمْرِ

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج16: 232.

(2) السابق، ج17: 229.

المَنُّ على الأسرى بإطلاق سراحهم دون فداء مفخرة عظيم صاحبها، ونعمة مشكور فاعلها، فعظّم العرب شأن صانعها، وشهدوا له بسموّ فعاله، ونبل أخلاقه، ولقد فضلّ بعضهم المنّ على الأسير وجزّ ناصيته، على الفدية وإن بلغتْ الفدية قيمة كبيرة. ففي يومُ خَوٍّ(1) أغار عمرُو بن كُلْثُومٍ، في جَمْعٍ من بني تَغْلِبَ، على بني ذُبْيَانَ، فكان بينهم قتال شديد، ثم إنّ بني ذُبيان انهَزَمتْ، وأَصابوا أَسْرى، ونَعَمًا كثيرًا وسَبَايَا، وكان من بين الأسرى حذيفة بن بدر، وهو من سادات مُضَر أسره عمرُو بن كُلْثُومٍ ، فأشار بنو تغلب بقتل حُذيفة فأَبَى عَمْرٌو، وأضمر في نفسه إطلاقه دون فداء فعرض حُذيفة أن يُفدى بألف ناقة حمراء سوداء المُقْلَة، إلا أن عمروا فضّل المنَّ على أسيره ليحقق له الشهرة والسمعة والذكر الحسن، فتكون له من المفاخر المحمودة المعدودة بين القبائل العربية فقال عَمْرٌو: "أَنتَ سَيّدٌ من ساداتِ مُضَرَ، وأَنا أُحِبُّ الاصطناعَ إلى مِثْلِك فأَطْلَقَه، وجَزَّ نَاصِيَتَهُ ورَدَّهُ إلى قَوْمه"،(2) وقال عمرٌو يفخر بصنيعه هذا(3): (الوافر)

أَلَـمْ تَــرَ أَنّني رَجُلٌ صبورٌ إذا ما المَرْءُ لم يَهْمُمْ بـصَبْرِ

وأَنّي بالـذَّنــائِبِ يَــوْمَ خَوٍّ مَننْتُ على حُذَيفَةَ بَـعْدَ أَسْرِ

ولَوْ غَيْرِي يَجِيءُ بـه أَسيرًا لَـنَالَ بــهِ رَغيـبــةَ ذُخْرِ دَهْرِ

ولكنّي مَـنَـنْتُ وكــان أَهْلًا لِما أَوْلَيْتُ في حَـمَل بــن بَدْرِ

---

(1) الشِّمْشَاطي، أبو الحسن علي بن محمد بن المهر العدوي، **الأنوار ومحاسن الاشعار**، تحقيق السيد محمد يوسف، الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ج1: 157.

(2) السابق، ج1: 157.

(3) السابق،ج1: 157.

ولم يكفر حذيفة هذه المكرمة التي منّ بها عمرو عليه، وطوّق بها عنقه ، فقال يشكرُ صنيع عَمرَو ابن كُلْثومٍ(1): (البسيط)

إنّي لـمُثْنٍ وإنْ كـانَتْ عَـشـيرتُهُ   خُزْرَ العُيُونِ عَلى عَمْرِو بنِ كُلْثُومِ

المُطْلِقِ الغُلَّ عَنِّي بَعْدَ ما شَنَجَتْ   كَفِّي وما ذَاكَ مِـنْ عَمْرٍو بمَكْتُومِ

إذْ قَامَ مِـن جُـشَـمٍ عُزْلٌ تُناشِدُهُ   قَـتْـلِي وتَـأْمُـرُهُ بالـذّمِّ والـلُّومِ

فاخْتَارَ مِنَّتَه عِـنْدِي وقـال لَهُمْ   كُـفُّوا فَـمَا مَنْ رَجَا عَفْوِي بمَحْرُومِ

أَمْـسَى حُـذيفةُ مَوْسُومًا وأُسْرَتُه   بالشُّكْرِ ما اسْتنَّ آلٌ في الدَّيَامِيمِ(2)

إنْ يَشْكُرُوكَ فإنَّ الشُّكْرَ مَكْرُمَةٌ   أَوْ يَـكْـفُرُوك فـما شُكرِي بمَذْمُومِ

وكان للكلمة دورها الكبير في المَنّ على الأسرى، وللشعر سحره المعهود في النفوس، فرُبّ كلمة أنقذت قائلها من شر القتل، وبيت شِعر فكّ صاحبه من ذلّ الأسر، ففي يَومِ وَادِي الأَخْرَمَينِ لبني تَغلِبَ على صُدَاء، وهي جُمْجُمةُ مَذْحِجِ، أُسِر عبدالله بن سُوَيْدٍ الصُّدَائِيّ، وكان قد قَتَلَ يومئذٍ بعضا من رجال بني تغْلِبَ، فأَخذه عَمْرٌو بن كُلثوم ليَقْتُله، فقال عبدالله مستغيثا راجيا العفو والمنّ من سيد تغلب وفارسها(3): (البسيط)

---

(1) الشِّمْشَاطي، **الأنوار ومحاسن الاشعار**، ج1: 158.

(2) الدَّياميم: الفلاة الواسعة.

(3) **السابق**، ج1: 164.

إنّ الأَرَاقِـمَ لـنْ تَـنْـفـكَّ صَالحةً   مُـبَـرَّئـينَ مـن الـفـحْشاءِ واللُّومِ

ما دَافـع اللهُ عـن عُـمَرٍو مَنِيَّتَه   فـاخْـتَـرْ فِدًى لك بَيْن المَنِّ والكُومِ(1)

فخضع عمرو لسلطان الشعر وسحر الكلمة، فقال له: "اشْترِ نفْسَك. فأَعْطاهُ حتَّى رَضِيَ، فقال عَمْرٌو: لكَ مِن مالي ما عَرَضْت، ولك نَفْسُك. فمَنَّ عليه، وحَمَله وكَسَاهُ"(2).

والمَنُّ على الأسير قد يكون عطفا لحاله أو شفقة على والدته، ففي يوم زُبَالة أخذ بنو شيبان مجموعة من الأسرى، وكان من بينهم فتى من يربوع، فأنشد أبياتا من الشعر، يصف فيها لوعة والدته، وحزنها العميق، وجزعها الشديد عليه، إذ طالت غيبته وانقطعت أخباره، ولكنه يعزي نفسه بأنه سقط في يد بِسْطام بن قيس الشّيبانيّ. الفارس المقدام الكريم السمح، فقال في إحدى الليالي(3):   (الكامل)

فـدىً بـوالـدةٍ عليَّ شـفيقة   فكأنـها حَـرَضٌ علـى الأسْـقام

لو أنها علمت فيسكن جَأْشُـها   أني سـقطتُ على الفتى المِنْعَام

أن الـذي ترجيـن ثَمّ إيـابَـه   سقط الـعَشَاء به علـى بِـسْطَام

سقط العَشَاء بـه علـى مُتَنَعّم   سَمْـحَ الـيدين مُـعَاوِدِ الإقْـدَام(4)

---

(1) الكوم: جمع كوماء وهي النّاقة (ابن منظور: كوم).
(2) الشِّمْشَاطي، **الأنوار ومحاسن الاشعار** ، ج1: 165.
(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 476.
(4) يقال: سقط العشاء به على سرحان: يضرب للرجل يطلب الأمر التافه فيقع في هلكة وأصله أنّ دابّة طلبت العشاء فهجمت على أسد (ابن منظور: سقط).

فسمعه بِسْطام بن قيس فرقّ لحاله وطابت نفسه، فقال له: "وأبيك لا يخبر أمك عنك غيرك وأطلقه."(1) وقال ابن رُمَيْض العَنْزِيّ(2): (البسيط)

جَاءتْ هَدَايا مِنَ الرَّحْمَنِ مُرْسَلَةٌ حَتَّى أُنِيْخَتْ لَدى أَبْيَاتِ بِسْطَامِ

جَيْشُ الْهُذَيْلِ وَجَيْشُ الأَقْرَعِين معًا وكُـبّةُ الْخَـيْلِ والأَزْوادِ فِي عَامِ

مُـسَـوِّمٌ خَـيْـلَهُ تَـعْدُو مَـقَانِبُهُ علـى الذَّوَائـبِ مِـنْ أَوْلادِ هَـمَّامِ

ولم يكن الانتقام ممن أساء لسيد أو فارس يقف حائلا دون إطلاق سراحهم، فعندما بلغ ابن شهاب التغلبي مقالة حَمَل بن بَدْر الفَزَارِيّ، التي حطّ بها من شأنه "وتكلم فيه بكل قبيح"(3) وعيّره أنه لا يستطيع غزو فَزارة، فجمع الأخنس بني تغلب وسار بهم إلى بني فزارة، فكان بينهم يَومُ الشَّرَبَّة وانهزمتْ بنو فزارة، وأخذ الأَخْنَسُ الأَسَارَى والنِّسَاءَ، فكان من بين الأسرى يَزيد بن بَدر الفزاريّ وهو من سادة فَزارة، وأخو حَمَل بن بَدر، فأرسل بنو فَزارة الوفود إلى الأخنس ليفادوا يزيد، وبذلوا في فدائه ألف بعير، فلم يقبل الأَخْنَس أن يفاديه، فقال: "ما الّذِي بذَلْتم في صاحِبكم بأَغْنَى من ذُبَابِ خَيْلِكم، فواللهِ لا يَكُون أَمْرِي فيكم أَمَمًا"(4). فأيقن الوفد بهلاك صاحبهم فأصابهم الحزن الشديد "وقالوا: كَبَا بِك جَدُّ قَوْمِك يا يَزيدُ"(5) ثم دعا الأخنس بيزيد، فأراد أن تكون له نعمة

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج1: 476.

(2) **السابق**، ج1: 476- 477. الأقرعان: الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميان، كبة الخيل: جماعة الخيل، مقانبه: جماعة الفرسان،

(3) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 170.

(4) **السابق**، ج1: 170. أمما: أي الشيء اليسير.

(5) **السابق**، ج1: 170.

عليه تشكر ولا تكفر، فمنّ عليه بفكّ أسره، وأحسن إليه وأكرمه. فقالَ الأَخْنَسُ في ذلِك يبين كرمه وحسن صنيعه بفك أسر يزيد دون أخذ فدية منه(1): (الوافر)

أَلَــمْ تَــرَني مَـنَـنْـتُ على يَزِيدٍ ... ولـــمْ أُشْـمِتْ به حَمَلَ بْنَ بَدْرِ

رَفَـــعْتُ بـهِ ذِمـَامَ أَبي شِهَابٍ ... ولـــمْ يَـــكُ أَسْـرُهُ عِـنْدِي بأَسْرِ

ولَـوْ أَنِّـــي أَشـــاءُ لَبَاتَ نُصْبًا ... يُــقَـــلِّبُ أَمْــرَهُ بَـطْنًا لِظَهْرِ

ولَـــــوْ أَنّـي أَشَـاءُ لَـسَاقَ أَلْفًا ... كهَضْبِ الطَّوْدِ مِن سُودٍ وحُمْرِ

ولـكِنّي حَـفِـــظْتُ بَنِي أَبِيه ... بـــنـعـمـة فَـــكِّه لبـــقاء دهر

وكـــان يـــزيد خـير بني أبيه ... سِـــوَى حَــمَــلٍ وفـيه كُلُّ نَذْرِ

فَـــرَاكَـضَنى وطَاعَنَني يَـزِيدٌ ... فـــرَدَّ الـــخَــيْلَ كـاللَّيْثِ الهِزَبْرِ

ولـــو غَــيْــرِي يُـنَازِلُه يَزِيَدٌ ... لأَقْـعَــصَــهُ بــنَـابٍ أَوْ بـظُفْرِ(2)

وصَدق ظنّ الأخنس، فلم يكفر يزيد هذه النعمة العظيمة، والمكرمة الجليلة، وقال شاكرا للأخنس هذا الجميل الذي لا ينسى(3): (الطويل)

جَـــزَى اللهُ عَــنّي والجَزَاءُ بكَفِّه ... أَبا الغَمْر أَعْنِى الأَخْنَسَ بنَ شِهَاب

---

(1) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 171- 172.

(2) القعص: الموت المعجل (ابن منظور: قعص).

(3) **السابق**، ج1: 172- 173.

تَدَارَكَنى مِـنْ بَــعْدِ بُؤْسٍ بنعْمَةٍ وكُـنْتُ أَسِـيـرًا فـي جَـنَاحِ عُقَاب

وقد عَرَضَــتْ ذُبْـيَانُ أَلفًا كأَنّها هِضَابُ أَجَا تَـرْعَى بـأَرْضِ رِبَابِ

فقالَ لهم رُدُّوا القِلاَصَ فما الَّذِي بـذلـتُم بأَغْـنَى مِـن جَـنَاحِ ذُبَابِ

ولـمَّا رَأَتْ ذُبْـيانُ ما قالَ أَخْنَسٌ تَـعـزَّوْا وقــالـوا جَدُّ قَوْمِكَ كَابِ(1)

فأَطْلَقَني من بَـعْدِ ما ظَنَّ قَوْمُه وقَـوْمِيَ ظَـنًّا لـم يَـكُنْ بصَوَابِ

ولمْ يَبْلُغ الحَـمْدَ الطَّوِيـلَ بَـقاؤُهُ بـبَكْـر قَـعُـودٍ فـي القِـرَى وبِـنَابِ

لقد كان المنّ على الأسير وجزّ ناصيته من أسباب الفخر التي سعى لها العربي، بل إنه كان ينادي على أسيره يخبره أنه سيحسن معاملته، وهو خيرٌ له من غيره؛ فإذا ما أسره مقاتل أخر قد يكون مصيره القتل، ففي يوم ذي قار أدرك أسود بن بُجَير بن عائذ بن شُرِيك العجْلي النُّعمان بن زرعةَ، فقال له: "يا نعمان، هلمَّ إليَّ، فأنا خير آسرٍ لك، وخير لك من العطش. قال: ومَنْ أنتَ؟ قال: الأسود بن بجير، فوضع يدَهُ في يدِه، فجزّ ناصيتَه، وخلّى سبيله،"(2) وأحب الاصطناع إليه فأعطاه فرسه "وقال له: انجُ على هذه، فإنَّها أجودُ من فَرَسك"(3).

وقد يشفع للأسير مكرمة أسداها، أو موقف أغاث به صاحب حاجة، فقد ذُكر أن دُرَيْد بن الصِّمَّة عندما أدرك ربيعة بن مُكَدَّم حامي الظّعينة، خلّى سبيله، وأعطاه رمحه وتركه ينجو مع ظعينته

---

(1) كاب: السقوط للوجه (ابن منظور: كبا).
(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج24: 43.
(3) **السابق**، ج24: 43.

وثبّط القوم عن طلبه، وقال دُرَيْد في ذلك(1): (الكامل)

ما إنْ رأيْتُ ولا سَمِعْتُ بِمِثْلِه حَامِي الظَّعِينةِ فـارِسًا لم يُقْتَلِ

أَرْدَى فوارِسَ لم يكونوا نُهْزَةً ثـم اسْــتَــمــرّ كـأنَّه لم يَفْعَلِ(2)

فلما أغار بنو مالك بن كنانة رهط ربيعة بن مكدم على بني جشم رهط دُرَيْد فقتلوا وأسروا وغنموا وأسروا دُرَيْد بن الصمة، وهم لا يعرفونه، أسره رجل يدعى المُخارق، فحبسوه عندهم، فعرفته امرأة ربيعة رَيطة بنت جِذل الطّعان، فقالت "هلكتم وأهلكتم ماذا جر علينا قومنا، هذا والله الذي أعطى ربيعة رمحه يوم الظعينة، ثم ألقت عليه ثوبها، وقالت: يا آل فراس أنا جارة له منكم هذا صاحبنا يوم الوادي"(3). فحبسه القوم، فقالت المرأة في ذلك(4): (الطويل)

سنجزي دريداً عن ربيعة نعمةً وكل فتى يُجزَى بما كان قَدِّما

فإن كان خيرًا كان خيرًا جزاؤه وإن كان شرًا كان شرًا مذمَّما

سنجزيه نُعمى لم تكن بصغيرة بإعطائه الرمح السديد المقوّما

فقد أدركتْ كفَّاه فينا جزاءه وأهلٌ بأن يجزَى الذي كان أنعما

فلا تكفروه حقّ نُعماه فيكمُ ولا تركبوا تلك التي تملأ الفما

فلو كان حيًا لم يضق بثوابه ذراعًا غنيًا كان أو كان معدِما

---

(1) دريد بن الصّمة، **الديوان**، ق49: 151.

(2) نهزة: فرصة، يعني لا يتمكن منهم عدوهم إذ لا يلمس منهم غفلة (ابن منظور: نهز).

(3) الأصفهاني، **الأغاني**، ج16: 47.

(4) **السابق**، ج16: 48.

ففُكُّوا دريدًا من إسار مُخارق   ولا تجعلوا البؤسَى إلى الشَّر سلَّما

فتشاور القوم في أمره، وطلبوا من المخارق فك أسره، ففعل فمنّوا عليه وأطلقوا سراحه، شكرا لصنيعه، وعرفانا لجميله(1).

ولم تكن قسوة الهجاء وشدة العداء تحول بين الآسر والمنّ على أسيره، ولا سيما إذا كان الأسير سيدا شريفا أو شاعرا مجيدا فعندما نفر الأعشى عامرا بن الطفيل وفضّله على ابن عمه علقمة بن علاثة، في المنافرة المشهورة بينهما، هدر علقمة دمه، وتوعده بالقتل، فجعل يتهدد الأعشى، ولكن الأعشى تمادى في غيّه فأكثر من هجاء علقمة، وحطّ من قدره، فقال الأعشى مستخفّا بتهديده هازئا من وعيده(2): (الطويل)

أتَاني وَعِيدُ الحُوص مِنْ آل جعفرٍ   فَيَا عَبْدَ عَمْرٍو لَوْ نَهَيْتَ الأحَاوِصَا

كِــلاَ أَبَـوْيُـكم كَـان فَرْعًا دِعَامَةً   ولَـكِنَّـهُـمْ زَادُوا وأَصْـبَـحْـتَ نَاقِصَا

تَبِيتُونَ في المَشْتَى مِـلَاءً بُطُونُكُم   وَجـاراتُـكُـمْ غَـرْثَـى يَبِتْنَ خَمَائِصَا

وتدور الدوائر على الأعشى فيقع أسيرا في رهط علقمة، فبينا كان الأعشى في إحدى أسفاره، أخطأ به دليله ذات ليلة فأصبح في ديار علقمة، وخرج فتيان الحي فقبضوا على الأعشى فأتوا به

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج16: 47- 48.

(2) الأعشى، **الديوان**، ق19: 149.

علقمة، فلما مَثَلَ بين يديه قال علقمة: "الحمد لله الذي أظفرني بك بغير عقد ولا ذمة،"(1) فأدرك الأعشى أنه هالك لا محالة، ولكن تعلقه بأسباب الحياة وحبل النجاة لم ينقطع، فالرجاء مشروع لقائله، والمنّ مشكور لفاعله، فقال الأعشى: "أو تدري لِمَ ذاك جعلت فداك؟ قال: لتقولك عليّ الباطل من غير جُرم، قال: لا ولكن ليبلو الله قدر حلمك فيّ فأطرق علقمة"(2) فقال الأعشى خاضعا معتذرا إليه(3): (المتقارب)

أعَـلْـقَـمُ قَـدْ صَّيَّرَتْنِي الْأُمُورْ　　إلــيــكَ وَمَـا كَان لِي مَنْكَصُ

كَــسَـاكُـمْ عُــلَاثَـةُ أَثْـوَابَهُ　　وَوَرَّثَـكُـمْ مَـجْــدَهُ الْأَحْوَصُ

وَكُــلُّ أُنَــاسٍ وَإنْ أَفْــحَلُوا　　إذَا عَـايَـنُو فَـحْلَكُمْ بَصْبَصُوا

وإنْ فَحَصَ الـنَّــاسُ عَنْ سَيِّدٍ　　فَسَيِّــدُكُـمْ عَــنْهُ لا يُفْحَصُ

فَهَلْ تُنْكَرُ الشَّمْسُ فِي ضَوْئِهَا　　أو الْـقَـمَرُ الْبَاهِــرُ الْمُبرِصُ

فهَبْ لي ذُنُوبي فَدَتْكَ النُّفُوسْ　　وَلا زِلْــتَ تَـنْـمِي ولا تَنْقُصُ

---

(1) التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، **البصائر والذخائر**،ط1، تحقيق وداد القاضي، بيروت: دار صادر ج6: 131- 132.

(2) **السابق**، ج6: 132.

(3) الأعشى، **الديوان**، ق81: 368- 369.

فعفا عنه ومَنَّ عليه بفكّ أسره فكان وَفيًّا لعلقمة بعد ذلك، وظل يمدحه، ومن ذلك قوله فيه(1):

عَلْـقَمَ يا خَيْرَ بني عامرِ   للضّيف والصاحِبِ والزائـرِ   (السريع)

والضَّاحك السِّنِّ على هَمِّهِ   والـغافـرِ العَـثْرَةَ للـعاثِرِ

وهكذا نرى أنّ كرم علقمة بإطلاقه سراح الأعشى كان له دور كبير في تحوله من الهجاء والوعيد إلى الرجاء والمديح، فعندما أصبح ذليلًا أسيرا في يدي علقمة، راح يعتذر منه، مقرّا بذنبه وطالبا عفوه، فهو وارث المجد أبًا عن جدّ، وإنه كريم جواد يصغر أمامه كل فحل، وأنه سيّد قد خلا من العيوب، إذا ما كشف القوم عيوبَ سادتهم، ولا عجب في ذلك، فالشمس لا يُنكر ضوؤها ولا القمر نوره.

لقد منّ علقمة على أسيره الأعشى وما ذلك بالأمر اليسير، بل إننا نستطيع القول إن إطلاق الأعشى وفك أسره، يحمل بعدا سياسيا محضًا في الصراع الذي كان دائرا حول زعامة بني عامر بن صعصة، وإنَّما أراد علقمة أن تكون له دعاية بأحقيته في الزعامة، وبيان فضله عند القدرة فيشيع خبره بين القبائل، ويكون جزاؤه الشكر والمدح والثناء، وما من وسيلة إلى ذلك أنجع من الإحسان إلى شاعر مشهورٍ مقاله، مرهوبٍ عَدَاؤه، فقد كانت المنافسة على رئاسة القبيلة شديدة بين السادة، فكانوا يتفاخرون بمزاياهم كلها، من الكرم والشجاعة والنجدة وحماية الجار، وإغاثة الملهوف، والمنّ على الأسرى، فأراد أن يثبت للأعشى خطأ انحيازه ودعمه لعامر بن الطفيل، وأن يستميله إلى صفه ويكسب وده في سعيه إلى السلطة. ومما يعزز هذا الرأي أنه قال له حين أطلق

---

(1) ابن قتيبة، **الشعر والشعراء**، ط1، تحقيق محمد أحمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، ج1: 261.

سراحه: "والله لو قلت فيّ ما قلت في عامر ابن عمي لأغنيتك حياتك، ولو قلت فيه ما قلته فيّ ما أذاقك برد الحياة"(1) وعليه فقد كان الهجاء والمدح يعكس حالة من التنافس على السلطة وموقفا من الصراع السياسي القائم بين القبائل العربية في العصر الجاهلي، ومن هنا نجد أن الأسر قد ساهم في تغيير المواقف السياسية المعلنة للأشخاص المؤثرين في قبائلهم كالشعراء والفرسان والقادة والأشراف والسادة.

ومِن الذين انقذهم شعرهم من الأسر جُويرية بن بَدر، من بني عبد الله بن دارم، أُسِر يوم الوقيط(2) فلم يزل في الوثاق حتى قال أبياتًا يَمدح فيها بني عِجل، وأنشأ يتغنّى بها رافعًا عقيرته: (الطويل)

وقـائـلـةٍ مـا غـالَـه أن يَـزُورها ... وقد كنتُ عن تلك الزِّيارةِ في شُغُلِ

وقـد أدركَـتْـنـي والـحوادثُ جَمةٌ ... مَـخـالِـبُ قومٍ لا ضِعافٍ ولا عُزْلِ

سِراعِ إلى الدّاعَي بِطاءٍ عنِ الخَنَا ... رزانٍ لَـدى النّادِيِّ مِن غير ما جَهْل

لـعلـهُمُ أن يُـمَـطِـروني بنعميةٍ ... كما طاب ماءُ المُزْن في البلَدِ المَحْل

فـقـد يُنعشُ الله الفتى بعد عُسْرةٍ ... وقـد يَـبتدي الحُسنَى سُراةُ بني عِجْل

فلما سَمعوه أطلقوه.

---

(1) التوحيدي، علي بن محمد بن العباس، ت414هـ، **البصائر والذخائر**، ط1، تحقيق وداد القاضي، بيروت: دار صادر، ج6: 132.

(2) ابن عبدربه، **العقد الفريد**،ج6: 46.

كان مصير بعض الأسرى ينتهي بهم إلى القتل، ومن أسباب **قتل الأسرى** إدراك الثأر، فهذا دُرَيْد بن الصِّمَّة بعد مقتل أخيه عبدالله، يغير على غَطَفَان، يطالبهم بدمه، فقتل من بني عبس ساعدة بن مُرّ، وأسر مرةُ بن عوف الجشمي ذُؤَابَ بن أسماء بن زيد بن قارب، فأراد بنو جشم أن يفادوه فلم يقبل دُرَيْد بذلك، وحمله معه إلى أمه، رَيْحَانة بنت معد يكرب، ذلك أنها كانت عابتْ عليه وعنّفتْه تأخره عن إدراك ثأر أخيه، عبدالله، فلما جاء بذؤاب بن أسماء، قتله بفنائها، وقال: "هل بلغتُ ما في نفسك. قالت: نعم مُتّعتُ بك"(1) وقال دُرَيْد في ذلك(2): (الطويل)

قَـتَـلْــنا بِـعَـبْـدِ اللهِ خـيْـرَ لِدَاتِهِ   وخيْرَ شَبابِ الناسِ لو ضُمَّ أجْمَعا

ذُؤَابَ بنَ أسْماءَ بن زَيْد بـنِ قارِبِ   مَنِـيَّتُه أجْــرَى إلــيها وأوْضَــعا

فتىً مثْل متْنِ السَّيف يَهْتَزُّ للْنَدى   كـعَــالـيـة الـرُّمْـحِ الرُّديْـنِيِّ أرْوَعا

ومن الأسرى من أخفى نسبه كي لا يعرف فيُقتل، فلمّا قَتَل قرواشُ بن هني العبسي حذيفةَ بن بدر الفزاري يوم الهباءة،(3) أغارت ذبيان على بني عامر بن صعصعة، وفيهم بنو عبس فاقتتلوا فهزمت عامر وأُسِر قرواش بن هني العبسي ولم يُعرف. فلما قدموا به الحي عرفته امرأةٌ منهم، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة، فقتله. وقال عنترة(4): (الطويل)

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج10: 11- 13.

(2) دريد بن الصمة، **الديوان**، ق36: 131، أجرى إليها: قصد إليها، أوضع: الإضاع ضرب من السَّير (ابن منظور: وضع).

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 461.

(4) عنترة، **الديوان**، ق37: 53.

هَـدِيُّـكُـمُ خـيـرٌ أبـًا مِـنْ أبـيكُمُ		أَعَـفُّ وأَوْفَـى بـالجِـوارِ وأَحْمَدُ(1)

وأَطْعَنُ في الهيجا إذا الخَيْلُ صَدَّها		غَداةَ الصَّباحِ السَّمْـهَـرِيُّ المُقَصَّدُ(2)

فَهَـلاَّ وَفي الْفَوْغاءُ عَمْرُو بنُ جابرٍ		بِـذِمَّتِـهِ وابـنُ اللَّـقيـطَةِ عِصْيَدُ(3)

سَـيأْتـيكُـمُ عَنِّي وإنْ كُنْـتُ نائيًا		دُخـانُ الْعَـلَـنْدي دُونَ بَيْتيَ مِذْوَدُ(4)

قَصائِدُ مِنْ قِـيلِ امرِىءٍ يَحْتَـذِيكُمُ		بِـني الْعُـشَـراءِ فـارْتَدُوا وَتَـقَلَّدُوا

وقد يسعى الفرسان إلى أسر شخص بعينه إذا علموا منه شرّا، أو إذا قتل فارسا من فرسانهم أو سيدا من سادتهم، ففي يوم الجونين الذي أغار فيه عتيبة بن الحارث بن شهاب على بني كلاب ومعه أخوه حنظلة، فقُتل حنظلة، قتله الحَوثرة بن قيس بن جَزء بن خالد بن جعفر، فحمل لأم بن سلمة أخو بني ضِبارى بن عبيد بن ثعلبة على الحوثرة هو وابن مُزنة أخو بني عاصم بن عبيد فأسراه ودفعاه إلى عتيبة، فقتله صبرًا بأخيه حنظلة(5).

---

(1) الهَدِيُّ:المأسور الذي يقاد عن رجل قتله (ابن منظور: هدي).

(2) السّمْهَرِيّ: الصلب من الرماح، المُقَصّد: المكسّر لكثرة الطعن (ابن منظور: سمهر، قصد).

(3) الفَوْغاء: الطويلة الأسنان والثنايا، وعمرو بن جابر من بني مازن بن مرّة من بني العشراء، وابن اللقيطة عيينة بن حصن كان يعرف بذلك، والعِصْيَدُ: المأتي يقال عَصَد المرأة إذا نكحها (ابن منظور: فغا، عصد).

(4) قوله: دخان العلندي يريد هجواً يكون في الشهرة بمنزلة الدخان، والعلندي: جبل لم يرَ قط إلا والدخان يخرج من رأسه (المعاني الكبير: 798- 799)، ومذود: يذود عني (ابن منظور: ذود).

(5) الأصفهاني، **الأغاني**، ج15: 235.

وقد حاول بعض الأسرى أن يستجير بأصدقائه، وإن كانوا من قوم أعدائه، ولكن هذا الأمر لم يكن مجديا في جميع الأحوال، ففي يوم ثيتل قُتل خالد بن الصمة، في غارة أغارتها بنو الحارث بن كعب على بني نصر بن معاوية، وبلغ الخبر بني جُشَمَ، فلحِقوهم ورئيس بني جشم يومئذ مالك بن حزن، فاستنقذوا ما كان في أيديهم من غنائم بني نصر، وأخذوا ذا القرن الحارثي أسيرًا . فلما رجعوا قتلوا ذا القرن بخالد بن الصمة. ولما قُدِّم لتضرب عنقه صاح بأوس بن الصمة وكان له صديقًا ولم يكن أوس حاضرًا، فلم ينفعه ذلك وقتل. فلما قدم أوس غضب، وقال: أقتلتم رجلًا استجار باسمي. فقال عوف بن معاوية في ذلك(1): (البسيط)

نُبِّئتُ أوسًا بَكى ذا القَرنِ إذ شربا ... على عُكاظ بكاءً غالَ مجـهودي

إنِّي حلَفتُ بما جمَّعتُ من نَـشَبٍ ... وما ذَبحتُ على أنصــابكَ السُّودِ(2)

لـتـبـكـينَّ قَتـِـيلًا مــنكَ مُقترِبًا ... إنِّــي رأيـتُــك تــبكي للأباعيدِ

ولم يشفع للأسير من القتل، كبر سنه، ففي يوم دارة مأسل غزا عُتبة بن شُتَير بن خالد الكِلابيّ بني ضَبّة فاستاق نَعَمهم، وقَتل حُصيْن ابن ضِرار الضَّبي، أبا زَيد الفوارس، فجمع أبوه ضرار قومَه وخرج ثائرًا بابنِهِ حُصين، فأفلت منه عُتبةُ بن شُتير بن خالد، وأسر أباه شُتير بن خالد، وكان شيخًا أعور. وعندما قَدّمه ليضربَ عُنقه نادى شُتير: يا آل عامر، صَبْرًا بصبيّ. كأنّه أَنِف أن يُقتل بصبيّ. فقال في ذلك شَمْعَلَة بن الأخضر الضَّبِّيّ(3): (الوافر)

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج10: 15- 17.

(2) النّشب: المال والعقار (ابن منظور: نشب).

(3) ابن عبدربه، **العقد الفريد**، ج6: 43.

وخـيَّـرْنا شُــتـيـرًا في ثلاثٍ   ومـا كــان الـثلاثُ له خِيارَا

جَعلتُ السيفَ بين اللِّيْتِ منه   وبــين قِـصاص لِمَّتِه عِذَارا(1)

ومن الشعراء الفرسان الذين أُسِروا عبد يغوث بن صلاءة الحارثي، وكان عبد يغوث فارسًا سيدًا لقومه من بني الحارث بن كعب، وهو قائدهم في يوم الكلاب الثاني إلى بني تميم، فهُزِمتْ مَذْحِج فأخذوا الكثير من الأسرى، حتى أُسِر عبد يغوث، أسره فتى أهوج من بني عمير بن عبد شمس فانطلق به إلى أهله، فقالت له أمه ورأت عبد يغوث عظيمًا جميلًا جسيمًا: من أنت؟ قال: أنا سيد القوم. فضحكت، وقالت: قبّحك الله من سيد قوم حين أسرك هذا الأهوج. فقال عبد يغوث(2):

وتضـحَكُ مني شَيْخةٌ عبْشَمِيَّةٌ   كأن لم ترَ قبْلي أسيرًا يَمانِيَا   (الطويل)

فخاف عبد يغوث على نفسه أن ينتزعوه سعد والرِّبَاب، فيقتلونه بمن قُتل من سادتهم، فدفع للمرأة وابنها مئة من الإبل لينطلق به إلى الأهتم(3) ظنًّا منه أنه سينقذه من الأسر. فانطلق به إلى الأهتم، وأنشأ عبد يغوث يقول(4):   (الطويل)

أأهــتم يــا خــيرَ البـــريِّة والــدًا   ورَهطًا إذا ما الناسُ عدُّوا المَساعِيا

تَدَارَك أســيرًا عَـانِيًا في بــلادكم   ولا تــثقفنّـي التَّـيم ألْــقَى الدواهيا

---

(1) القِصاص : الناصية، اللِّيْتُ: صفحة العنق، العِذار: جانب اللحية (ابن منظور: نصص، ليت، عذر).

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 83.

(3) الأهتم هو عمرو بن سنان والأهتم لقبه، كان من أكابر سادات بني تميم وشعرائهم وخطبائهم في الجاهلية والإسلام.

(4) الأصفهاني، **الأغاني**، ج16: 227.

فلما علمت سعد والرباب بأمر عبد يغوث، ساروا إلى بني سعد، فقالوا لهم: قتل فارسنا ولم يقتل لكم فارس مذكور، فدفعه الأهتم إليهم، فأخذه عصمة بن أبير التيمي، فلما أيقن عبد يغوث من الهلاك وأنّه مقتول لا محالة، طلب منهم أن يقتلوه قتلة كريمة تليق بسيد شريف، وذلك بأن يسقوه الخمر ثم يقطعوا له عرقا يقال له الأكْحَل، ففعلوا، فقال عبد يغوث وهو يجود بنفسه قصيدة من عشرين بيتا نذكر منها قوله(1): (الطويل)

أَلاَ لا تَلُومانِي كَفَى اللَّوْمَ ما بِيا ... فما لَكُما في اللَّوْمِ خَيْرٌ ولا لِيا

أَلَمْ تَعْلَما أَنَّ المَلامَةَ نَفْعُها ... قَلِيلٌ وما لَوْمِي أَخِي مِن شِمالِيا

فإن تقتلوني تقتلوا بي سيِّدًا ... وإنْ تطلقوني تَحْرُبُوني بماليا

أحقًّا عباد الله أن لستُ سامعًا ... نشيد الرِّعاء المعزِّبِين المَتَاليا

وتَضْحَكُ منِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ ... كأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمانِيا

ومنهم من عَمَد إلى **إطلاق الأسير مقابل الوعد بدفع الفدية** فكان الأسير إذا خاف القتل من أعدائه وعد آسره بدفع الفدية على أن يخلّي سبيله ويطلق سراحه، ففي يوم شعب جَبَلَة(2) "لمّا انهزم الناس خرجتْ بنو عامر وحلفاؤهم في آثارهم يقتلون ويأسرون ويسلبون، فلحق قيسُ بن المُنْتَفِق عمرو بن عمرو فأسره. فأقبل الحارث بن الأبرص بن ربيعة بن عُقَيلٍ في سرعان الخيل يريد قتل

---

(1) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 84. وانظر: الأغاني، ج16: 228.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ج11: 106.

عمرو، فرآه عمرو مقبلًا فقال لقيس: إن أدركني الحارث قتلني وفاتك ما تلتمس عندي، فهل أنت محسن إلي وإلى نفسك، تجز ناصيتي فتجعلها في كنانتك، ولك العهد لأفيَنَّ لك، ففعل. وأدركهما الحارث وهو ينادي قيسًا ويقول: اقتُل اقتُل. فلحق عمرو بقومه. فلما كان الشهر الحرام خرج قيس إلى عمرو يستثيبه، وتبعه الحارث بن الأبرص حتى قدما على عمرو بن عمرو؛ فأمر عمرو بن عمرو ابنة أخيه آمنة بنت زيد بن عمرو فقال: اضربي على قيس الذي أنعم على عمك هذه القبة. وكان الحارث قتل أباها زيدًا يوم جَبَلَة. فجاءت بالقبة فرأت الحارث أهيأهما وأجملهما، فظنته قيسًا فضربتْ القبة على رأسه. فلما رجعتْ إلى عمها عمرو قال: يا ابنة أخي، على من ضربت القبة؟ فنعتت له نعت الحارث. فقال: ضربتها والله على رجلٍ قتل أباك وأمر بقتل عمك". فقال الحارث بن الأبرص(1): (الوافر)

أمـا تَـــدرين يا ابنةَ آلِ زَيْدٍ أُمَيْنُ بما أَجَنَّ اليومَ صــدرِي

فـكم من فـارسٍ لــم تُرزَئيه فَتى الفتيانِ في عِيصٍ وقصرِ

رأيـتُ مكانَه فصددتُ عنه فــأعيا أَمـره وشـــددتُ أزري

لــقد آمـرتُه فعَصى إمارِي بأُمٍّ عزيمةٍ فــي جَــنْبِ عـمرو

أمــرتُ بـه لتَخْمُشَ حَنَّتَاهُ فـضيّع أمـرَه قــيسٌ وأمـــري

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج11: 106. الحَنَّة حَنَّة الرجل: امرأته، أمين: مصغر آمنة تصغير ترخيم، الخمش: الخدش في الوجه، وقد يستعمل في سائر الجسد (ابن منظور: حنن، خمش).

وقد يَعِدُ الأسيرُ آسره بدفع الفدية لاحقا، إذا لم يجد من يفاديه، إلا أن بعض الأسرى لم يف بوعده فعندما أَسر دُرَيْد بن الصّمة عياضًا الثعلبي، فأنعم عليه، ثم أن دريدًا أتاه بعد ذلك يستثيبه، فقال له: أئت رحلك حتى أبعث إليك بثوابك، فانصرف دُرَيْد، فبعث إليه بوَطَب نصفه لبن ونصفه بول فغضب دُرَيْد ، ثم أغار على بني ثعلبة، واستاق إبل عيّاض، وهرب عيّاض منه جريحًا، فقال دُرَيْد في ذلك(1): (الطويل)

فإن تَنْجُ يَدْمَى عارِضاك فإنَّنا ... تَرَكْنا بَنِيك للضِّباع وللرُّخْمِ

جَزَيْتُ عِياضًا كُفْرَه وعُقُوقَه ... وأَخْرَجْتُه من المُدَفَّأَةِ الدُّهْمِ

أَلَا هل أَتَاه ما رَكِبنا سَرَاتَهُم ... وما قد عَقَرْنا من صَفِيٍّ ومن قَرْمِ

وفي يوم زُبالة، خرج الأقرع بن حابس وأخوه فراس التميميان، وهما الأقرعان، في بني مجاشع من تميم وهما يريدان الغارة على بكر بن وائل ومعهما البَرُوك أبو جعل، فلقيهم بِسْطام بن قيس الشيباني وعمران بن مرة في بني بكر بن وائل بزبالة فاقتتلوا قتالًا شديدًا ظفرت فيه بكر وانهزمت تميم. وأُسِر الأقرعان وأبو جعل وناس كثير، فافتدى الأقرعان نفسيهما من بِسْطام وعاهداه على إرسال الفداء، فأطلقهما، فبعدا ولم يرسلا شيئًا. وقال أوس بن حجر: (الطويل)

---

(1) دريد بن الصمة، **الديوان**، ص161. وانظر: شيخو، **شعراء النصرانية**، ص 208. وعِياض: هو عياض بن ناشب أحد بني ثعلب بن سعد بن ذبيان. الرَّخم: جمع رَخْمَة: وهو طائر أبقع على شكل النسر خلقة، الأدْمُ: جمع آدم وأدْماء من الأدمة وهي الأبل البياض الشديد يقال بعير آدم وناقة أدْماء والجمع أُدْمُ، مُدَفَّأة: كثيرة يدفى بعضها بعضا، أو مدفأة بكثرة شحومها وأوبارها، الدّهم: دهماء من الدُّهْمَ' وهي من ألوان الأبل أنْ تشتدُّ الوُرْقَةُ حتى يذهب البياض، سراتهم: يعني أكثر ارتفاعا أي أكثر الخيل والإبل التي ساقها ارتفاعا، قَرْمُ: الفحل الذي يترك من الركوب والعمل ويودع للفحلة (ابن منظور: رخم، أدم، دفأ، دهم، سرا، قرم).

وصبّــحـنا عـارٌ طــويلٌ بناؤه		نُسَبُّ به ما لاح في الأفق كَوْكَبُ(1)

فلــم أر يـومًا كـان أكــثر باكيًا		ووجـهًا تُرى فــيه الــكـآبة تُجنب

أصابوا البَروك وابن حابس عَنوةً		فــظلّ لـهم بالقاع يومٌ عَصَبْصَب

وإنّ أبا الصّهباء في حَوْمَةِ الوغى		إذا ازْوَرَّت الأبــطال ليثٌ مجرّب

وإذا ما تأخر دفعُ الفدية، لسبب من الأسباب، فقد تكون العواقب وخيمة، ففي يوم صَعْفُوق لبكر على تميم أغارت بنو أبي ربيعة على بني سَليط بن يَرْبوع فأصابوا منهم أَسرى. فأتى طريفُ بن تميم العَنبري فروةَ بن مَسعود، وهو يومئذ سيدُ بني أبي ربيعة، ففدَى منهم أَسرى بني سَليط ورَهنهم ابنه. فأبطأ عليهم، فقَتلوا ابنَه، فقال(2): (البسيط)

لا تَـأْمــنَنّ سُــلَيمى أنْ أُفــارقَــها		صرمى الظعائن بعد اليوم صُعْفوق

أعــطيْتُ أعـداءَهُ طوْعًا بـرُمَّـــتهِ		ثم انــصرفتُ وظـنّي غـير مَوْثوقِ

وممن غدر بآسره ولم يشكر صنيعه بمنّه عليه بإطلاق سراحه وفكّ أسره، الصِّمَّة الأكبر(3)، عندما وقع أسيرا في يد الجَعْد بن الشَّمَّاخ، فجزّ ناصيته وأطلقه على الثواب، ثم إن الجَعد قصد الصّمة يستثيبه، فغدر به الصّمة وقتله(4).

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 477.

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 65.

(3) ابن حبيب، جعفر بن محمد البغدادي ت245هـ، **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء**، ط2، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1393هـ- 1973م، ص 139. (نوادر المخطوطات،ج2، المجموعة السادسة).

(4) هو مالك بن بكر بن عُلَقة بن جداعة أخو بني جُشم بن معاوية بن بكر بن هوازن (أسماء المغتالين، ابن حبيب).

ونجد أيضا أنّ **الإضراب عن الطعام أو الشراب** كان من الوسائل التي لجأ إليها الأسير ما دام في قيده رَفْضاً لواقعه المؤلم، ففي يوم نَعْفِ قُشَاوة أغار بِسْطام بن قيس على بني يربوع من تميم فاستاق النعم وقتلوا من يربوع جمعًا وأسروا آخرين، منهم: أبو مليل، فلمّا عادوا إلى منازلهم، قال له أبو مليل: قتلت بجيرًا وأسرتني وابني مليلًا، والله لا أطعم الطعام أبدًا وأنا موثق، فخشي بِسْطام أن يموت فأطلقه بغير فداء، وقال متمم بن نويرة في ذلك(1): (البسيط)

أبـــلغ شهاب بني بكرٍ وسيّدها   عنيّ بذاك أبا الصّهباء بسطاما

أروي الأسـنّة من قومي فأنهلها   فأصبحوا في بقيع الأرض نوّاما

لا يطـبقون إذا هـبّ الـنيام ولا   في مرقدٍ يحلمون الدهر أحلاما

أشجي تميم بن مـرّ لا مـكايدةً   حتّى اسـتعادوا له أسرى وأنعاما

هلاّ أسيرًا فدتك النفس تطـعمه   مـمّا أراد وقــدمًا كنت مطعاما

قيمة الأسرى

كان للأسرى قيمة كبيرة عبّر عنها الشعراء في مواقف متعددة، فكان **الذم بالتخلي عن الأسير** من الأمور التي عيّر بها الشعراء المقاتلين ذلك أنهم تخلّوا عن نجدة أبناء قبيلتهم وقومهم، أو عجزهم عن الدفاع عنهم وتركهم غنيمة للأعداء، يعانون القتل والأسر، فكان من يتخاذل عن فداء أسرى

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 474.

قومه، يعرّض نفسه للوم والذّم، ففي يوم رحرحان أُسِر معبد بن زرارة، أسره عامر بن مالكٍ، واشترك في أسره طفيل بن مالك ورجل من غنيٍ، وكان معبد سيدا شريفا كثير المال، فوفد لقيط بن زراره إلى عامر، ليطلق سراح أخيه، فقال للقيط: أما حصتي فقد وهبتها لك، ولكن أرض أخي وحليفي اللذين اشتركا فيه. فجعل لقيط لكل واحدٍ مائةً من الإبل، فرضيا وأتيا عامراً فأخبراه. ولكن لقيط لم يقبل أن يدفع إلا مائة واحدة فقط، معللا ذلك بقوله: إن أبي زرارة نهاني أن أزيد على مائةٍ دية مضر، فإن أنتم رضيتم أعطيتكم مائةً من الإبل، فقالوا: لا حاجة لنا في ذلك، وترك لقيط أخاه يعاني ذلَّ الأسر، إلى أن قُتل في أسره. فقال شُرَيح بن الأحوص يعير لقيطًا بتهاونه، وبخله بالمال، في فداء أخيه(1): (المتقارب)

لَـقِـيطُ وأنـت امرؤٌ ماجدٌ ولكنّ حِـلْـمَـكَ لا يَـهْـتـدِي

ولَمّا أَمِنْتَ وســاغ الشّرا بُ واحتلّ بيتُك في ثَـــهْمَدِ

رفعتَ برِجْلَيْكَ فوق الفِرَا شِ تُهْدِي القصائدَ في مَعْبَد

وأسـلمتَه عند جِدِّ القِتَالِ وتــبخَـل بالـمالِ أن تَفْتَدِي

وقال عَوف بن عطيِّة بن الخَرِع التَّيميُّ يعيِّر لقيط بن زرارة، بتخلّيه عن نجدة أخيه، موثّقا بالقيود والأصفاد، فلا هو قاتل عنه، ولا هو فاداه(2): (الكامل)

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج11: 90.
(2) **السابق**، ج11: 190- 191.

هَلاَّ فَوارِسَ رَحْرَحانَ هَـجَوْتَهم عُشَرًا تَـنَـاوَحُ في سَرَارةِ وَاد

لا تــأكُل الإبِـلُ الغِـراثُ نَباتَه مـا إن يـقــومُ عِمادُه بعِمَادِ

هَلاَّ كَـرَرْتَ عـلى أُخَيِّك مَعْبَدٍ والــعامريُّ يــقودُه بـــصِفَادِ

وذكرتَ من لَبَن المُـحَلَّقِ شَرْبةً والـخيلُ تعدو بالصِّفَاحِ بَدَاد

لو كنتَ إذ لا تسـتطيعُ فديتَه بـهجانِ أُدْمٍ طـارف وتِــلادِ

لـكنْ تَــرَكْتَهُ في عَميقٍ قَعْرُها جَزَرًا لـخامعةٍ وطــيرِ عَوَادِ

لـو كنتَ مُسْتَحِيًا لِعرْضِكَ مَرّةً قـاتـلتَ أو لَفَــدَيْتَ بالأذوادِ

وفي يوم الإياد، ويقال أيضا يوم العُظالَى أغار بِسْطام بن قيس وهانيء بن قبيصة ومفروق بن عمرو على بني يربوع من تميم فلما التقى الفريقان، انهزم بِسْطام وقومه، وانكشف أصحابه، فقتلتْ تميمٌ جماعة من فرسان بكر، وأَسرتْ جماعةً أخرى، منهم هانيء بن قبيصة، فطَلَبَ فرسانُ بني يربوع بِسْطاما، وألحّوا في مطاردته حتى نجا منهم بعد عناء كبير، فقال العوّام بن شَوْذَب الشّيبانيّ وكان قد أُسِر، يعيب على قومه وبِسْطام فرارهم من القتال، وتركهم أصحابه بين قتيل وأسير(1):

وإنْ يـكُ فــي يــوم الغَـبيط مَلامَةٌ فيومُ العُظالي كان أَخزَى وأَلْوما (الطويل)

أنـاخُوا يـريـدون الصَّباح فصَبَّحوا وكـانوا على الغازين دَعْوة أَشْأَما

---

(1) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 54- 55.

فرزْتُم ولم تُلْـووا عـلـى مُـجْحِريكم   لو الـحارث الحَرَّاب يُدْعى لأَقْدَما(1)

ولـــو أنّ بِـسْـطـامـًا أُطـيع بأمره   لأدَّى إلــى الأحياءِ بـالنَّحْو مَغْنَما

ولـكـنَّ مَـفْرُوقَ القَنا وابـن خـــاله   أَلَاما فَلِـيـــما يـــومَ ذاك وشُـــوِّما

ففرّ أبو الصهباء إذ حَمِس الوَغى   وألــقَـــى بـأَبـــدان السِّلاح وسَلَّما

وأَيــقن أنَّ الخـــيلَ إنْ تَلْتبس بـه   تَئِمْ عـرسُه أو يَملأ البـيـتَ مأْتما

ولـو أنـــهـا عُـصْـفُـــورَةٌ لحسِبْتَها   مُـسَـوَّمَـــةً تـدعـــو عُـــبَيْدًا وأَزْنَمَا(2)

أَبَى لــك قَـيـدٌ بالغَـبِـيط لقاءَهم   ويـــومُ الـعُــظَـالى إذ نجَوْتَ مُكلَّما

فـأفْــلَـتَ بِسطام جَريضًا بنَفـسه   وغـــادَر فـــي كَــرْشاء لَــدْنًا مُقوَّما(3)

وقـــاظ أسـيـرًا هــانـئٌ وكـــأنّــما   مَـــفَـارِقُ مَفْـروقٍ تَغشَّين عَنْدَما

ثم إن هانئًا فَدَى نفسَه وأَسرى قومِه، فقال العوَّام في ذلك(4): (البسيط)

إنَّ الـفَـتـى هـانـئـًا لاقَى بشكَّته   ولم يَـجم عـن قِـتـال القوم إذ نَزَلا

---

(1) المُجْحَرُ: المُضطرّ، المُلْجَأ (ابن منظور: حجر).

(2) أي لو أن عصفورة طارت لحسبتَها من جبنك خيلا معلمة، تدعو عبيدا وأزنما أي شعارهم: يال عبيد أزنم.

(3) الكَرْشاء: القدم التي كثر لحمها واستوى أخمصها وقصرت أصابعها (ابن منظور: كرش)، وقد يريد كرشاء بن عمر الشيباني، العندم: صبغ أحمر يريد الدم (ابن منظور: عندم).

(4) **السابق**، ج6: 55.

ثمَّتَ سارَع في الأَسْـرى فَـفكَّهُم		حــامِيَ الــذِّمــار حَقيقٌ بالذي فَعلا

وأكثر العوّام من هجاء بِسْطام، فأخذ بِسْطام أبله فقالت أمه(1): (الطويل)

أرى كلّ ذِي شِعْرٍ أصاب بِشِعْرِه		ســوى أنّ عـوّامًا بما قال عَيَّلا(2)

فــلا تَنطِقنْ شــعرًا يكونُ حِوارُه		كـــما شعر عوَّام أعَامَ وأَرْجلا

ولما فرّ الطفيل ومالك بن كعب ولقبه جَوّاب، وتركوا قومهم للأسر والسبي، قالت سلمى بنت المُحَلِّق العَامِريِّة تعيِّر جَوَّابًا والطُّفيل(3): (البسيط)

لَـحَى الإلـــهُ أَبَـا لَـيْـــلَى بفَرَّتِهِ		يَوم النِّسَارِ وقُنْبَ العَيرِ جَوّابَا

كيْفَ الفخَارُ وقد كانتْ بمعْتَرَكٍ		يَـوْم النِّـــسارِ بنو ذُبْيانَ أَرْبابَا

لم تَمْنعُوا القوْمَ إذ شَلُّوا سَوَامَكمُ		ولا النِّسَاءَ وكانَ الـقَومُ أَحْزابَا

كان **الأسر** مجالا يتنافس فيه مختلف أفراد المجتمع، فرفعوا شأن الآسر، وتغنوا بقوته وشجاعته وإقدامه، بل وأخذه الأسرى مكبّلين في الأغلال لا يملكون من أمرهم شيئًا، فهو دليل ظاهر على القوّة والشجاعة، وبرهان واضح على الفروسية والقيادة، ولذلك كان أَخْذُ الأسرى من الأمور التي تحقق السعادة والنشوة في نفس الفارس، ومما يزيد من فخر الفرسان بأسراهم أن يكون الأسير

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 486.

(2) عيّلا: صار ذا عيلة وفقر، أعاما: من قولك أعامه الله أي تركه من غير لبن فأعام (ابن منظور: عيل، عيم).

(3) **السابق**، ج1: 491.

من ذوي الشأن، وممن ارتفعت مكانته في قومه، فتكون له بذلك مفخرة لا يستطيع أحدٌ أن ينكرها أو ينتقص منها، فهذا عمرو بن كلثوم يتيه فخرا بأسر الملوك وجعلهم مصفّدين(1):

(الوافر)

وَنَــحْنُ غَداةَ أُوقِدَ في خَزازَى   رَفَدْنَـا فَـوقَ رِفْدِ الرّافِدِينَا

فكُـنّـا الأيْـمَنينَ إذا الـتَقَـينَا   وكــانَ الأيسَرينَ بَنُو أَبِينَا

فَـصـالُـوا صَـوْلَةً فيمَنْ يَلِيهِمْ   وصُلنا صَوْلَةً فِيمَـنْ يَلينَا

فـآبُـوا بـالـنِّـهـابِ وبالسّبَايَا   وأُبْـنَـا بـالـمُـلُوكِ مُـصَفَّدِينَا

وقال الحارث بن عباد يؤكد قدرة قومه على أسر الملوك(2): (الخفيف)

واسألوا كندة الملوك ببكر   إذ تركنا سمينهم مهزولا

وأسرنا ملوكهم يوم سرنا   وأذقنا الأعداء طعمًا وبيلا

والأفوه الأودي يستشهد على شجاعة قومه بأنّهم أسروا سادة الأعداء، وتركوهم مستسلمين موثقين يتمنون شربة لبن(3): (الوافر)

فسائل جمـعنا عنّا وعنهُمْ   غداةَ السيلِ بالأسلِ الطويلِ

ألم نــتركْ سراتهَمُ عيامَى   جُـثُومًا تحت أرجاءِ الذيولِ

---

(1) عمرو بن كلثوم، **الديوان**، ص82- 83.

(2) شيخو، **شعراء النصرانية**، 280-281.

(3) الأفوه الأودي، **الديوان**، ص103. العَيامى: من كان بهم شهوة شديدة للَّبن، وجُثُوما: نائمين (ابن منظور: عيم، جثم).

تُبكيـــها الأرامـلُ بالمآلي بـداراتِ الصفائـحِ والنصيلِ(1)

وقال بَشامة ين الغَدير، يفخر بشجاعة قومه في أسر الملوك خاصة دون الأذناب والسفلة منذ عهد بعيد(2): (الكامل)

قَومي بَنو الْحَربِ العَوَانِ بِجَمْعِهِمْ وَالْـمَـشْرَفِـيَّــةُ وَالْـقَـنَا إِشْعَالُهَا

مــازالَ مَـعـروفًا لمُرَّةَ في الوَغى عَـــلُّ الـقَـــنا وَعَلَـيـهِمُ إِنْهالُها(3)

مِـن عَـهدِ عَـادٍ كانَ مَعْـرُوفًا لَنا أَسْــرُ الـمُـلوكِ وَقَـتْلُها وَقِتَالُها

وفي يوم المَرُّوت(4) لبني العنير على بني قشير أغار بَحيِر بن سَلْمة بن قُشير على بني العَنبر بن عمرو بن تميم، فطعَن قَعْنَبُ بن عتّاب الهيثَم بن عامر القُشيري فصرعه فأسره، وحَمل الكَدَّام، وهو يزيد بن أزهر المازني على بحير بن سَلمة فطعنه فأرداه عن فرسه، ثم نزل إليه فأسره. فأبصره قَعنب بن عتَّاب، فحمل عليه بالسيَّف فضربه فقتله. فانهزم بنو عامر وقُتل رجالهم. فقال يزيدُ بن الصَّعِق يرثي بَحيرا(5): (الوافر)

أواردةٌ عـــلــيّ بـنـي رَيَاح بـفَـخْـرهُم وقـد قتلوا بَحيرَا

(1) المآلي: جمع مئلاة وهي خِرْقَة تمسكها المرأة عند النَّوح. (ابن منظور: ألا).

(2) المرزوقي، **شرح ديوان الحماسة**، 395– 396.

(3) علُّ القنا: سَقْي الرماح عَلَلاً بعد نَهَلٍ عادة معروفة لهم فيما تقادم من الأيام إلى الآن إذا حضروا الحروب، والعلُّ والعَلَلُ: الشَّرْبةُ الثانية (ابن منظور: علل).

(4) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 42– 43.

(5) **السابق**، ج6: 42.

فأجابته العَوْراء، من بني سَليط بن يَربوع تفتخر بقومها(1): (الوافر)

قَـعـيدَك يا يـزيدُ أبا قُبَـيْسٍ أَتُـنذِرُ كـي تُـلاقِـينا النُّذورَا
وتُـوضِـعُ تُـخبر الـرُّكْبانَ أنّـا وُجدنا في مِراس الحَرب خُورا
ألـم تَــعلمْ قـعيدَك يا يزيد بـأنـا نَـقْـمَع الشَّيخَ الفَخُورا
ونَـفْـقَـأُ نـاظِرَيْه ولا نُبالي ونَـجـعل فوق هامَتِه الدرُورا
فأبلِغ إن عَرضتَ بني كلابٍ بـأنَّـا نـحن أَقعَصْنا بَحيرا
وضـرَّجْـنا عبيدةَ بالعوالي فـأصبَـح مُـوثَـقًا فينا أسيرا
أَفخْرًا في الخلاءِ بـغير فخر وعـند الحربِ خـوَّاراً ضَجورا

وقال رُمَيض العَنَزِيّ يفتخر بأسرهم مجموعة من الفرسان والسّادة منهم حاتم الطائي وابن ظالم وغيرهما ، ويذكر أنهما مقيّدان ذليلان(2): (الطويل)

ونحن أسرنا حاتمًا وابن ظالم فكلٌّ ثوى في قيدنا وهو يخشع
وكـعب إيـاد قد أسرنا وبعده أسرنا أبا حسّان والـخيل تطمع
وريّـان غـادرنا بـوَجٍّ كـأنّه وأشـياعه فـيها صريمٌ مصرّع

---

(1) **السابق**، ج6: 42– 43.
(2) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1، 482.

وقال أحد شعراء بني شيبان في يوم مُسْحلان مفتخرا بأنهم أسروا رجال ربيعة بن زياد الكَلْبيّ ونهبوا أموالهم وسبوا نساءهم(1): (الطويل)

رَبيعة سائل حـيث حـلَّ بِـجِيشه   مع الحيّ كَلْب حيثُ نَبَتْ فَوارِسُه(2)

عَشِيَّة ولَّى جَـمْـعُـهُم فَتَتابَـعُوا   فَـصَـارَ إلـينـا نَـهْبُـهُ وعَوانِسُه

وافتخر عُبَادة بن مَرْثَد بأسره قَيْس بن عاصم وسبي أمه وأختيه، يوم أَبْرَقِ الكِبْرِيتِ، ثم مَنَّ عليهم فأطلقهم بغير فداء فلم يثبه قيسٌ ولم يشكره على فعله بقولٍ يبلغه، فقال عبادة في ذلك(3):

على أَبْرَقِ الكِبْرِيتِ قيسَ بنَ عاصمٍ   أسَرْتُ وأطـرافُ القَنَا قِصَدٌ حُمْرُ (الطويل)

مَـتَى يَـعْـلَـقِ السَّـعْدِيُّ منكَ بذِمَّةٍ   تَـجِـدْهُ إذا يَـــلْقَى وشِيمَتُه الغَدْرُ

وهذ سَوّار بن حيان المِنْقَري يذكر أسْر قومه -- بني سعد-- لزعماء بكر؛ حمران بن عمرو وعوف بن النعمان الشيباني، وأبجر بن جابر، بينما هرب الحوفزان عندما حاول قيس بن عاصم أسره، فلحقه وطعنه برمحه في جوفه، فسُمّي الحارث بن شريك يومئذ بالحوفزان، فقال سَوّار يردّ على رجل من بكر(4): (الطويل)

ونــحن حَـفَـزْنا الحَـوْفَزان بطعنةٍ   سقَتْهُ نجيعًا من دم الجوف أشْكَلَا(5)

---

(1) **السابق**، ج1: 482.

(2) نَبّ يَنِبُّ نَبّاً ونَبِيا ونُبَابا ونَبْنَبَ: صاح عند الهياج. (ابن منظور: نبب).

(3) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 57.

(4) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 484.

(5) أشْكَلا: أحمرا (ابن منظور: شكل).

وحُـمْـرَان قَسْـرًا أنـزلَتْهُ رِمـاحُنا فـعـالج غُـلّاً فـي ذراعـيه مُقْفَلَا

فـيـا لـك من أيّامِ صدقٍ نَعُدُّها كـيوم جُـوَاثَى والـنّبَـاج وثَـيْـتَـلَا

قـضى اللهُ أنّـا يـوم تُقْتَسَمُ العُلا أحـقُّ بـها مـنكم فأَعْطَى وأجْزَلَا

فلستَ بِمُسطيعِ السماءِ ولم تَجِدْ لـعــزٍّ بـنـاه اللهُ فـوقَـكَ مَنْقَلَا

وقال الأهتم بن سمي بن سنان المِنْقري في محاولة أسره حمران(1): (الطويل)

تـمـطَّتْ بـحُـمْـران المنيَّة بعدما حـشـاه سِـنانُ مـن شـرَاعـةَ أزْرَقُ

دعـا يـالَ قيسٍ واعْتَزَيتُ لِـمِنْقرٍ وقد كنتُ إذ لاقيتُ في الخيلِ أصدق

ولمّا أغارَ سَلَمَةُ بن قُرْطِ بن سُفَيْح، في خَيْلٍ من مالِكٍ بن بَكْرٍ، ومعهُ بِشْرُ بن سَوَّارِ بن شِلْوَةَ على بني قَيْس بن ثَعْلَبَة، فخرج إليه أَحياءُ بني قَيْس: بنو تميم بن قَيْس وضُبَيْعَة بن قَيْس، وبنو سَعْد بن قَيْس، وفوارسُ بني جَحْدَرٍ، وجاء الحُطَمُ واسمه شريح بن ضبيعة في خيلٍ كثيرةٍ، فالتقوا بعَتِيكٍ صباحًا، فاقتتلوا قتالًا شديدًا، وخرج الحُطَمُ ونادى إلى البِرَازِ فخرجَ إليه بِشْرُ بن سَوّارٍ، فحمل عليه فطعنه فصرعهُ وأَسرَهُ، وأُصيبَ من بني تميمِ ابن قَيْسٍ ابنا عُمَيْر، وطعن سَلَمَةُ بن قُرْطٍ حُمْرَانَ ابن عبد عمرو بن عمرو بن مَرْثَدٍ، فأَفلتَ بها، وانهزمتْ بنو قَيْسٍ، وأَصابت تَغْلبُ سبايا ونَعَمًا كثيرةً في تلك الوقعةِ. قال سَلَمة(2) : (الكامل)

---

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1:484.

(2) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 190– 192.

لله دَرُّ فَوَارِسٍ من تَغْلب خَضَبُوا الأَسِنَّةَ مِن فَوَارِسِ جَحْدَرِ
لا يَنْثَنون إِذَا الصِّفَاحُ تَخَالَفَتْ يَوْمَ الهِيَاجِ وكُلُّ لَدْنٍ أَسْمَرِ
وَطِئُوا ضُبَيْعَةَ يَوْمَ خَوٍّ وطْأَةً شَابَ الوَلِيدُ لَهَا مَشِيبَ الأَكْبَرِ
ولَقَدْ عَطَفْنَ على عُبَادٍ عَطْفةً أَعْجَلنَ نِسْوتهنَّ شَدَّ المِئْزَرِ
ولَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأَذْهبَ وَغْمَهَا قتْلَى بمُعْتَلَجِ العَجَاجِ الأَكْدَرِ
مِن حَيِّ قَيْسٍ والضُّبَيْعِ وجَحْدَرٍ كانوا الشِّفاءَ لكُلِّ ثَارٍ مُوغرِ
ولـقـدْ دعَـا حُـطَمُ النِّـزَالَ فبَـزَّه بِـشْـرُ بـن شِـلْوَةَ نَـفْسَهُ في العِثْيَرِ
فـثَـوَى يُـقَـوَّدُ فـي الغِـلاَلِ جَنِيبَةً يَـمْـشِي العِـرضْنَةَ كالْـخِدبِّ الأَزْورِ(1)
واسْتيقَ مـن تَـيْمٍ خَـرَائدُ أُنَّسٌ مـن ثَيِّـبٍ أَو كَـاعِـبٍ كـالجُـؤذَرِ

وقال بِشْرُ بن سَوَّارِ بن شِلْوةَ، في ذلك اليوم يذكر أسره للحُطَم، وقد تركه فرسان قومه يلاقي مصيره المشؤوم(2): (الكامل)

وعَنْ حُطَمٍ وَلَّتْ فَوَارِسُ قَوْمِه ولمْ أَكُ عنه في البِرَازِ براقِدِ
فَرَاحَ يُغَنِّيه الحَدِيدُ كأَنَّه قَرِيعُ هِجَانٍ في عِشَارٍ طَرَائِدِ
شَفَيْنَا مِن الحَيِّ العُكَابِيِّ غُلَّةً وأُبْنَـا بأَنْعامٍ لهـمْ وخَـرَائِدِ
ورَاحتْ بحمْـرَانَ بنِ عَمْرو مَنِيّةٌ فـلَيْسَ إلى الـحرْبِ العَوَانِ بـعَائدِ

---

(1) الخِدَبّ: الضخم من النعام أو الشيء العظيم، وبعير خِدَبٌّ: شديد صلب. الأزور: المائل والمنحرف. (ابن منظور، خدب، وزر).

(2) **السابق**، ج1: 193- 194.

وقالتْ أخت الحُطَم تبكي حال أخيها وتشكو مصابها العظيم الذي أشاب ذوائبها قبل المشيب، ولا تنكر شجاعة فرسان تغلب(1): (المتقارب)

أَشابَ الذَّوائبَ قَبْلَ المَشيبِ نَـوَائـحُ تَبْكِي لأَسْرِ الـحُطَمْ
وقَـدْ كانَ في الحَرْب ذَا تُدْرَإٍ بَصِيرَ السِّنَانِ بطَـعْنِ البُهَمْ(2)
فأَصْبَـحَ في الحَيّ مِن تَغْلِب إِذَا نَـامَ ذُو سَــهَـــرٍ لم يَنَمْ
وللهِ تَـغْـلِـبُ مــن مَعْــشَرٍ إِذَا أَبْدَت الخَوْدُ عَنْهَا الخَدَمْ(3)
هُـمُ صَـبَّـحـــونَا بـمَشْبُوبةٍ عَلَيْهَا ابنُ قُرْطٍ كلَيْثِ الأَجَمْ(4)
فَـوارِسُـهَـا الـشُّـمُّ مِـن مالكٍ وتَيْمٌ هي الأَنْفُ مِنْهَا الأَشَمْ
فـأَرْدَوْا فَـوَارِسَــهـا الـمُـعَلَمِين ولَيْسَ المُصَابُ بـه كـالأَمَمْ(5)
فـلاَ تَبْعَثوا الحَرْبَ بَعْد الجِيَادِ وأُوبُوا صِــغَــاراً بقَـرْنٍ أَجَمْ(6)

---

(1) **السابق**، ج1: 194- 195.

(2) تُدْرَإٍ، إنه لَذُو تُدْرَإٍ: أَي حِفاظٍ ومنعةٍ وقُوَّةٍ على أَعدائه ومُدافعةٍ، يكون ذلك في الحَرْب والخُصومة، وهو اسم موضوع للدَّفْع، تاؤهُ زائدة، لأَنه من دَرَأْتُ. بُهْم: جمع والبُهْمةُ، بالضم الشجاع، وقيل: هو الفارس الذي لا يُدْرَى من أَين يُؤتى له من شدَّة بأْسِه. (ابن منظور: درأ، بهم).

(3) الخَدَم: جمع الخَدَمة وهي الخَلْخَال، وقد تسمى الساق خدمة حملا على الخلخال لكونها موضعه. (ابن منظور: خدم).

(4) مشبوبة: شبّ النار والحرب، أوقدها. الأجَم: الأجمة منبت الشجر كالغيضة.(ابن منظور: شبب، أجم).

(5) الأَمَم: الشيء اليسير. (ابن منظور: أمم)

(6) أجم: كبش أجم، لا قَرنَي له. (ابن منظور: جمم)

وبَكُّوا عَلى المَعْشَرِ الأَكْرَمِينَ   غَـدَاةَ اللِّـقَـاءِ بدَمْعٍ سَجِمْ

فما كان من بِشْرَ بن سَوَّارٍ إلّا أن مَنَّ على الحُطَم وجَزَّ ناصيتَه وأطلقه.

وقال معاوية المرادي يفخر بأنهم أسروا أبني طُفَيل قي يوم العُرقرب(1):   (الطويل)

تَرَكنا لدى العرقوب والخيل عُكَّفٌ   أسـاوِدَ قَـتـلى لـم توسَد خدُودها

ورُحنا وفينا ابنا طُفَيل بِغلَّةٍ   بـمـا قـرّ حـيٌّ عــادَ فلَّا شرَيدُها

كـذاك تـأسّـينا وصـبـرُ نـفوسنا   ونــحن إذا كــنا بــأرض نـسودُهـا

ويفخر كذلك مالك بن نويرة التيمي في يوم مُخَطِّط بالقيود التي تكبّل أيدي الأسرى، بعدما أطبق فرسانهم على بني شيبان، فأصبحوا بين قتيل وأسير(2):   (الطويل)

ضمَمْنَا عليهِمْ طاقتيهِمْ بصـائبٍ   مِنْ الطعنِ حتَّى استأسَرُوا وتبدَّدوا

بسمرٍ كأشطانِ الجَرُورِ نواهِـلٍ   يجودُ بِهـا زَوُّ المـنايَا ويقصِدُ

ترَى كلَّ صَـدقٍ زاعبيٍّ سِنانُهُ   إذا بَلَّـهُ الأنـداءُ لا يتـأوَّدُ

يقعنَ مَعًا فيهِمْ بأيدِي كُماتِنا   كـأنَّ المُـنونَ للأسـنّةِ موعِدُ

---

(1) الحموي، **معجم البلدان**، ج1: 108، أساود: شخوص القتلى، عَكَف على الشيء يَعْكُفُ ويَعْكِفُ عَكْفاً وعُكوفاً: أقبل عليه مُواظِباً لا يَصْرِفُ عنه وجهه (ابن منظور: سود، عكف).

(2) الأصمعي، **الأصمعيات**، ص: 11، وأَشْطَان جمع شَطَن وهو الحبل، الجرور: البئر، النَّهْل: أول الشرب، زَوُّ المنايا: ما يحدث هلاك المَنيِّة، زاعب: مملوء، بلّه، البلل: النّدى، يتأوَّد: ينثني (ابن منظور: شطن، نتخ، جرر، نهل، زوو، زعب، بلل، ندى، أود).

تُدرُّ العُرُوقَ الآنياتِ ظُباتُها وقدْ سنَّها طَرّ ووقعٌ ومبرَدُ(1)
فأقررتُ عينِي حينَ ظلُّوا كأنَّهُمْ ببطنِ الأيادِ خشْبُ آثلٍ مُسنَّدُ
صريعٌ عليهِ الطّيرُ تنتِخُ عينَهُ وآخرُ مكبولٌ يميلُ مُقيَّدُ

وذكر رَبِيْعَة بن مَقْرُوم الضَّبِّيُّ عددا من الأسرى من السادة والقادة الذين وقعوا في أيدي قومه يوم الكلاب الثاني، حيث تركوهم بين أسيرٍ مُكَبَّل بالقيود، وقتيل أصبح فريسة للضباع والذئاب، فقال يفتخر في ذلك(2): (الطويل)

ويومَ جُرَادَ اسْتَلْحَمَتْ أَسَلاَتُنا يَزيدَ ولم يَمْرُرْ لَنا قَرْنُ أَعْضَبَا
وقاظَ ابنُ حِصْنٍ عانِيًا في بُيُوتنا يُعالِجُ قِدًّا في ذِرَاعَيْهِ مُصْحَبَا
وفارسَ مَرْدُودٍ أَشَاطَتْ رِماحُنا وأَجْزَرْنَ مَسْعُودًا ضِبَاعًا وأَذْؤُبَا

وقال سلامة بن جندل يفخر في يوم مُلْزِق، بجعلهم الأسرى موثقين(3): (الطويل)

ومن يَدَعُوا شيئاً يُعالِجْ بئيسَهُ ومَنْ لا يُغالوا بالرَّهائِنِ يَنْفُقِ(4)
تركْنَا بُجيرًا حيثُ مَا كانَ جَدُّهُ وفينَا فِراسٌ عانِيًا غَيْرَ مُطْلَقِ
ولوْلا جَنانُ الليلِ مَا آبَ عَامِرٌ إلى جَعْفَرٍ سرْبالُهُ لَمْ يُخَرَّقِ

---

(1) طَرّ: محدد، وقعٌ، الميقَعَة: المطرقة، يميل: في عنقه ميلٌ (ابن منظور: طرر، وقع، ميل).
(2) الضبي، المفضليات، رقم113: 375.
(3) الأصمعي، **الأصمعيات**، ص 151- 152.
(4) يقول أن الرئيس الأسير الذي لا يفتدونه نعيشه في بؤس وشقاء، أما الأسير الذي لا يفتدونه بالمال لهوان أمره فإننا نقتله.

أما قيس بن العَيزارة الهذليّ فقد وقع أسيرا في قبيلة فَهْمٍ، أسره تأبّط شرّا وأخذ سلاحه، ثم تشاوروا في أمره فأجمعوا على قتله إلا أنه فرّ منهم. فقال قصيدة يروى فيها قصة أسره وما نزل به من الألم والحزن بأسلوب حواري بديع يرصد فيه معاناته وموقفه وحال أهله وهو في الأسر(1): (الطويل)

لَعَمْرُكَ أَنسَى رَوْعَتِي يَومَ أَقْتُدٍ وَهَل تَترُكَنْ نَفسَ الأَسيرِ الرَّوائِعُ(2)

غَداةَ تَناجَوا ثُمَّ قاموا فَأَجمَعوا بِقَتْلِيَ سُلْكَى لَيسَ فيها تَنازُعُ(3)

وَقالوا عَدُوٌّ مُسرِفٌ في دِمائِكُمْ وَهــاجٍ لِأَعراضِ العَشيرَةِ قاطِعُ

فَسَكَّنتُهُمْ بِالقَولِ حَتّى كَأَنَّهُمْ بَواقِرُ جُـلْحٌ أَسكَنَتْها المَراتِعُ(4)

وَقُلتُ لَهُم شاءٌ رَغيبٌ وَجامِلٌ وَكُـلُّكُم مِــن ذلِكَ المالِ شابِعُ

وَقالوا لَنا البَلْهاءُ أَوَّلَ سُؤْلَةٍ وَأَعراسُها واللهُ عَــنّي يُدافِعُ(5)

وَقَد أَمَرَتْ بي رَبَّتي أُمُّ جُنْدَبٍ لِأُقتَلَ لا يَسْمَعْ بذلِكَ سامِعُ(6)

تَقولُ اقتُلوا قَيْساً وَحُزّوا لِسانَهُ بِحَـسْبِهِم أَن يَــقْطَعَ الرَأسَ قاطِعُ

وَيَأمُرُ بي شَعْلٌ لِأُقْتَلَ مُقْتَلا فَقُلتُ لِشَعْلٍ بَئسَما أَنتَ شافِعُ(7)

---

(1) **ديوان الهذليين**، ج3: 76.

(2) أُقتد: موضع، الروائع: جمع رائعة وهي ما يروعه.

(3) سلكى: أجمعوا على أمر ليس فيه اختلاف.

(4) بواقر: جمع باقر أي كأنهم بقر لا قرون لها سكنت وطابت نفسها في المراتع زكذلك هم سكنوا بعد ما أرادوا قتله.

(5) البهاء: ناقة عنده، أعراسها: أُلّافها يرد أَخْذَ ما معها من الأبل، أوّل سُؤْلَة: أوَّل من سألنا، والله عني يدافع: أي والله يدافع عني الأسر.

(6) ربتي: امرأة تأبط شرا الذي كان أسيرا عندها.

(7) شَعْل: لقب تأبط شرا.

سَرَا ثابِتٌ بَزِّي ذَميماً وَلم أَكُنْ سَلَلْتُ عَلَيهِ شَلَّ مِنّي الأَصـابِعُ(1)

فَوَيلُ أمِّ بَزٍّ جَرَّ شُعْلٌ عَلى الحَصَى فوُقِّرَ بَزٌّ مـا هُنالِكَ ضائِعُ(2)

فَإِنَّكَ إذ تَحْدُوكَ أُمُّ عُوَيْمِـرٍ لَذو حاجَةٍ حافٍ مَعَ القَومِ ظـالِعُ(3)

وَقالَ نِساءٌ لَو قُتِلتَ لَساءَنا سِواكُنَّ ذو الشَجْوِ الَّذي أَنا فاجِـعُ(4)

رِجـالٌ وَنِسْوانٌ بِأَكـنـافِ رايَةٍ إلى حُثُنٍ ثَمَّ العُيونُ الدَّوامِـعُ(5)

سَقَى اللهُ ذاتَ الغَمْرِ وَبْلاً وَدِيمَةً وَجادَتْ عَلَيها البارِقاتُ اللَّـوامِـعُ(6)

بِما هِيَ مُقْناةٌ أَنِيقٌ نَباتُها مِرَبٌّ فَتَرْعاها المَخاضُ النَّوازِعُ(7)

وَإِن سالَ ذو ماوَيْنِ أَمْسَتْ قِلاتُهُ لَها حَدَبٌ تَسْتَنُّ فيهِ الضَّفادِعُ(8)

إِذا صَدَرَتْ عَنهُ تَمَشَّتْ مَخاضُها إِلى السِّرِّ تَدْعوها إِلَيهِ الشَّفائِعُ(9)

---

(1) ثابت: هو تأبط شرا حين أسر قيسا، سَرَا بَزِّي: أي سلبه.

(2) يريد فويل أمِّ بَزٍّ لهَلَكَة شَعْل وهو تأبط شرا كان قصيرا لبس سيف قيس حين أسره فجعل يجره على الحصى فوُقِّرَ أي صارت به وَقَرات وهزمات في السيف.

(3) أم عويمر: تصغير أم عامر وهي الضبع، حاف: كناية عن ضعفه وعدم قدرته على الهرب.

(4) يعني أهله وبناته.

(5) راية وحُثن: موضع.

(6) بارقات: سحاب فيها برق، لوامع: تلمع بالبرق.

(7) مقناة أنيق: أي سقاها الله ندى يريد ذات الغمر فأصبحتْ موافقة لكل من نزلها ومقناة أي ملزمة ومنه اقْني حياءك أي الزميه، وأنيق: مُعجِب ، المخاض: الأبل الحوامل لستة أشهر قد تمخض حملها في بطونها، مرب الأبل: الموضع الذي أربت فيه أي لزمته، النَّوازع: تَنْزِع إلى أوطانها.

(8) القِلات: جمع قلت: النقر في الصخر وهي مناقع ماء تكون عظيمة، ولها حدب: للقلات، الحِبب: طرائق الماء، ذو ماوين: مكان.

(9) السِّرُّ: بطن الوادي وأكرم موضعٍ فيه.

لَها هَجَلاتٌ سَهْلَةٌ وَنِجادَةٌ دَكادِكُ لا تُوبَى بِهِنَّ المَراتِعُ(1)

كَأَنَّ يَلَنْجُوجاً وَمِسْـكاً وَعَنْبَراً بِإِشرافِهِ طَلَّت عَـــلَيهِ المَرَابِعِ(2)

لقد شكل الأسر ، ومن هذا الأساس، حالة خطيرة عايشها عدد من الشعراء والقادة والسادة ظهرت ملامحها من خلال الشعر في العصر الجاهلي، فكانوا يحكمون تقييد الأسير بالسلاسل والقيود المختلفة ويضعونه في حفرة أو خيمة ويوكل لأحدهم حراسته، وقد امتازت معاملة الأسرى غالبا بالقسوة والعنف فتعرض الأسير في مواقف كثيرة إلى الإذلال والإهانة الجسدية والنفسية. أما مصير الأسير فكان ينتهي بجز ناصيته والمنّ عليه أو مفاداته بمال أو قتله ثأرا وانتقاما. وقد عظّم المجتمع العربي في العصر الجاهلي من شأن الآسر وقدرته على أسر الأعداء، بينما حقق الآسر مكاسب متعددة في الجانب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.

---

(1) الهجلات: الهجل: بطن من الأرض لين، النجاد: شرف غليظ يلقاك معترضا، دكادك: ليس بمرتفع كالجبل، توبى: تنقطع والعرب تقول في أرض فلان فلات لا توبى أي لا ينقطع ماؤها، المراضع: السحاب، المرابع: الإبل التي لا ترد الماء إلا ربعا او التي تأكل الربيع،

(2) اليلنجوج: العود شبه طيب النبت به، طلّتْ: نديت، المرابع: السحاب تمطر في الربيع أو هي من الإبل التي تنتج أول النتاج الواحدة مرباع.

الفصل الثالث

السّبي في الشعر الجاهلي

شهدتْ الحياة العربية في العصر الجاهلي قبيل الإسلام، حالة من التفكك الاجتماعي والسياسي ساهم في سيادة منطق العنف والقوة في العلاقات القبلية، فكثرت الحروب والغارات بين القبائل، وقد انعكس هذا الأمر على مختلف شرائح المجتمع ومنها المرأة، فشجعت المرأة الرجال على القتال وليس هذا فحسب، وإنما اصطحب المقاتلون النساء أحيانا في غاراتهم وغزواتهم، يمدّنهم بالعزيمة ويحرضنهم على الإقدام في ساحات القتال والانتصار على الأعداء، فكانت النساء عرضة للسبي مما أوجد شرخا كبيرا في العلاقات الاجتماعية في الجزيرة العربية ظهرتْ آثاره ونتائجه على مستوى القبيلة والأسرة الواحدة. قال عنترة العبسي(1): (الرجز)

الْيَوْمَ تَبْلُو كُلُّ أُنْثَى بَعْلَها   فَالْيَوْمَ يَحْمِيها وَيَحْمي رَحْلَها

الإقبال على السبي

لقد رافقتْ المرأة الرجال في الحرب، ففي يوم ذي قار "قام حنظلة بن ثعلبة إلىَ وَضِين راحلة امرأته فقطعه ثم تتبّع الظعن يقطع وُضُنَهُنَّ فسقطن إلى الأرض، فقال: ليقاتلْ كلُّ رجل منكم عن حليليته"(2). وقال الأعشى يؤكد هذا الأمر؛ بأنّ النساء من خلفهم ينظرن بعيون كحل سود، وقد اضطربتْ أكبادهنّ إشفاقاً من هول ما يرين، وحسرنَ عن خدود جرت عليها الدموع، وغيّرها الحزن فَعَلَتْها غَبْرَةٌ مظلمةٌ. وقد كنّ مشرقات تتلألأ وجوههنّ كالمَرْجانة أخرجها الغوّاص من أعماق البحر وقد صانتها الأصداف(3): (البسيط)

---

(1) عنترة العبسي، **الديوان**، ق102: 115.

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 113، وضين: حزام يُشَدُّ به الرحل على البعير (ابن منظور: وضن).

(3) الأعشى، **الديوان**، ق62: 311.

وَظُعْنُنَا خَلْفَنَا كُحْلاً مَدَامِعُها أَكْبَادُها وُجُفٌ مِمّا تَرَى تَجِفُ

حَوَاسِرٌ عَنْ خُدُودٍ عَايَنَتْ عِبَراً وَلاحَهَا وَعَلاهَا غُبْرَةٌ كُسُفُ(1)

مِنْ كُلِّ مَرْجَانَةٍ في البَحْرِ أَخْرَجَها غَوَّاصُهَا وَوَقاها طِينَهَا الصَّدَفُ

وكان حضور المرأة إلى ساحة القتال يعدّ باعثا معنويا وحماسيا لفرسان القبيلة، فكان الفارس يقّدم أقصى درجات القوة والثبات والصبر في قتال الأعداء، فكان "من مثيرات الشجاعة لدى المحاربين ترديد النساء بعض الأناشيد الحماسية التي تشيد بالقبيلة وتصوّر خطر الهزيمة، وتعد الفائزين بخير الجزاء والمكافأة، وقد كان مجرد النظرة إلى المرأة في ساحة القتال، أو قريباً منه كافيا لإلهاب حمية الرجل المحارب وإثارة الحماسة والغيرة في نفسه،"(2) ففي يوم تَحْلاَق اللمم، لمّا اشتدّ القتال وانكشفتْ بكر أمام تغلب، وكادتْ تنهزم، انطلقتْ ابنتا الفِنْد الزِّمَّاني تشجعان فرسان بكر(3):

وَغَى وَغَى وَغَى وَغَى حَرَّ الحَرَار والْتَظَى (مجزوء الرجز)

ومُلِئَتْ منه الرُّبَا يا حَبّذَا المُحَلّقون بالضُّحى

فاندفع مقاتلو بكر ورجالها وشدوا على بني تغلب ففرقوا جمعهم، وردوا عدوانهم، وهزموهم، فمن قتيل وأسير.

ولمّا كانت الحرب لابدّ أن تنتهي بفوز أحد الفريقين، وهزيمة الآخر؛ فكانتْ الأموال عرضة للنهب والنساء عرضة للسبي، فشهدتْ أيام العرب آنذاك، شيوع ظاهرة سبي النساء، وكنّ منالا عزيزًا وصيدًا ثمينًا؛ ففي يوم جِزْع ظِلال أغارتْ بنو فزارة على التّيْم وعديّ وثور أطْحل من عبد مَنَاة

---

(1) كُسُف: جمع كاسف وهو المهموم الذي تغير لونه من الحزن، الغُبرة: لون الغبار (ابن منظور: كسف، غبر).

(2) الجندي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، 40-41.

(3) التبريزي، **شرح ديوان الحماسة**، ج1: 363- 364.

فأخذ يومئذ شُريك بن مالك بن حُذيفة أربعين امرأة من التّيم وعُكْل(1).

لقد كان المقاتلون شديدي الحرص على سبي النساء؛ فهذا عنترة يذكر غارة قومه على الأعداء وقد حققوا النصر عليهم، ثم عادوا بالنهاب وبالسبايا(2): (الوافر)

وَخَثْعَمُ قَدْ صَبَحْـنَـاها صَبَـاحاً بُـكُوراً قَـبْـلَ ما نَـادَى المُنادِي

غَـدَوا لَـمّا رَأَوا مِنْ حَدِّ سَيْفِي نَذيرَ المَوْتِ في الأَرْواحِ حَادي

وَعُـدْنَا بِـالنِّـهابِ وَبِالسَّبايَا وَبِالأَسْـرَى تُـكَبَّــلُ بِالصِّفادِ

لقد كان السبي أحيانا هدفا بذاته، ودافعا قويا لقيام الغارات والغزوات بين القبائل العربية، في يوم فيف الريح لمّا حضرت مَذْحِج، ومعها النساء والذراري، يريدون بني عامر، قام عامر بن الطفيل يحرّض قومه على القتال، ويمنيّهم بالغنائم، فقال: "أغيروا بنا على القوم، فإني أرجو أن نأخذ غنائمهم، ونسبي نساءهم"(3).

وفي المقابل كانت حماية النساء، ومنعهنّ من السبي مسؤولية كبيرة تقع على عاتق فرسان القبيلة قال سلامة بن جندل(4): (الطويل)

ألاَ هَلْ أَتَتْ أَنْباؤُنا أَهلَ مَأْرِبٍ كَما قَدْ أَتَتْ أَهلَ الدَّنا والخَوَرْنَقِ(5)

---

(1) ابن رشيق، أبو على حسن بن رشيق القيرواني الأزدي ت: 463 هـ، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط5، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، 1981م، ج2: 215. وانظر: جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**، 373- 374.

(2) عنترة، **الديوان**، ق48: 65.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 501.

(4) سلامة بن جندل، **الديوان**، ق3: 158- 159، وانظر: **الأصمعيات**، ق41: 148.

(5) أنباؤنا: اخبارنا (ابن منظور: نبأ) الخورنق: قصر في ظهر الحيرة، مأرب: باليمن، الدنا: موضع في البادية في ديار بني تميم بين البصرة واليمامة (معجم البلدان: الخورنق:ج2: 401، مأرب: ج5: 34، الدنا:ج2: 475).

بــانَّــا مَـنَـعْـنَـا بالفَرُوقِ نِساءَنَا ونَــحْــنُ قَـتـلْـنَـا مَـنْ أتانَا بِمُلْزَقِ(1)

لقد كثرتْ حالات السبي، وشاع أمرها، ومن ذلك أنه عندما أغار أبو بردة بن هلال بن عويمر على هوازن في بلادها، انهزمت بنو عامر وبنو نصر، وقَتَل أبو بردة قيس بن زهير أخا خداش بن زهير الشاعر، وسبى نسوةً من بني عامر: منهن صخرة بنت أسماء بن الضّريبة النّصريّ، وامرأتين منهم يقال لهما: بيقر وريًّا(2). وفي يوم النسار، هُزم بنو عامر، وأُخِذتْ نساؤهم سبايا، فتقاسمهن رجال بني أسد فيما بينهم، فكان منهنّ؛ سَلْمَى بنتُ المُحلّقِ، صارتْ لعُرْوة بن خالِدِ بن نَضْلَة الأَسَديّ، والعَنْقَاءُ ابْنَةُ هَمّامٍ من بني أَبي بكر بن كِلابٍ، صارَت لزِيَاد بن زُبَيْر بن وَهْب بن أَعْيَا بن طَرِيفٍ الأَسَدِيّ، وأُمُّ خازِمٍ بنتُ كِلابٍ صارَتْ لأَرْطَاةَ بن مُنْقِذٍ الأَسَدِيّ، ورَمْلَةُ بنتُ صُبَيْحٍ صَارَتْ للحارثِ بن جَزْءِ بن جَحْوَانَ الأَسَدِيّ، وهِنْد بنتُ وَقَّاصٍ صارَت لقَيْس بن عبدِ الله الفَقْعَسيّ وأُمامةُ بنتُ العَدَّاءِ صارَت لأُسامة بن نُمَيْرٍ الوالبيّ(3).

وكان السبي يقع على جميع نساء المجتمع الجاهلي باختلاف مكانتهن، فلم يشفع للمرأة منزلتها وعلوّ مكانتها في قومها من السّبي، فهذه سيدة نساء بني تَميم؛ زينب بنت حِمْير بن الحارث بن همَّام بن رِياح بن يَرْبوع، وقعتْ سبيّة في يد الهُذيلِ بن هُبيرةِ بن حَسَّان التَّغلبيِّ(4).

ومما زاد في انتشار ظاهرة السّبي، طلب الثأر والانتقام من قوم المرأة، والمعاملة بالمثل بين القبائل العربية آنذاك، فمَن تسبى نساؤه لا يرضى ولا تقر نفسه إلا بسبي نساء أعدائه، والثأر لكرامته

---

(1) الفروق: يوم من أيام العرب. مُلْزَق: يوم لبني سعد على بني عامر بن صعصعة.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 94.

(3) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 144- 145. وانظر: جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**،380.

(4) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 93.

وشرفه. فهذا الأفوه الأودي لا يدرك ثأره من بني عامر، وقد كانت بينه وبينهم دماء، إنّهم لا يكتفون بأخذ ثأرهم من أعدائهم، وإنّما يسبون نساءهم أيضا، ويؤكد من خلال هذا الأمر-- سبي النساء-- شجاعة قومه ومنعتهم، فليس لأحد فضل عليهم لعزتهم ومنعتهم(1): (الطويل)

نقـاتِـلُ أَقـواماً فنَسبي نساءهُمْ ولـم يَـرَ ذو عِزٍّ لنسْوَتِنا حِـجْلاَ

نَـقُودُ ونأبَـى أن نُـقَادَ ولا نَرَى لـــقومٍ علينا في مكارمهم فَضْـلاَ

وإنّا بطاءُ المَـشْي عـندَ نسائِنا كما قُيِّدَتْ بالصَّيفِ نَـجْدِيَّةً بُزْلاَ(2)

نـظلُّ غَيَارَى عـندَ كلِّ سَتيرةٍ نُقَلِّبُ جِيداً واضِحاً وشَـوًى عَبْلاَ(3)

أَلا أبْلغا عنِّي يزيدَ بنَ عـامرٍ بـأنّا أُنـاسٌ لا نُـضيـعُ لنا ذَحْلا

وإنَّا لنُعْطي المالَ دونَ دمائِنا ونَـأبـى فما نستامُ دونَ دمٍ عَقْلاَ(4)

وهذا عنترة كانت امرأته تلومه في فرس كان يؤثره على سائر خيله، فقال عنترة يرفض لومها له ويخوِّفها أن تقع سبيّة في أيدي الرجال، فتغدو محمولة على مركبها إلى منازلهم فيتمتعون بها وقد تزيّنتْ، ولذلك فإنه يعتني بفرسه لتكون له نجاة إذا ما حاق به الخطر، فقال عَنترة يخاطب امرأته مبينا لها سبب عنايته بفرسه(5):

إنَّ الـرِّجال لهم إليكِ وَسيلةٌ إنْ يَأخـذُوك تَكَحَّلي وتَخَضَّبِي (الكامل)

ويكونُ مَرْكَبُكِ الْقَعُودَ وَرَحْلَهُ وابْنُ النَّعامَةِ عِـنْدَ ذلِكَ مَركَبي

وأنا امرؤ إن يَأخذُوني عَنْوَةً أُقْرَنْ إلـى شَـرّ الرِّكاب وأُجْنَب

---

(1) الأفوه الأودي، **الديوان**، 100-101.

(2) نَجدية ناجَدَتْ الإبل: غَزُرَتْ وكَثُر لبنها، البُزْل: نوع من الجمال التي انشقت أنيابها أي الفتية القوية (ابن منظور: نجد، بزل).

(3) السّتيرة: المرأة المستورة، الشوى: الأطراف، العبل: الممتلىء التام الخلق، والمعنى أنهم عند نسائهم شديدو الغيرة، وهم يغازلون مستوراتهم وهنّ ذوات أعناق مكشوفة وأيدٍ ممتلئة (ابن منظور: ستر، شوى، عبل).

(4) نستام: نسأل تعيين الثمن، العقل: الدِّيَة (ابن منظور: سوم، عقل).

(5) عنترة، **الديوان**، ق13: 29، القعود: ما اتخذ من الإبل للركوب خاصة، وأراد بابن النعامة: باطنَ القَدم (ابن منظور: قعد).

حرص المقاتلون في العصر الجاهلي على أَخْذِ النساء سبايا حرصا شديدا، لأنهم يحققون بذلك مكاسب كثيرة في الجانب المادي والمعنوي، فعلى الصعيد المادي قد يفادونهنّ بالمال، أو يسخرونهنّ خدما لهم، أو يتزوجونهنّ بلا مهور، أمّا على الصعيد المعنوي فهو دليل على شجاعتهم وقوتهم ومقدرتهم القتالية وبه يحققون مجدا عظيماً على أقرانهم، ويتوّجون به نصرًا كبيرًا على أعدائهم، قال زُهَيْر بن جَنَابٍ يؤكد أن قومه أخذوا سبايا من تغلب، منعمات وجميلات(1):(الخفيف)

وَسَبَيْنا مِنْ تَغْلِبٍ كُلُّ بَيْضا ءَ رَقُودِ الضُّحى بَرُودِ الرُّضابِ(2)

وقال عبيد بن الأبرص(3): (مجزوء الكامل)

وَأَوانِــسٍ مِـثْــلِ الــدُّمى حُـورِ العُيونِ قَـدِ استَبَينا

وكذلك حاجز بن عوف الأزدي يؤكد أن قومه يقودون السّبايا، بعدما يقتلون أعداءهم، فقال في ذلك(4): (الطويل)

فنحن أبحنا بالشَّخِيصَة واهِناً جهاراً فجِئنا بالنّساء نَقُودُها

وسبي النساء لا تقدر عليه إلا القبائل القوية، وكذلك رجالهم مدربون على فنون القتال، فسواعدهم طويلة قوية تحمل رماحا حادة لا يخافون مواجهة الأعداء، قال طُفَيل الغَنَوِيّ في هذا المعنى عندما قتلوا رجال طيىء وأخذوا نساءهم سبايا(5): (الوافر)

سَمَونا بِالجِيادِ إِلى أَعادٍ مُغاوِرَةً بِجِدٍّ وَاعتِصابِ

---

(1) زهير بن جناب، **الديوان**، ق4: 62.
(2) الرُّضاب: الرِّيق المرشوف، البَرود: ما يُبْرِد الغُلَّةَ من الشراب (ابن منظور: رضب، برد).
(3) عبيد بن الأبرص، **الديوان**، ق46: 120.
(4) الأصفهاني، **الأغاني**، ج13: 149.
(5) طفيل الغنوي، **الديوان**، ق4: 128– 130.

نَؤُمُّهُمُ عَلى وعْثٍ وَشَحطٍ   بِقُودٍ يَطَّلِعنَ مِن النِّقابِ(1)

طِوالُ السَّاعِدَينِ يَهُزُّ لَدْناً   يَلوحُ سِنانُهُ مِثلَ الشِّهابِ(2)

وَلَو خِفناكَ ما كُنّا بِضُعفٍ   بِذي خُشُبٍ نُعَرِّبُ وَالكُلابِ(3)

وَقَتَّلنا سَراتَهُمُ جِهاراً   وَجِئنا بِالسَّبايا وَالنِّهَابِ

سَبَايا طَيِّءٍ أُبرِزْنَ قَسراً   وَأُبدِلْنَ القُصورَ مِنَ الشِّعابِ

فَسُمناهُم فَمُصطَبَحٌ قَليلاً   وَآخَرَ كارِهٌ بعض المآبي(4)

سَبايا طَيِّءٍ مِن كُلِّ حَيٍّ   نما في الفَرعِ مِنها وَالنِّصابِ(5)

وَما كانَت بَناتُهُمُ سَبِيّاً   وَلا رَغَباً يُعَدُّ مِنَ الرِّغابِ(6)

وَلا كانَت دِماؤُهُمُ وَفاءً   لَنا فيما يُعَدُّ مِنَ العِقَابِ

وهذا قيس بن الحِداديَّة جمع قومه، فأغار على جموع هوازن، فأصاب سبياً ومالاً، وقتل يومئذٍ من بني قُشَيْرٍ، أبا زيد وعروة وعامراً ومُرَوِّحاً، وأصاب أبياتاً من كلاب خلوفاً واستاق أموالهم وسبى نساءهم، ثم انصرف وهو يقول --مستعرضا قوة قومه وشدتهم-- إنهم أخذوا السّبايا بقوة سيوفهم ورماحهم(7): (الوافر)

---

(1) نؤمهم: نقصدهم، الوعث: من الرمال ما غابت فيه الأرجل، الشّحط: البعد، القُود: جمع أقود قوداء وهو السلس الانقياد، والقَود بالفتح الخيل (ابن منظور: أمم، وعث، شحط، قود).

(2) اللدن: اللين من كل شيء من عود أو حبل (ابن منظور: لدن).

(3) ذو خشب: وادٍ على مسيرة ليلة من المدينة. الكلاب: موضع بين الدّهناء واليمامة (ابن منظور: خشب، كلب).

(4) ورد البيت دون كلمة بعض، واقترح محقق الديوان إضافتها ليستقيم وزن البيت.

(5) النّصاب والمنصب: الأصل والمرجع (ابن منظور: نصب).

(6) الرِّغاب: الأطماع، يريد أن نساءهم كنّ محميات لا يطمع بهنّ (ابن منظور: رغب).

(7) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 94- 95.

وأُبْنا بإبْلِ القوم تُحدى ونسوةٍ يبكِّــين شِـلْواً أو أســيراً مُجرَّحا(1)

غداةَ سَقَينا أرضَهم من دمائهم وأبنا بأُدْمٍ كـنّ بالأمــس وُضَّــحا(2)

ورُعْنا كــلاباً قــبل ذاك بِغارة فسُقْنا جِلاداً في المبارِكِ قُرَّحا(3)

لــقد علــمتْ أَفناءُ بكر بنِ عامرٍ بــأَنَّا نَـذودُ الكــاشحَ المتزحزِحا

وأَنا بلا مَهرٍ سوى البِيض والقَنا نُصــيب بأَفــناء القــبائلِ مَنــكَحا

وأغار زيد الخيل على بني مرة بن غَطَفَان، فأسر الحارث بن ظالم وامرأته، فلما ضربوا السهام ليقتسموا السبايا كانت إحداهنّ من نصيب لقيط بن حازم ، وقال يذكر ذلك(4): (الطويل)

ألاَ هَلْ أتى غَوْثاً ورُومانَ أننا صَبَحْنا بني ذُبْيانَ إحْدَى العَظَائمِ(5)

وسُقْنا نساءَ الحيِّ مُرَّةَ بالقَنا وبالخيلِ تَرْدِي قد حَوَيْنا ابنَ ظالمِ

جَنِيباً لأعضاد النواجي يَقُدْنَه على تَعَبٍ بين النَّواجِي الرَّواسمِ(6)

يقولُ اقبلُوا مِنّي الفداء وأَنْعِمُوا عليّ وجُزُّوني مكانَ القَوَادِمِ

وسائِلْ بنا جارَ ابْنِ عَوْفٍ فقد رأى حليلتَه جالَتْ عليها مقاسمي

تُلاعب وُحْدَان العَضاريط بَعْدَمَا جَلاَّها بِسَهْمَيه لقيطُ بن حازِم

---

(1) تحدى: تساق، الشلو: كل مسلوخ أُكِل منه شيء وبقيت منه بقية.

(2) بأدم: بسبايا من النساء والأدمة: السمرة. وضحا: بيضا. والمعنى: صرن أدما لشدة ما قاسيين من ذل السبي.

(3) الجلاد من الأبل: الغزيرات اللبن. القُرَّح: جمع قارح وهي الناقة أول ما تحمل.

(4) زيد الخيل، **الديوان**، ق33: 157-158.

(5) الغوث: طيء، وروما‏ن: من بطونها، وبنو ذبيان من غطفان وبنو مرّة غطفانيون.

(6) النواجي: جمع ناجية وهي الناقة السريعة. الرواسم: جمع رسوم، وناقة رسوم إذا كانت تؤثر في الأرض من شدة الوطء. الأعضاد: جمع عضد، وجنيبا لأعضاد النواجي: مشدود إليها بالحبال (ابن منظور: نجا، رسم، عضد، جنب).

أغرّك أنْ قيل ابنُ عوف ولا أرى   عَزِيمك إلاّ وَاهِياً في العزائم

غداة سَبَيْنَا مِنْ خَفاجة سَبْيَها   ومرَّتْ لَهُم مِنّا نُحوسُ الأشائم

فمن مُبلِغٌ عني الخزارجَ غارةً   على حيّ عوفٍ موجفاً غيْرَ نائم(1)

وثأَّرَ ضَمرةُ بنِ ضَمْرةِ النَّهشليّ من بني أسد، فأغار عليهم في يوم ذات الشُّقوق، فقتل منهم وأخذ نساءهم سبايا، فقال(2): (الكامل)

الآنَ ساغَ ليَ الشَّرابُ ولم أَكُن   آتي التِّجار ولا أَشُدّ تَكلُّمي

حتى صَبحْتُ على الشُّقوق بغارةٍ   كالتَّمر يُنْثر في حَرِير الحُرَّم

وأبأتُ يوماً بالجفَار بمثلِهِ   وأجرتُ نِصفاً مِن حَديث المَوْسِمِ

ومشتْ نساءٌ كَالظباءَ عواطلاً   من بين عارفة السِّباء وأيِّمِ

أما حاتم الطائي فإنه يؤكد قوة قومه بقوله إنهم يتزوجون النساء بحد السيوف بعد أن يأخذوهنّ سبايا(3): (الطويل)

وما أنْكَحُونَا طائِعينَ بَناتهمْ   ولكنْ خَطَبْنَاها بأسْيافِنَا قَسْرَا

وأغار زيد الخيل على بني سليم فهزمهم، وأخذ أم الأسود امرأة عباس بن أنس، فتمنعتْ عنه، فقال يفخر في ذلك(4): (الطويل)

---

(1) موجفا: مغيرا عليهم بخيل وإبل سريعة (ابن منظور: وجف).

(2) ابن عبدربه، **العقد الفريد**، ج6: 99- 101. التِّجار: بائع الخمر.

(3) حاتم الطائي، **الديوان**، ق111: 298، وعواطل: جمع عاطل وهي المرأة التي خلتْ من الحلي (ابن منظور:عطل).

(4) زيد الخيل، **الديوان**، ق8: 92.

ألاَ وَدَّعَتْ جيرانَها أمُّ أسْوَدَا   وضَنَّتْ على ذي حاجَةٍ أن يُزوَّدا

وأَبْغَضُ أخْلَاقِ النِّساء أشَدُّه   إليّ فلا تُولِنَّ أهْلي تَشَدُّدا

ويرى النابغة الجعدي أنّ من إمارات العزّة والفخار التي تعدّ لقومه؛ أخذ السبايا والزواج بهنّ فقال(1): (الطويل)

وَمَهْمَا يَقُلْ فِينَا العدُوّ فإنّهُم   يقولون مَعْرُوفاً وآخرَ مُنكرا

فما وَجَدَتْ مِنْ فِرْقَةٍ عَرَبِيّةٍ   كَفيلاً دَنَا مِنّا أعَزَّ وأَنْصَرَا

وَأَكْثَرَ مِنّا ناكِحاً لِغَريبةٍ   أُصِيبَتْ سِباءً أو أرادَتْ تخَيُّرا

وقد أقرّ المجتمع الجاهلي السبي، والاستمتاع بالسبايا بعد أخذهن، ونظر إلى السّابي نظرة إعجاب وتكريم، وكانوا يمدحون القادة والسادة ورؤساء القبائل بقدرتهم على أخذ السبايا اللواتي يتصفن بالجمال والحسن، فهذا الأعشى يثني على ممدوحه، قيس بن مَعْدِ يكرب، بأخذه السبايا المنعمات الجميلات، وقد استمتع بهن، فقال في ذلك(2): (المتقارب)

فَيَا رُبّ نَاعِيَةٍ مِنْهُمُ   تَشُدّ اللِّفَاقَ عَلَيْهَا إزَارَا(3)

تَنُوطُ التّمِيمَ وَتَأبَى الغَبُو   قَ مِنْ سِنَةِ النّوْمِ إلاّ نَهَارَا(4)

مَلَـــكْتَ فَـعَـانَـقْتَهَـا لَـيْـلَةً   تَـنُصّ القُعُودَ وَتَدْعُو يَسَارَا(5)

---

(1) القرشي، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، 627- 628، وانظر: النابغة الجعدي، **الديوان**، ق26: 69-70.

(2) الأعشى، **الديوان**، ق5: 49.

(3) اللّفاق: لَفَقْتُ الثوب: هو أن تضمّ شقة إلى أخرى فتخيطهما (ابن منظور: لفق).

(4) تنوط: تعلق، التميم: التَّميمَة عُوذَة تعلق مخافة الحسد، الغبوق: شرب آخر النهار (ابن منظور: نوط، تمم، غبق).

(5) نصّ الشيء: رفعه ونص الرجل عنقه نصبه (ابن منظور: نصص) يسار: شعار لهم بالخير.

وقال عَمْرو بن يَرْبُوع بن طَرِيف الغَنَوِيّ وقد اتخذ الرجالُ السبايا زوجات لهم(1): (المتقارب)

فسائل جُذاماً ولخماً بنا ويَحْصُبَ من بعد خَوْلانها
ومَذْحِجَ يُنْبُوكَ عن حربنا وما كنت تجهل من شانها
نكحنا نساءَهُمُ عَنْوَةً ببيضِ الصِّفَاح ومُرَّانها(2)

وقال مُعَقِّر البارِقِيّ(3): (الوافر)

تَرَكْنا الشِّعْبَ لَمْ نَعْقِلْ إِلَيْهِ وَأَسْهَلْنا كَما عَلِمَ الحَلِيفُ(4)
نَسُوقُ بِهِ النِّساءَ مُشَمِّراتٍ يُخالِطُها مَعَ العَرَقِ الخَشِيفُ(5)
إذا استَرَخَتْ حِبالُ القَومِ شُدَّتْ وَلا يَثْنَي لِقائِمَةٍ وَظيفُ(6)

وفي يَومُ عَاقِلٍ أَغَار الهُذَيلُ بن هُبَيْرَةَ التَّغلبيُّ على بني أَسَدِ بن خُزَيمةَ، وأصابَ نِسَاء من بني غَاضِرَة ، فقال الهُذَيلُ(7) : (الطويل)

أَلمْ يَأْتِ أَحْيَاءَ الأَرَاقِمِ أَنَّنَا وَطِئْنَا قُعَيْناً وَطْأَةَ المُتَثَاقِلِ
وحيّ بَنِي الصَّيْداءِ نِلْنَا حَرِيمَهمْ غَدَاةَ التَقَيْنَا يومَ بُقْعَةِ عاقِلِ
وأَسْرَى تَهَادَى في القِيَادِ ونِسْوَةٌ قُعَيْنِيَّةٌ مثْلُ الظِّباءِ الخَوَاذِلِ(8)

---

(1) الآمدي، **المؤتلف والمختلف**،202- 203.
(2) المُرّان: الرّماح (ابن منظور: مرن).
(3) منتهى الطلب، ج8: 268.
(4) الشعب: شعب الجبل، عقل: لجأ وأعتصم، أسهلنا: نزلنا السهل (ابن منظور: شعب، عقل، سهل).
(5) الخشيف: الماء الجامد ، مشمرات: رفعن ثيابهن فبدت محاسنهن فهن أسيرات سبايا(ابن منظور: خشف، شمر).
(6) القائمة: مفرد قوائم الدابة، الوظيف: مستدق الذراع والساق من الخيل والإبل ونحوهما (ابن منظور: قوم، وظف).
(7) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، 240- 241.
(8) الخواذل: أن يتخلف الظبي عن القطيع (ابن منظور: خذل).

وقال الأخْنَس بن شِهاب في يوم غَبْغَب(1): (المتقارب)

وأُبْنَـا بـكُـلِّ فَـزَارِيَّـةٍ مُـهَـفْـهَفَةِ الكَشْحِ كالرَّبْرَبِ
وأُبْـنا بـقِـرْنٍ لَـنا نـاطِحٍ وآبــو بـقـرْنٍ لَـهُمْ أَعْضَبِ

وانتقم حاجز الأزديّ من بني هلال وسيدهم ضمرة بن ماعز، عندما قتلوا جماعة من الأزد فلم يرض بقتل رجالهم فقط، وإنّما أخذ نساءهم سبايا، فأصبحن حزينات باكيات قد أُردفن على الرواحل، مما يؤكد حرصه الشديد على سبي النساء، كدليل قاطع على التفوق والنصر ثم إلحاق الهزيمة والعار بالأعداء، فقال يخاطب ضمرة(2) : (الكامل)

يا ضَمْرُ هلْ نلْناكُمُ بدمائِنا أَمْ هَل حَذَوْنا نَعْلَكُمْ بِمِثالِ
تبكي لِقتْلَى من فُـقَـيْمٍ قُتِّـلوا فاليومَ تَبْكِي صادقاً لِهلالِ
ولقد شـفاني أَنْ رأيْتُ نـساءَكُمْ يَبْكِينَ مُـرْدَفَـةً عـلـى الأكْـفالِ
يا ضَمْرُ إنَّ الحَرْبَ أَضْحتْ بينَنا لَـقِـحَتْ على الدَّكَّاءِ بـعد حِيالِ

وقال طُفَيل الغَنَويّ في هذا المعنى(3): (الطويل)

فنِلنا بِقَتلانا مِنَ القَوْمِ مِثلَـهُمْ وَبِالمُـوثَـقِ المَـكْلوبِ مِنَّا مُكَلَّبُ
وَبِالنَّعَمِ المأَخُوذِ مِثْلُ زُهـائِهِ وَبِالسَّبي سَبْيٌ وَالمُحارِبِ مِحْرَبُ
وَبِالمُردَفَاتِ بَعدَ أَنعَم عيشَةٍ عَلى عُـدَواءٍ وَالعُـيُـونُ تَصَبَّبُ
عَذارِيَ يَسْحَبْنَ الذُّيُولَ كَأَنَّها مَعَ القَوْمِ يَنْصُفْنَ العَضَارِيطَ رَبْرَبُ
إلى كُلِّ فَرعٍ مِن ذُؤابَةِ طَيّءٍ إذا نُـسِبَـتْ أَو قِـيلَ مَـن يَتَنَسَّبُ

---

(1) **السابق**، 243- 245.
(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج13: 151.
(3) طفيل الغنوي،الديوان، 64، ينصفن: يخدمن، ربرب: قطيع البقر (ابن منظور: نصف، ربرب).

المنع من السبي

أحاط المجتمع العرب في العصر الجاهلي المرأة بعناية شديدة، فهي شرفهم وعرضهم، وبحمايتها تتحق كرامتهم، ويعلوا مجدهم، وتسموا مفاخرهم، فعظَّموا شأن مَنْ يمنعون نساءهم من السّبي فعزّوا بذلك، وتغنّوا بحمايتهنّ، فكانت حماية نساء القبيلة، والدفاع عنهنّ، واجبٌ على جميع أفراد القبيلة لا يتخاذل فيه إلا قليل المروءة. قال عنترة العبسيّ(1): (الوافر)

وَلِـي فـي كُلِّ مَعْرَكَةٍ حَدِيثٌ إذا سَمِعَتْ بِهِ الأَبْـطَالُ ذَلّـوا

قَطَعْتُ رِقَـابَهُم وَأَسَرْتُ مِنْهُمْ وَهُمْ في عِظَمِ جَمْعِهِمِ اِستَقَلُّوا

وَأَحْصَنْتُ النِّساءَ بِحَدِّ سَيْفِي وَأَعْدَائي لِعَـظْـمِ الخَـوْفِ فُلُّوا

وكلّ فرد منوط به حماية المرأة، ولا تقتصر حماية المرأة على أقارب الرجل؛ كالأم، أو الأخت، أو الزوجة، وإنما تمتدّ لتشمل سائر نساء القبيلة، بل ومَنْ كان في جوارهم(2). قال عبيد بن الأبرص(3): (الكامل)

إنّا إذا عَضَّ الثِقافُ قَـناتَنا حالَت وَرامَت ثَمَّ خَيرَ مَرامِ

نَحمي حَقيقَتَنا وَنَمنَعُ جارَنا وَنَـلُفُّ بَـينَ أَرامِلِ الأَيتامِ

لقد كان دفاع الرجل عن نسائه، ونساء قومه وجيرانه، تأكيدا لقوة قبيلته، ومنعتها، فلا تكون نساؤهم سبايا لدى الأعداء، ولا يُقرب حماهم، لا تُنتهك حرماتهم، فيعظم عزّهم بين القبائل، وتُهاب شوكتهم، فلا يطمع بهم غازٍ، ولا يقربهم عادٍ. فهذا الفارس عمرو بن معـد يكرب يقول لما رأى النسوة يجرين خائفات فتؤثر الأرض الصلبة في أقدامهن، وفيهن حبيبته لميس كالبدر وقد كشفت

---

(1) عنترة العبسي، **الديوان**، ق104: 115.

(2) انظر: ضيف، **البطولة في الشعر الجاهلي**، 33.

(3) عبيد بن الأبرص، **الديوان**، 115.

عـن محاسن لم يرها من قبل فيها، فاشتدت عزيمته ولم ير بـدا إلا الهجوم على الأعداء ومنازلتهم(1): (مجزوء الكامل)

لَمَّا رَأَيْـتُ نِـسـاءَنـا يَفْـحَصْنَ بالمَعْزاءِ شَـدًّا(2)

وبَـدَتْ لَـمِـيسُ كـأَنَّـها قَـمَـرُ الـسَّـماءِ إذا تَبَدّى(3)

وبَـدَتْ مَـحاسِنُها التي تَـخْفَـى وكـانَ الأَمْرُ جِدّا

نـازَلْـتُ كَبْشَـهُـم ولَـمْ أَرَ مِـن نِـزالِ الكَبْشِ بُدّا(4)

وقد تتعرض الأسرة الضيقة -- الرجل وزوجته وأولاده-- في المجتمع الجاهلي لخطر التفكك والانهيار بسب حالات السبي، فكانت المرأة تعلن صراحة تخليها عن زوجها إذا لم يكن قادرا على حمايتها من السبي، بينما كان يؤكد الرجال قدرتهم على حمايتهن ومنعهن، فهذا عمرو بن كلثوم يقرر أنهم يصطحبون نساءهم معهم في حروبهم وغاراتهم؛ لأنهم واثقون بقدرتهم على تحقيق النصر وهزيمة الأعداء، بل وأنهم سيأخذون فرسانهم أسرى مكبلين بالقيود، فجميع القبائل تستجير بغيرها مخافة لقائهم(5): (الوافر)

عَـلَى آثَـارِنَـا بِـيْـضٌ حِسَانٌ نُـحَـاذِرُ أَنْ تُقَسَّـمَ أَوْ تَهُوْنَا

أَخَـذْنَ عَـلَى بُـعُـوْلَتِهِنَّ عَهْداً إِذَا لاَقَـوْا كَـتَائِـبَ مُعْلِمِيْنَا

لَـيَـسْتَـلِبُـنَّ أَفْرَاسـاً وَبِيْضاً وَأَسْرَى فِـي الحَـدِيْدِ مُقَرَّنِـيْنَا

تَـرَانَـا بَـارِزِيْـنَ وَكُـلُّ حَـيٍّ قَـدْ اتَّـخَـذُوا مَخَافَتَـنَا قَرِيْناً

---

(1) البصري، **الحماسة البصرية**، 169.

(2) يفحصن: يؤثرن في الأرض من شدّة عدوهن حتى يصير بها آثار كالأفاحيص وهي أماكن القطا، المعزاء: الأرض الصلبة ذات الحجارة، وإنما عدون إشفاقا من السباء (ابن منظور: فحص، معز).

(3) أي تبدي وجهها إنما كان لما داخلها من الرعب أو لتشبيهها بالإماء حتى تأمن السباء.

(4) الكبش: رئيس القوم وقائدهم (ابن منظور: كبش).

(5) عمرو بن كلثوم، **الديوان**، ق32: 87- 88.

إِذَا مَا رُحْنَ يَمْـشِيْــنَ الـهُوَيْنَا كَمَا اضْطَرَبَتْ مُتُوْنُ الشَّارِبِيْنَا
يَقُـتْـنَ جِيَـادَنَـا وَيَقُلْـنَ لَسْتُمْ بُـعُوْلَتَنَـا إِذَا لَــمْ تَـمْنَعُــوْنَا
ظَعَائِنَ مِنْ بَنِي جُشَمِ بِنْ بِكْرٍ خَلَـطْنَ بِمِيْسَمٍ حَسَــباً وَدِيْنَا
وَمَا مَنَعَ الظَّعَائِنَ مِثْلُ ضَـرْبٍ تَــرَى مِنْهُ السَّوَاعِدَ كَالقُلِيْـنَا

والرجال لا عذر لهم إنْ لم يمنعوا النساء من السبي، بل إنّهم يهلكون أنفسهم في ساحات القتال أمام زوجاتهم ونسائهم، على الفرار، فقالت العرب: "الفحل يحمي شَوْله معقولا"(1) وقال حُرَيْم بن الحارث التَّيميّ في هذا المعنى يذكر فضل بني لجيم لمّا منعوا النساء من السبي في ذي قار(2): (الطويل)

وإنّ لُـجَيماً أهــلُ عزٍّ وَثَرْوَةٍ وأهــلُ أيــادٍ لا يُـنـالُ قَـديمُها
همُ مَنَعُوا في يومِ قارٍ نِساءَنا كما مَنَع الشَّولَ الهِجانَ قُرومُها
إذا قِيلَ يوماً أقدِمُــوا يتقَدَّموا وهل يمنعُ المخْزاةَ إلا صَمِيمُها

وقال سحيم بن وثيل الرّياحي يؤكّد على حماية حريمهم في يوم ذي نَجَب، وأنهم يقتلون من يقترب من ديارهم(3): (الطويل)

ونـحنُ ضـربْنا هامةَ أبن خُوَيلد يـزيـد وضـرَّجْـنا عبيدةَ بالدمِ
بذي نَجَبٍ إذ نحن دون حريمنا على كل جَيَّاش الأجاريّ مِرْجَم

وربيعة بن مقروم الضبي يؤكد على قوّة فرسان قومه ومقاتليهم، بأنهم طوال الرماح لا يتأخرون عن نجدة المستغيث، ويسشتهد على ذلك بأنهم يمنعون نساءهم من السبي(4): (المتقارب)

---

(1) ابن فورجة، **الفتح على أبي الفتح**، 179.
(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج24: 48، قرومها: السادة (ابن منظور: قرم).
(3) الحموي، معجم البلدان، ج5: 261. وانظر: جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**، 366. ابن خويلد: يزيد بن الصعق، الأجاري: ضروب من الجرى، مِرْجَم: شديد (ابن منظور: جرى، رجم).
(4) المفضل الضبي، **المفضليات**، ق38: 183.

طـوال الرّماح غـــداة الصّباح ذوو نَـــجْــدَةٍ يــمنـعون الـحريما

وقال عنترة أيضاً في هذا المعنى يرثي مالك بن زهير العبسي(1): (الطويل)

وكانَ فتى الـهَيْجاءِ يَحْمِي ذمارَها وَيَـضْرِبُ عِنْدَ الْكَرْبِ كلَّ بَنانِ

وقال ابن قِردٍ الخَنْزِيرُ التَّيمِيّ، يصف قوة بني لجيم وإقدامهم وشجاعتهم في ساحة القتال، وحمايتهم للمحارمِ، والدفاع عنهنّ، يوم يكره الفرسان لقاء الأعداء، من شدّة المعركة(2) :

هُم ضَرَبُوا الكتائبَ يومَ كِسْرى أمامَ النَّاسِ إذْ كَـرِهُوا الجِلادا (الكامل)

وهُمْ ضَرَبُوا القِبابَ بِبـطْنِ فَلْجٍ وذادُوا عــن مـــحارِمنا ذِيادا

وقال قيس بن الخَطيم في يوم بُعاث يذكر أنّهم منعوا نساءهم وحافظوا عليهنّ، بينما الآخرون تركوا نساءهم للخزي والعار والذل(3): (الطويل)

وإنّا مَنَعْنا في بُعَاثٍ نِساءنا وما مَنَعَتْ مِ لْمُخْزياتِ نِساءها

ويَعتبر المطوّح بن عثمان التغلبي أنّ منع النساء وحمايتهن أمرٌ مسلكه صعب، ولا يدركه إلا الفارس الشجاع، المعتز بقومه المقاتلين والغالبين دائماً أعداءهم، الذين يأخذون نساء أعدائهم غصباً سبايا، بينما هم يمنعون نساءهم من السّبي، وأموالهم من النهب؛ فمنازلهم منيعةٌ لا يقربها معتدٍ. وقال في ذلك(4): (الطويل)

إذا فــخـرتْ يوماً نُمير فقل لها ذروا الفخر إنَّ الفخر مسلكه صعبُ

نـفاكم عــن الدَّار التي كنتمُ بها رجــال كــرام مــن بني تـغلب غُلبُ

---

(1) عنترة، **الديوان**، ق151: 202.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج24: 47.

(3) قيس بن الخطيم، **الديوان**، ق1: 51.

(4) الخالديان، **الأشباه والنظائر**، ج1: 93.

هم أنكحوا بالغصبِ من فتياتكم | جــهـاراً ومن شرِّ المجاهرة الغصبُ
ومــا كــانَ منَّــا عند قوم سبيَّة | ومــا كــانَ مـن أموالنا عندهم نهبُ
ومــا نـالنا من معشر في ديارِنا | ولا طَـرَدتْـنا عــن مـنـازلنا الحَربُ

ويؤكد الحارث بن غزوان الزيديّ التغلبيّ على منع نسائهم، فلم تسبَ لهم امرأة قط ، فينكر أن يكون لهم تحت السماء ابنٌ من أختٍ مسبيّة قد ضرب سابوها عليها القدح لأيّهم تكون؛ لعزّهم وسطوتهم. قال غزوان(1): (الوافر)

وما تحتَ السماء لنا ابن أخت | بــمُـردفةٍ عــليها الــقدحُ جالا

وقال زيد الخيل(2): (الطويل)

لقد علمَتْ نَبْهَانُ أنّي حميتُها | وأنــي منعتُ السَّبْيَ أنْ يتبدَّدَا

أما بشر بن أبي خازم فيذكر شجاعة قومه في الدفاع عن النساء البيض الحسناوات، عندما يشتد لظى الحرب، وتخاف النساء الكريمات المخدّرات، ويحزن حين تشتد الأمور وتكثر المخاطر فيفخر بحماية نسائهم، ونساء من يلوذون بهم من السبي، بسيوف مهندة صارمة(3): (الوافر)

فَـسائِـل عـامِـراً وَبَـني نُمَيرٍ | إذا مـا البيضُ ضَيَّـعَها الـمُضيعُ
إذا ما الحَربُ أَبــدَت ناجِذَيها | غَـداةَ الـرَوعِ وَاِلـتَـقَتِ الـــجُموعُ

---

(1) الخالديان، **الأشباه والنظائر** ، ج1: 93.

(2) زيد الخيل، الديوان، ق10: 98، وانظر، الأصفهاني، **الأغاني**، ج17: 189.

(3) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، 27: 99.

بِنا عِندَ الحَفيظَةِ كَيفَ نَحمي   إذا مــا شَــفَّها الأَمرُ الفَظيعُ(1)

عَقـائِـلَـنا وَنَـمـنَـعُ مَــن يَلينا   بِـكُـلِّ مُـهنَّـدٍ صــافٍ صَـنيعُ(2)

وهذا طُفَيل الغَنَويّ يطلب من بني جعفر بن كلاب أن لا يكفروا فضله، وشجاعة قومه؛ حين استغاثهم عامر بن الطفيل، فأغاثوه بتخليص النساء وحمايتهن من السبي، فذكر شجاعة قومه في يوم حِرْس، بينما النساء مفزوعات خائفات، يركضن مذعورات متعجلات قد أنساهنّ الخوف الاسستتار، فذكر منهنّ الراكضة، وهي بنت طُفَيل بن مالك، فارس قرزل، وذلك أنها خرجت عريانة مذعورة، فاعرورت بعيراً لها لتهرب عليه، وغادرت حلالها مطروحاً، -- وهو مركب من مراكب النساء-- فلم ترحله للعجلة، والذعر، فقال لها طُفَيل أنْ لا تفزع ولا تجزع، وأن تتأمل من يحميها اعتداداً بقومه؛ فهم القادرون على حمايتها. وقال طُفَيل في ذلك(3):   (الطويل)

بَــني جَـعـفَـرٍ لا تَـكفُروا حُسنَ سَعينا   وَأَثـنـوا بِحُـسنِ الــقَولِ في كُلِّ مَحفَـلِ

وَلا تَـكـفُـروا فـــي الــنـائِباتِ بَلاءَنا   إِذا مَـسَّـكُم مِـنـــها الـعَدوُّ بِكَلكَلِ(4)

فَـنَـــحنُ مَـنَعنا يَــومَ حِـرسٍ نِساءَكُم   غَـداةَ دَعــانـا عــامِرٌ غَيرَ مُؤتَلي(5)

دَعـــا دَعــوةً يالَ الـجُـلَـيحَاءِ بَـعدَما   رَأى عُرضَ دَهمٍ صَرَّعَ السِربَ مُثعَلِ(6)

فَـقالَ اِركَـبوا أَنــتُم حُـمَـاةٌ لِـمِــثلِها   فَـــطِـرنــا إِلَـى مَـقـصورَةٍ لَم تُعَبَّلِ(7)

---

(1) الحفيظة: الغضب لحرمة تنتهك من حرمات الرجل (ابن منظور: حفظ).

(2) العقائل: جمع عقيلة وهي المرأة الكريمة (ابن منظور: عقل).

(3) طفيل الغنوي، **الديوان**، ص90- 95.

(4) الكلكل: الصدر(ابن منظور: كلل)، حرس: موضع ماء لغنى(معجم البلدان،ج2: 241).

(5) مؤتلي: أي لا يألون أي يبطئون (ابن منظور: ألا).

(6) الجليحاء: شعار بني غنيّ فيما بينهم، صرَّع السرب: فرّقه والسّرب هنا المال، والسرب جمع البقر والظباء والقطا، المثعل: الكثير (ابن منظور: صرع، سرب، ثعل).

(7) مقصورة: محبوسة عند البيوت، لم تعبّل: عبّله: طرحه (ابن منظور: قصر، عبل).

طِـوالُ الـذُّنـابى أُتـرِفَت وَهيَ جَـــونَـةٌ   بِـلَـبسَـةِ تَـسبيغٍ وَثَـــوبٍ مُـوَصَّلِ(1)

فَـجاءَت بِـفُرسانِ الصَّــباحِ عَـوابِساً   سِـــراعاً إِلى الهَيجا مَعاً غَيرَ عُزَّلِ(2)

فَأَحـمَشَ أَولاهُـم وَأَلْــحَقَ سِـــــربَـهُم   فَـــوارِسُ مِـنّــا بِـالـقَـنا المُـتَنَخَّلِ(3)

فَـحـامى مُـحامينا وَطَــرَّفَ عَـنهُمُ   عَصـــائِبُ مِنّا فــي الوَغــى لَـم تُهَلَّلِ

رَدَدنـا السَّـبايـا مِـن نُـفَـيلٍ وَجَعفَرٍ   وَهُــنَّ حَـبالى مِـن مُـخِـفٍّ وَمُثقِلِ(4)

وَراكِـضَــةٍ مـا تَستَـــجِنُّ بِــجُنَّــةٍ   بَــعيـــرَ حِـلالٍ راجَـعَتهُ مُجَعفَلِ(5)

فَـقُـلـتُ لَـها لَـمّا رَأَيــتُ الَّذي بِـها   مِـــنَ الـشَـرِّ لا تَستَوهِلي وَتَأَمَّلي(6)

فَإِن كانَ قَومـــي لَيسَ عِندَكِ خَيرُهُم   فَإِنَّ سُـــؤالَ الـنَّــاسِ شَـافيكِ فَـاسأَلي

ومُـسْـتَـلـحِمٍ تـحت العَوَالي حَـمَيْتُه   مُـعَـمِّمِ دَعــوى مُـسْـتَـغـيثٍ مُجَلَّلِ(7)

فَـفَـرَّجــتُ عـنه الكَرْبَ حتى كأنما   تـأوَّى مـن الـهـيجا إلى حَوزِ مَعْقِلِ(8)

مُـشِـيْـفٍ على إحــدى اثنتين بنفسه   فُـوَيـتَ المَـعالي بيـــن أسـرٍ ومَقْتَلِ(9)

---

(1) جونة: الجَون من الخيل شديد السواد (ابن منظور: جون).

(2) الأعزل: الذي لا سلاح معه (ابن منظور: عزل).

(3) أحمشهم: أوقدهم، أي طعنوهم طعنا شبيها بوقود النار، المتنخّل، انتخلتُ الشيء: استقصيت أفضله (ابن منظور: حمش، نخل).

(4) مثقل: يقال مثقل إذا عظم بطنها، المخفّ التي لا يثقلها بطنها(ابن منظور: ثقل)، نفيل وجعفر: قبيلتان.

(5) راكضة: تركض بعيرا تعديه، ما تستجن: ما تستتر، المجعفل: المقلوب (ابن منظور جنن، جعفل).

(6) لا تستوهلي: لا تجزعي، تأملي: انظري (ابن منظور: وهل، أمل).

(7) المستلحم: الذي أُسِر وظَفِر به أعداؤه، والمعمِّم: الذي يدعو الأب الكبير كقولك: يال تميم، يال قيس، المجلِّل: الذي يدعو بدون ذلك نحو: يال سعد (ابن منظور: لحم، عمم).

(8) فرّجت: كشفت، تأوَّى: عاد، الحوز: الحوز من الأرض أن يتخذها رجل ويبين حدودها فلا يكون لأحد فيها حق معه، والمعقل: الحرز (ابن منظور: فرج، أوا، حوز، عقل).

(9) المُشِيف: المشرف، أي اشرف على إحدى اثنتين: أسرٍ وقتل، فويت، فاتني الأمر: ذهب عني، أي حين تفوت المعالي (ابن منظور: شوف، فوت).

بـــرَمَّـــاحَـــةٍ تَـنـفِـي الـتُّـــرابَ كأنَّها   هَـــرَاقَـةُ عَـقٍّ مــن شَـــعيبَيْ مُعَجَّلِ(1)

إذا نَــظَــرَتْ فـــيه الحَـفِيَّــةُ وَلوَلتْ   خَـــنُـوفَـاً بِـــكَـفَّـيْـهـــا بُعَيْدَ التَّوَلُّلِ(2)

وَكـــائِـن كَـــــرَرنا مِــن جَوادٍ وَراءَكُم   وَكـــائِـن خَـضَبنا مِن سِنانٍ ومُنصَلِ(3)

وَكـــائِن كَـرَرنا مِـــن سَـــوامٍ عَلَيكُمُ   وَمِـــن كـــاعِبٍ وَمِن أَسـيرٍ مُكَبَّلِ(4)

ومنع عنترة النساء من السبي في يوم الفروق، فقومه وطّنوا أنفسهم على الموت، لا يفرّون من ساحة القتال، ويردون الأعداء، ويمنعونهم من الوصول إلى مراكب النساء، فيحافظون على عورات نسائهم، ويصونون شرفهنّ من الذلّ والمهانة، قال عنترة(5): (الطويل)

ونـــحنُ مَـنَعْنا بالفَروقِ نساءَنا   نُطرِّفُ عنها مُبْسِلاتٍ غَوَاشيَا

حلفت لها والخيلُ تدمى نحورُها   نفارقكم حــتى تهزُّوا الــعواليَا

ألمْ تعـــلموا أنّ الأسنَّة أحـرزَتْ   بقـيّتَنَا لـــو أنَّ للدهرِ بـاقيَا

ونحفَظ عـوراتِ النِّـساءِ ونـتَّقى   عليهِنَّ أنْ يلقين يوماً مـخازِياً

ولا يشترط في السبي أن يكون في الحروب والمعارك وساحات القتال، فقد يقع في أيام السلم أيضاً فإذا أدرك أحدهم ظعينة منفردة أو مرتحلة، من قوم أخرين ليس معهم حلف، أو بينهم جوار أغار عليها ينهب أموالها ويسبي نساءها، فتعرّضت الظعائن في سفرها وتنقّلها لخطر شديد، فلا تأمن على نفسها النهب والسبي والقتل، فكانت حماية النساء الظاعنات من السبي مسؤولية كبيرة لا

---

(1) رمَّاحة: طعنةٌ بالرمح، الشَّعيبان: المزادتان، المُعَجَّل: الذي يعجِّل باللبن قبل ورود الإبل، العَقُّ: الشّقُّ (ابن منظور: رمح، شعب، عجل، عقق).

(2) يقول هذه الطعنة إذا نظرت فيها المشفقة ولولت وقلَّبت كفّيها، والخناف: أن ترمي بكفّيها إلى وحشيِّها(ابن منظور: خنف).

(3) السّنان: الرمح، المنصل: السيف (ابن منظور: سنن، نصل).

(4) السَّوام: كلُّ ما يرعيه الراعي كالإبل والشّاء، كاعب: المرأة، الكَبْل: القيد الضخم (ابن منظور: سوم، كعب، كبل).

(5) عنترة، **الديوان**، ق160: 214- 215.

يحافظ عليها إلا الفارس الشجاع، وقد ضرب المثل بربيعة من مُكدَّم حامي الظعينة فقيل "أحْمَى مِنْ مُجِيرِ الظُّعْنِ"(1)، وهو ربيعة بن مكدم، ذلك أنه لمّا خَرج دُرَيْد بن الصِّمة في فوارسَ من بني جشَم حتى إذا كانوا في وادٍ لبني كِنانة يقال له الأخْرم، وهم يُريدون الغارةَ على بني كنانة، إذ رُفع له رجل في ناحية الوادي معه ظَعينة، فلما نَظر إليه قال لفارس من أصحابه، صِحْ به: خَلِّ عن الظعينة وانجُ بنفسك. فانتهى إليه الفارسُ وصاح به وألَحّ عليه. فألقى زمامَ الناقة وقال للظَّعينة(2):

سِيرِى على رِسْلِكِ سَيْرَ الآمنِ   سيرَ رَداحٍ ذَاتِ جَأشٍ ساكِنِ(3)   (الرجز)

إنّ انْثِـنَائي دون قِرْني شائني   أَبْلِى بلائي وأخـبُرِي وعَايِنِي(4)

ثم حَمل عليه فصرَعه وأخذ فرسَه فأعطَاه للظِّعينة، فبعث دُريد فارساً آخر لينظرَ ما صَنع صاحبُه فلما انتهى إليه ورأى ما صَنع صاح به، فتصامم عنه كأن لم يَسمع، فظن أنه لم يَسمع، فغَشيه فألقى زِمامَ الرَّاحلة إلى الظّعينة، ثم خَرج وهو يقول(5):   (الرجز)

خَــلِّ ســبيلَ الحُرّةِ المنيعةْ   إنــك لاقٍ دونـــها رَبــيعةْ

فــي كَـفّه خَطِّيَّة مــطيعةْ   أَوْلا فـخُذْها طَـعنةً سَريعةْ

والطَّعنُ منّي في الوغَى شريعةْ

ثم حَمل عليه فصرعه. فلما أبطأ على دُريد بعث فارساً لينظر ما صنعا. فلما انتهى إليهما وجدهما صريعَيْن، ونظر إليه يقود ظعينته ويجُر رُمْحه. فقال له الفارس: خلّ عن الظعينة. فقال للظَّعينة:

---

(1) العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله، **جمهرة الأمثال**، ت395هـ، بيروت: دار الفكر، ج1: 409.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج16: 46.

(3) امرأة رداح: عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق (ابن منظور: ردح).

(4) القرن: الكفء (ابن منظور: قرن).

(5) **السابق**، ج16: 46.

أقصِدي قصدَ البيُوت، ثمِ أقبل عليه فقال(1): (الرجز)

ماذا تُريد من شَتيم عابسِ ألم تَر الفارس بعد الفارِسِ

أَرْداهما عاملُ رُمح يابسِ

ثم حَمل عليه فصرعه وانكسر رُمحه. وارتاب دُرَيْد فظنّ أنهم قد أخذوا الظّعينة وقَتلوا الرجل. فلحق دُرَيْد ربيعةَ، وقد دَنا من الحيّ، ووجد أصحابَه قد قُتلوا، فقال: أيها الفارس، إنّ مِثْلك لا يُقتل، ولا أرى معك رُمحك والخيلُ ثائرةٌ بأصحابها، فدونَك هذا الرُّمحَ فإني مُنصرف إلى أصحابي ومُثبِّطهم عنك. فانصرف إلى أصحابه، فقال: إنّ فارس الظَّعينة قد حَماها وقَتل أصحابكم وانتزع رُمحي، ولا مَطْمع لكم فيه. فانصرف القومُ. فقال دُرَيْد يَحمدُ صنيع هذا الفارس حامي الظّعينة وأنه ذاد عن ظعينته، فقتل الفرسان تباعاً، غير مبالٍ بمصيرهم، وهو منير الوجه، يقود الظعينة بأمان إلى منازلها، ثم يتعجب من شجاعة هذا الفارس الذي لا يُعرف نسبه، ولكن مثل هذا الفارس لا ينبغي أن يُجهل(2): (الكامل)

ما إن رأيتُ ولا سَمِعتُ بمثله حامِي الظّعينة فارساً لم يُقتل

أردَى فوارسَ لم يكونوا نُهْزة ثم استمرّ كأنه لم يَفْعل(3)

مُتهلِّلاً تَبدو أَسِرّةُ وجهه مثل الْحسام جَلَتْهُ كفُّ الصَّيْقل(4)

يُزْجِي ظَعينَته ويَسْحب رُمْحه مُتوجهاً يمنَاه نحو المَنزل

وتَرى الفوارسَ من مَهابة رُمحه مثلَ البُغاث خَشِين وَقْع الأَجْدل

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج16: 46.

(2) السابق، ج16: 47.

(3) النهزة: الشيء الذي هو لك معرض كالغنيمة (ابن منظور: نهز).

(4) الصيقل: جلاء السيوف (ابن منظور: صقل).

(5) البغاث: طائر أصفر، الأجدل: الصقر (ابن منظور: بغث، جدل).

يا لـيتَ شـعْري مَن أبوه وأمّه   يا صاح مَن يَكُ مثلَه لا يُجهل

أمّا ابنُ مُكَدَم فافتخر بنفسه، وبفعله العظيم في حماية الظعينة، إنّه لا يفرّ من الأعداء تكرّماً، ولا يدع النساء غنيمة للأعداء، ويبيّن كيف قتل الفارس بعد الفارس دون خوف أو تردد، فلا هَمّ له سوى حماية ظعينته، وصون عرضها وشرفها، وهو بذلك يقدم نموذجا للفتى العربي الكريم الذي لا يخاف الموت في سبيل دفاعه عن نسائه، فقال(1): (الكامل)

إن كان يَنفعكِ اليقينُ فسائلِي   عنِّي الظعينةَ يومَ وادي الأخْرم

إذ هِي لأوّل مَن أتاها نُهبة   لولا طعانُ رَبيعة بنِ مُكَدَّم

إذ قال لي أدنى الفوارس منهم   خَلِّ الظعينَةَ طائعاً لا تَنْدَم

فصرفتُ راحلة الظَّعينة نحوَه   عمداً ليعلَم بعضَ ما لم يَعلم

وهتكت بالرُّمح الطَّويل إهابه   فَهَوى صـــريعاً لليَدين وللفَمَ(2)

ومَــنحت آخـــرَ بـــعدَه جَيَّاشةً   نَجْلاء فاغرةً كشِدْقِ الأضجَم(3)

ولـــقد شـــفعتُهما بـآخَر ثالثٍ   وأبى الفِرارَ عن العُداة تَكرُّمي

ومرّ بنا سابقا أن الظعينة هي رَيْطَة بنت جِذل الطِّعان زوجة ربيعة(4)، وقد ردّت المعروف لدُرَيْد وافيا فعندما أسرتْه بنو كنانة قوم ربيعة بن مكدم فقامتْ ريطة وأجارتْ دُرَيْدا، وتوسطتْ لدى قومها لإطلاق سراحه من الأسر.

وكذلك أسماء بن زِنباع الحارثي قد حمى ظعينته زينب، حين اعترضه دُرَيْد بن الصمة في نفر من

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني** ، ج16: 47.

(2) إهابه: جلده، (ابن منظور: أهب).

(3) الأضجم: عوج في الفم، وشبه الجرح الواسع بالفم الأضجم (ابن منظور: ضجم).

(4) ص 93.

أصحابه، فأحاطوا به لينتزعوها من يده، فقاتلهم دونها، فقتل منهم وجرح، ثم اختلف هو ودُرَيْد طعنتين، فطعنه دُرَيْد فأخطأه، وطعنه أسماء فأصاب عينه، وانهزم دُرَيْد ولحق بأصحابه؛ فقال دُرَيْد في ذلك(1): (البسيط)

شُلَّتْ يميني ولا أشْرَبْ مُعَتَّقَةً   إذْ أخْطأ الموْتُ أسْماءَ بنَ زِنْبَاعِ

وقد ذمّ العرب مَنْ عجز عن منع النساء من السّبي، ولم يجدوا عذرًا مقبولا لمن فرّ عن نسائه أو تخاذل في الذود عنهن. فكان عرضة للذمّ والهجاء من جميع أفراد المجتمع، "فقد كانت حماية النساء جزءا لا يتجزأ من شرفهم وعرضهم"(2)، وعندما أغارت بَهْرَاء على بني شيبان أخذوا منهم سبايا واستاقوا نعماً، ثم إنّهم اشتروا منهم النساء وردوهن، فعيرهم سويد بن أبي كاهل بأنهن رددن حبالى، فقال(3): (الطويل)

ظَلَلن يُنازِعنَ العضاريطَ أُزْرَهَا   وشيبانُ وسطَ القطقطانةِ حُضّرُ(4)

وذكر عنترة انتصاره على بني ضبة وتميم في إحدى غاراته وما لحقهم من ذلّ وعار، فقد فروّا هاربين متفرقين عن نسائهم لينقذوا أنفسهم من القتل والأسر، وتركوا نساءهم فمنهنّ الحوامل والمرضعات وحديثات الولادة، ومنهنّ الشريفات في قومهن، وقد أصبحن جميعا سبايا لدى قوم عنترة. وفي هذا يقول عنترة(5): (الطويل)

فَخَلّوا لَـنا عُوْذَ النِّساءِ وَجَبَّبُوا   عَباديدَ مِنْهُا مُسْتَقيمٌ وَجامِحُ(6)

---

(1) دُرَيْد بن الصمة، **الديوان**، ق37: 132. وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج10: 29.

(2) ضيف، **البطولة في الشعر الجاهلي**، ص23.

(3) الأصفهاني، **الأغاني**، ج13: 71.

(4) العضاريط: الأتباع والأجراء (ابن منظور: عضرط)، القطقطانة: موضع كان سجن النعمان بن المنذر (معجم البلدان، ج4: 374).

(5) عنترة، **الديوان**، ق30: 47.

(6) العُوذ: جمع عائذ وهي التي ولدتْ حديثا فولدها عائذ بها لصغره، جببوا: هربوا، العباديد: المتفرقون، الجامح: الذاهب على وجهه وإن أخذ على غير استقامة، أي تركوا نساءهم وتفرّقوا منهزمين (ابن منظور: عوذ، جبب، عبد، جمح).

وَكُلَّ كَعابٍ خَدْلَةِ السَّاقِ فَخْمَةٍ		لَها مَنْصِبٌ في آلِ ضَبَّةَ طامِحُ(1)

تَرَكنا ضِرارًا بَينَ عانٍ مُكَبَّلٍ		وَبَينَ قَتيلٍ غابَ عَنْهُ النَّوائِحُ(2)

وقال الأفوه الأودي يعيب على أعدائه أنهم تركوا نساءهم البيض الجميلات كالظباء، ولم يمنعونهنّ من السبي، فأُخذنّ وحُملنّ وقد تدلتْ ثيابهنّ على ظهر النّوق خوفا على عفتهنّ، بينما يتبادلنّ الحديث مع الخدم والعبيد يتوددن إليهم لعلّهم ينقذونهن من السبي(3): (الطويل)

فأُبْنا بِحُورٍ كالظِّباءِ وجاملٍ		ولم يَمْنَعِ البِيضَ الحِسانَ بُعولُها(4)

تُناغي العَضَارِيطَ المُشاةَ خَرائدٌ		تُمَسِّحُ أطرافَ القِلاصِ ذُيولُها(5)

وذكر بشر بن أبي خازم في يوم الجفار النساء المرضعات المفجوعات محترقات القلب من اللهفة والحزن، قد حسرن عن وجوههنّ ورؤوسهنّ من الخوف، وقامتْ إحداهنّ تنادي رجال قومها بمثابرة وإلحاح للعودة للقتال؛ لأنّهم تركوها مع أخواتها للضياع والسّبي. إلا أن الرجال هربوا وتركوا كل متاعهم للنهب والسّبي(6): (الوافر)

وكمْ غادَرْنَ مِنْ كابٍ صَريعٍ		تُطِيفُ بشِلْوِهِ عُرْجُ الضِّبَاعِ

وَكَمْ مِنْ مُرْضِعٍ قــدْ غادَرُوهَا		لَهِيفَ القَلْبِ كاشِفَةَ القِنَاعِ

ومِـــنْ أُخْــرَى مُـثَابِــرَةٍ تُنادِي		ألا خَـلَّــيتُـمُونَا للـــــضَّيَاعِ

---

(1) خَدْلة السّاق: غليظته، الكعاب: التي كعب ثديها فصار كالكعب، الطامح: المرتقب، ويريد أن موضعها في قومها رفيع شريف (ابن منظور: خدل، كعب، طمح،).

(2) ضرارا: ضرار بن عمرو الضّبيّ.

(3) الأفوه الأودي، **الديوان**، ق21: 102.

(4) الجامل: القطيع من الإبل مع رعاته، كناية عن النساء (ابن منظور: جمل).

(5) الخرائد: مفردها الخريدة وهي البكر التي لم تمسُّ قط. القلاص: مفردها القلوص، وهي الأنثى الشابة من الإبل (ابن منظور: خرد، قلص).

(6) بشربن أبي خازم، **الديوان**، ق23: 111- 112. كاب: من كبا إذا سقط على وجهه، الشلو: الجسد أو بقية الجسد (ابن منظور: كبا، شلا).

وَكُلُّ غَضَارةٍ لَـــكَ مِـــنْ حَبِيبٍ　　　لَــهَا بِــكَ أو لَــــهَوْتَ بِهِ مَتَاعُ

وفي يوم بُعَاثٍ لجأ الخزرج إلى حصونهم وفرواّ عن نسائهم وتركوهن عرضة للسبي، قال قيس بن الخطيم في ذلك(2): (الطويل)

مَعـــاقِـــلُهُمْ آجـامُـهُــمْ ونِســاؤهُمْ　　　وأيْـــمانُـــنا بالـــمَشْرِفِـــيِّةِ مَعْقِلُ(3)

كأنَّ رُؤوس الخَزْرَجِيّينَ إذْ بدتْ　　　كتَائبُنا تَتَرى مَعَ الصُّبْحِ حَنظَلُ

كأنّا وقدْ أجْلَوا لَنا عَنْ نسائِهمْ　　　أُسُودٌ لها في عِيصِ بِيشَةَ أَشْبُلُ(4)

بِبِئرِ الدُّرَيْكِ فاسْتَعِدُّوا لمِثْلِها　　　وأصْغُوا لها آذانَكُمْ وتأمّلُوا

إطلاق السبايا

عظّم المجتمع الجاهلي مكارم الأخلاق، وحث عليها، وأثنى على فاعلها، فكان من ذلك أن مَنّ العرب على السبايا أحيانا فأطلقوهنّ بلا مقابل، فقصدوا بذلك اشفاقا لحالهن أو سمعة بين القبائل بصنع معروف أو ردٍّ لجميل أو إكرامٍ لسيّد شريف أو شاعر ذائع الصيت مشهور، فكان إطلاق السبايا مكرمة كبيرة، فقد مدح العرب من أعتق السبايا بلا فداء، وشكروا له صنيعه، ففي يوم سَفْحِ مُتَالِعٍ وهو يوم لبني تَغلِبَ على بني تميمٍ أَغار عَلْقَمَةُ بن سَيْفِ التغلبي، على أَخلاط تميمٍ فلقيَهم بسَفْحِ مُتالِعٍ وأَصابتْ بنو تغلب النّساءَ والأَموالَ والأَسرى، ولم يبق أَهلُ بيتٍ في تميم إلاّ وقد

---

(1) قيس بن الخطيم، **الديوان**، ق8: 137-140.

(2) المعقل: الموضع الذي يلجأ إليه ويُمتنع به، آجامهم: حصونهم (ابن منظور: عقل، أجم).

(3) العيص: أصول الشجر أو الشجر الملتف (ابن منظور: عيص)، بيشة: من عمل مكة مما يلي اليمن(معجم البلدان: ج1: 529).

(4) بئر الدريك: إشارة إلى يوم الدرك بين الأوس والخزرج في الجاهلية (معجم البلدان: ج2: 452).

أُصيبوا بمُصيبةٍ، فقال ابن قَوْزَعٍ الكِسْريّ في ذلك(1): (الطويل)

لَعَمْرُك ما قَاد الجِيَادَ على الوَغَى مَقَادَ ابنِ سَيْفٍ فارِسِ الخَيْلِ عَلْقمَهْ
أَبَاحَ تمِيماً يَوْم سَفْحِ مُتَالِعٍ بخَيْلٍ كأَمْثالِ القِدَاحِ مُسَوَّمَهْ(2)

ثمّ إنَّ عَلْقَمَةَ بن سَيْفٍ أَعتق النساءَ وحملهنّ إلى قومهنّ قبل أَن يصل إلى بلاده، فقالت امرأةٌ من بني مُجَاشِعٍ تشكر لعلقمة إطلاقه السبايا، فمثله يستحق الثناء على هذه النعمة العظيمة التي ستلازمهم حتى آخر الدهر(3): (الوافر)

جَزَى الرَّحمنُ عَلْقمَةَ بنَ سَيْفٍ على النَّعْمَاءِ خَيْرَ جَزَا مُثَابِ
عَنَ آلِ مُجَاشِعٍ وبَنِي فُقَيْمٍ وأَحْيَاءِ البَرَاجِمِ والرَّبَابِ
وحَيَّيْ نَهْشَلٍ وسَرَاةِ سَعْدٍ بسَفْحِ مُتَالِعٍ ولِوَى إرَابِ
جَزَزْتَ نَوَاصِياً مِنَّا فرَاحَتْ نِسَاءُ الحَيِّ طاهِرَةَ الثِّيَابِ
وأَطْلَقْتَ العُنَاةَ وكان يَوْماً يَغَصُّ الشَّيْخُ منه بالشَّرَابِ
فأَنْت المَرْءُ تُشْكَرُ نِعْمَتَاهُ عَلَيْنَا ما بَدَا وَضَحُ السَّرَابِ

ولمّا أغار أوس بن حارثة بن لأم الطائي على هوازن في بلادهم، فسبى منهم سبياً، فقصده أبو براءٍ عامر بن مالك يتوسط فيهم، فأطلقهم له وكساهم. فقال أبو براءٍ(4): (الوافر)

ألم ترَني رحلتُ العِيسَ يوماً الى أوس بن حارثة بن لأَمِ
إلى ضخم الدّسيعة مَذحِجي نماه من جديلَة خيرُ نامِ

---

(1) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 166- 167.
(2) القِداح: جمع قِدح وهو السّهم (ابن منظور: قدح).
(3) **السابق**، 167- 168.
(4) الآمدي، **معجم البدان**، ج1: 366، الدَّسِيعة: مُجْتَمَعُ الكتفين، وقيل الأعطية (ابن منظور: دسع).

وفي أسرَى هوازن أدركتهم   فوارسُ طيىءٍ بلِوى بَرامِ(1)
تَقرب ما استطاع أبو بُجير   وفَكَّ القومَ من قبل الكلامِ
فما أوس بن حارثة بن لام   بِغَمْرٍ في الحُروب ولا كَهامِ(2)

وحين جمع الحُصَين بن الحُمام جمعا من بني عَدِيّ، ثم أغار على بني عُقَيل وبني كعب فأثخن فيهم، واستاق نَعَما كثيرا ونساء، فأصاب أسماء بنت عمرو سيِّد بني كَعب، فأطلقها ومَنَّ عليها وقال في ذلك(3): (الوافر)

فِدًى لِبَنِي عديٍّ رَكْضُ ساقي   وما جَمَّعتُ من نَعَمٍ مُراحِ
تَرَكْنَا من نساء بني عُقَيْلٍ   أَيَامى تبتغي عَقْدَ النِّكاحِ
أَرُعْيانَ الشَّوِيِّ وجدتمونا   أمَ أصحابَ الكريهة والنِّطاحِ
لقد علمتْ هَوازِنُ أنَّ خيلي   غَداةَ النَّعْفِ صادقةُ الصَّباحِ
عليها كلُّ أَرْوَعَ هِبْرِزِيٍّ   شديدٍ حَدُّه شاكي السِّلاحِ(4)
فكَرَّ عليهمُ حتَّى التقينا   بمصقولٍ عوارضُها صِباحِ
فأُبْنا بالنهّاب وبالسَّبايا   وبالبِيض الخرائِدِ واللِّقاحِ
وأعتقنا ابنة العَمْرِيِّ عمرٍو   وقد خُضْنا عليها بالقِداحِ

وفي يَومُ الكَثِيبِ وهو يومٌ لعَدِيّ بن أُسَامَة على مُرادِ. غزا ثَعْلبةُ بن حَبيب العَدَوِيّ في بني عَدِيٍّ وأَخلاط مالك بن بكرٍ أَحياءَ مُرَادٍ فالتقى الفريقان يومئذٍ بماءٍ يُقال له الكَثِيبُ، فانهزمتْ مُرادٌ وأَسرفتْ

---

(1) بَرام: اسم جبل في بلاد بني سليم (معجم البلدان: ج1: 366).
(2) كَهام: رَجُلٌ كَهام: رجلٌ مسِنٌّ لا غَناءَ عنده (ابن منظور: كهم).
(3) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 12.
(4) هِبْرِزِيّ: شجاع (ابن منظور: هبرز).

عَدِيٌّ في قتلها، وأَصاب ثَعْلَبةُ السبايا والأَموال. وكان بين الأسرى والسبايا رجل وامرأته من كِنْدَةَ مجاورين لمراد، وبينما ثَعْلَبة يعترضُ السَّبيَ قامتْ امرأَة الكِنْدِيِّ تمدح شجاعة ثعلبة بقدرته على سبي النساء الأبكار التي لم تُمسسْ قط، وإنه أهلٌ للكرم والمنّ، وأنّها ستشكر صنيعه لدى كندة فقالت(1): (مشطور الرجز)

يــا صَــاحِبَ الخَــيْلِ الذِي تَــوَرّدَا

علَى مُرَادٍ قَـدْ حَـوَيْتَ الخُــرَّدَا

وقَـدْ تَرَكْتَ الكَبْـشَ مِنْــهم مُقْصَدَا

امْنُنْ علَـيْـنا واتَّـخـذْ فيـنَا يَـدَا

بـيْـضَـاءَ في كِـنْدَةَ أُفْـشِـيها غَـدَا

إنِّـــي أَراكَ سَـــيِّــداً مُــسَــوَّدَا

تُــورِي إذَا وَأرِي الـزِّنَــادِ أَصْـلَـدَا

تَرَكْــتَ بالبِــيـضِ مُـــرَاداً هُـمَّـدَا

فلمّا سمعها ثعلبة، سألها عن نفسها فعرّفَتْه، فدعى الكِنديّ، فأَتاه فمدحه بما حققه من عزّ بنصره على قوم مراد بسيوف هندية لامعة ورماح خَطِّية متينة، ثم طلب منه إكرامه بإطلاقه من الأسرى وفكّ امرأته من السبي حيث فقال: (مشطور الرجز)

ثَــعْــلَــبَةُ الخَــيْــرِ أَخـو عَدِيّ

لاَقَــى مُــــرَاداً بالأَضَــا الـمَــاذِيِّ

---

(1) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، ج1: 231.

(2) **السابق**، ج1: 231- 232.

صَـبَّحَـهُـمْ بالبـيضِ والخَـطّـيّ
علَـى الكَثِـيب صَبْـحَةَ الطَّسْمِيِّ
فـهُـمْ بِـهَا كـالـخَـشَـبِ العَـادِيّ
وقَـدْ حَـوَيْـتَ العِـزَّ بالهِـنْدِيِّ
هَلْ لكَ في عَفْـوٍ عَـنِ الكِـنْدِيِّ
ومِنَّةٍ مـنْـك علَـى السَّـبِيِّ

فحّدث ثعلبة قومه بنِي عَدِيّ وأشار عليهم أن يخلوا سبيل الكندي وزوجته، فأجابه بنو عدي إلى ذلك، فأطلقهم مناً عليهم دون فداء، وأطلق معه السبي عامة، فقال الكِنْدِيُّ يَتشكَّرُ لبني عَدِيٍّ بكرمهم الذي سيلازمه طوال حياته ويخص بني حبيب ثم ثعلبة، فقد أصبح مُرتهنًا بهذه المكرمة العظيمة، وهذا العفو الكبير الذي لا يُكفر(1): (الوافر)

سأشكُرُ ما حَيِيْتُ بنِي عَدِيٍّ وشُكْرِي مِنْهُم لبَنِي حَبِيبِ
لثَعْلَبةَ الأَغَـرِّ علـيَّ مَـنٌّ بإِطْلاقِي وفَكِّي مِن كُرُوبِي
وقد غُلَّتْ يَدَايَ فصِرْتُ رَهْناً أَسِيراً رَافِقاً بُرْدَيْ شَعُوبِ
فأَنْعَمَ نِعْمَةً سَبَقَتْ وسَارتْ بإِطْلاَقِ الكُبُولِ عَن الغَرِيبِ
وأَعطانِي الخَرَائدَ مِن مُرَادٍ وعِرْسِي مُنْتَهَى نَفْسِي وطِيْبِي
وأَعْـطَاني مُؤَبّـلةً هِـجَاناً وقَدْ حُوِيَتْ علَى ماءِ الكَثِيبِ
فلَنْ أَكْفُرْ بَلاءَ بني عَدِيٍّ وعَفْوَهُمُ عَلَى حَدَثِ الخُطُوبِ

(1) الشمشاطي، **الأنوار ومحاسن الأشعار**، 232- 233.

وقد مدح دُرَيْد بن الصمة يزيد بن عبدالمدان عندما أكرمه، وردّ إليه السبايا فشكر له هذه المنّة والفضل العظيم، فهو أهل للكرم والسيادة فقال دُرَيْد(1): (المتقارب)

مَدَحْتُ يَزِيدَ بنَ عبد المدَانِ ... فأَكْرِمْ به من فَتىً مُمْتَدحْ
إذا المَدْحُ زانَ فَتى مَعْشَرٍ ... فإنَّ يَزِيدَ يَزِينُ المِدَحْ
حَلَلْتُ به دون أصْحابِه ... فأوْرَى زِنادِي لَمَّا قَدَحْ(2)
وَرَدَّ النساءَ بأطْهارِها ... ولو كان غَيْرُ يَزِيدٍ فَضَحْ
وفَكَّ الرجالَ وكُلُّ امْرِئٍ ... إذا أصْلح الله يوماً صَلَحْ
وقُلْتُ له بعد عِتْقِ النِّساءِ ... وفَكِّ الرِّجالِ ورَدِّ اللُّقَحْ(3)
أَجِرْ لي فَوارِسَ من عَامِرٍ ... فأَكْرِمْ بنَفْحَتِه إذْ نَفَحْ
وما زِلْتُ أعْرِفُ في وَجْهِه ... بِكَرِّي السؤالَ ظهورَ الفَرَحْ
رأيْتُ أبا النَّضْرِ في مَذْحِجٍ ... بِمنْزِلَةِ الفَجْرِ حين اتَّضحْ(4)
إذا قارعُوا عنه لم يُقْرَعُوا ... وإنْ قَدَّموه لِكَبْشٍ نَطَحْ
وإنْ حَضَرَ النَّاسَ لم يُخْزِهم ... وإنْ وازَنُوه بِقِرْنٍ رَجَحْ
فذاك فَتَاها وذو فَضْلِها ... وإن نابِحٌ بفَخَارٍ نَبَحْ

---

(1) دريد بن الصِّمة، **الديوان**، ق8: 51.

(2) أورى زنادي: ورت الزناد إذا أخرجت نارها ويقال هو أوراهم زَندا يضرب مثلا لنجاحه (ابن منظور: وري).

(3) اللُّقَح: جمع لِقْحَة وهي الناقة الحامل (ابن منظور: لقح).

(4) أبو النضر: هو يزيد بن عبد المدان الممدوح.

وقد سعى العربي إلى **إنقاذ السبايا** وردهنّ، وتخليصهنّ من ذلّ السبي وذلّ العبودية، فإذا ما سُبيتْ نساء القبيلة، نهض رجالها وفرسانها مسرعين إلى إنقاذهنّ وتحريرهنّ وردهنّ إلى أهلهنّ، فهم يضحون بحياتهم ويبذلون دماءهم في سبيل إنقاذ السبايا، وحفظ شرف القبيلة وصون حرمتها، قال طرفة بن العبد يذكر حال قومه إذا ما سُبيتْ نساؤهم في الحرب، وهنّ فزعات كقطعان البقر يتبع بعضها بعضا، فإنهم في اليوم التالي يسرعون لإنقاذهنّ، فيمدح فرسانهم الكرام، بأنهم القادرون على حماية أهل الحي(1): (الكامل)

ونحنُ إذا ما الخيْلُ زَايَلَ بَيْنَها   من الطّعنِ نشّاجٌ مُخِلٌّ ومُزْعِفُ(2)

وجالتْ عَذارى الحيّ شتّى كأنّها   تَوالي صُوارٍ والأسِنّةُ تَرْعَفُ(3)

ولم يَحْمِ أهلَ الحيّ إلاّ ابنُ حُرّةٍ   وعَمَّ الدّعاءَ المُرْهَقُ المُتلهِّفُ(4)

ففئْنا غداةَ الغِبّ كلَّ نَقيذَةٍ   ومنَّا الكميُّ الصَّابرُ المتعرِّفُ(5)

وفي يوم المِعَا حين أغار المُنبطح الأسديُّ على بني عُبَاد بن ضُبَيعة، فأخذ نَعَما وسبايا لبني الحارث بن عُبَاد، فلحقهم بنو سَعد بن مالك بن ضُبيعة، وبنو عِجْل بن لُجيم، واستنقذوا السبايا والنَّعَم منهم، فقال حُجر بن خالد في ذلك(6): (الوافر)

---

(1) طرفة بن العبد، **الديوان**، 64.

(2) زايل بينها: فرّقها، النشاج: هو الطعن الذي يخرج الدم ومعه صوت، مخلّ: مفسد، مزعف: من الزعف وهو القتل (ابن منظور: زيل، نشج، خلل، زعف).

(3) صوار: القطيع من بقر الوحش، ترعف: يسيل دمها (ابن منظور: صور، رعف).

(4) المرهق: المتعب لشدة المطاردة ولكثرة مات تحمل مما لا يطيقه، المتلهف: المستغيث (ابن منظور: رهق، لهف).

(5) فئنا: رجعنا بالغنيمة، الغِبّ: غِبُّ الأمر عاقبتُهُ، وآخرُه، الكَمي: الفارس الشجاع، المتعرف: الذي يعرف عن نفسه في القتال (ابن منظور: فيأ، أحذ، غبب، كمي، عرف).

(6) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج6: 98.

ومُنْبَطِح الغواضِر قد أذَقْنا بنَاعِجةَ المِعَا حَرَّ الجلادِ

تَنـقَّـذنا أَخـــاذيذاً فــرُدّت على سَكنٍ وجَمْعِ بني عُبَاد(1)

وقال حُمران بن عبد عمرو وكان رئيس بني سعد في ذلك اليوم، يفخر بشجاعة قومه وإقدامهم وصنيعهم بتحرير السبايا، فهم يسرعون إلى الحرب، ويهوون إليها هويّ طيور القطا عند شروق الشمس(2): (الكامل)

إنَّ الفوارس يوم ناعِجَة المِعَا نِعْمَ الفوارسُ مِن بني سَيّار

لم يُلْههم عَقْد الأصِرّة خَلْفهم وَحنِينُ مُنْهَلة الضُّروع عِشَار

لَحِقوا على قُبِّ الأياطل كالقَنا شُعْثٌ تُعدُّ لكُلِّ يـوم عَوَار

حتى حَبَوْن أخا الغَواضِر طَعْنةً وفَكَكن منه القِدَّ بعدَ إسَار

سالتْ عليه من الشِّعاب خَوانِفٌ وِرْد الغُطَاط تبلُّجَ الأسْحار

وعندما استاقت بنو بغيض من غَطَفَان أموالا ونساءَ صداء، وهي بطن من مَذْحِج، وعزّت بنو بغيض بذلك وأثرتْ، وأصابتْ غنائم، فلما رأوا ذلك قالوا: أما والله لنتخذن حرماً مثل حرم مكة لا يقتل صيده ولا يعضد شجره ولا يهاج عائذه، ففعلوا ذلك وهم على ماء لهم يقال له "بُسّ" فأغار عليهم زُهَيْر بن جَنَابٍ سيد بني كلب وقائدهم في حروبهم، فظفر بهم زهير، وأصاب حاجته فيهم وأخذ فارساً منهم أسيراً في حرمهم الذي بنوه، فقال لبعض أصحابه اضرب رقبته، فقال إنه بسل فقال وأبيك ما بَسْلٌ علي بحرام، ثم قام إليه فضرب عنقه، وعطّل ذلك الحرم ثم منّ على غطفان

---

(1) سكن، ابن باعث بن الحارث بن عُباد، والأخاذيذ: مَن أُخِذ من النساء (ابن منظور: أخذ).

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد** ، ج6: 98- 99. المعا: جانب من الصمان، الأصرّة: ما تشد به أخلاف النوق، الأياطل: جمع الأيْطل وهي الخاصرة، ناعجة: الأرض السهلة، خوانف: جمع خانف وهو الذي يميل رأسه إلى الزمام ويفعل ذلك من نشاطه، الغُطَاط: الصبح والغَطاط بالفتح: ضرب من القطا.

وردّ النساء واستاق الأموال، وقال زهير في ذلك(1): (الوافر)

ولم تَصْبِر لنا غَطَفَانُ لَمّا ... تلاقَيْنا وأُحْرِزَت النِّساءُ
فَلَوْلا الفَضْلُ منّا ما رَجَعْتُمْ ... إلى عَذْراءَ شِيمَتُها الحَياءُ
وكَمْ غَادَرتُمُ بَطَلاً كَمِيّاً ... لدى الهَيْجَاء كان لَهُ غَنَاءُ
فَدُونَكُمُ دُيوناً فاطْلُبُوها ... وأوْتاراً ودُونكم اللِّقاءُ
فإنّا حَيْثُ لا نَخْفى عليكم ... لُيوثٌ حين يحتَضِرُ اللِّوَاء
فَخَلِّي بعْدَهَا غَطَفَانُ بُسّاً ... وما غَطَفَانُ والأَرْضُ الفَضَاء

وقال رجل من بني تميم يذكر إنقاذه للسبايا، ويصف ما حلّ بهن بعد أن سُبين وقد أُنسين الحياء فأبدين وجوههن، وحسرن رؤوسهن متشبهات بالرقيق حتى لا يطمع بهن، فلما رأين بني عاصم أيقن أنهن قد استنقذن، فراجعن حياءهن (2): (المتقارب)

ولمّا رأينَ بني عاصِم ... دَعَوْنَ الذي كُنَّ أُنْسِينَهُ
فَوارَيْنَ ما كنّ حَسَّرْنَهُ ... وأخْفَيْنَ ما كُنَّ يُبْدِينَهُ

قال رجل من بني عجل(3): (المتقارب)

ويومٍ يُبِيلُ النساءَ الدِّماء ... جَعَلْتَ رِداءك فيه خِمارا
ففرَّجتَ عنهن ما يتَّقِين ... وكنتَ المحَامِيَ والمُستَجارا

فيذكر أن ممدوحه وجد السبايا قد أُخذنَ، فتملكهنّ الجزع، وقد أسقط الحبالى أجنتهن من شدة

---

(1) زهير بن جناب، الديوان، 56- 57، وانظر: الأصفهاني، **الأغاني**، ج19: 16.

(2) البكري الأندلسي، **التنبيه على أوهام أبو علي القالي في أماليه**، ص40.

(3) **السابق**، ص40.

الخوف وكشفن وجوههن، فاستنقذهن بسيفه، وقد وفرّ لهنّ الحماية والأمن، فكان مستحقا للمدح والثناء.

وهذا عنترة رأى امرأة مفزوعة ركبتْ بعيرا تحاول الهرب، وقد همّت تلقي زمامه فتكون سبيّة لدى الأعداء إلى أن جاءها وأنقذها من أيدي الرجال الذين يطاردونها، وردّهم خائبين، ثم يطلب منها أن تترفق في سيرها فقد بلغتْ مأمنها، فقال(1): (الوافر)

ومُرْقِصَةٍ رددْتُ الخَيْلَ عنها   وقد هَمَّتْ بإلقاءِ الزِّمامِ(2)

فَقُلْتُ لها اقصري مِنْهُ وسيري   وَقَدْ قُرِعَ الجَزَائِزُ بالخِدامِ(3)

وأغار الحَوْفزان وهو الحارث بن شريك على بني سَعْد بن زَيْد مَناة، فاحتمل الزرْقاءَ من بني ربيع بن الحارث فأعجبته وأعجبها، فوقع بها، ثم لحقه قَيْس بن عاصم، فاستَنقذها وردّها إلى أهلها(4).

ولمّا أغار عامر بن الطفيل على بني فزارة، فأخذ امرأة يقال لها هند، واستاق نعماً لهم، فاستغاث بنو بدر بزيد الخيل، فتبعه زيد الخيل، وعامر يقول: يا هند، ما ظنك بالقوم؟ فقالت: ظني بهم أنهم سيطلبونك، وليسوا نياماً عنك. فأدركه زيد الخيل، وخلّص السبيّة والنّعم منه، وأسره، وجزّ ناصيته

---

(1) عنترة، **الديوان**، ص144.

(2) المرقصة: امرأة ركبت بعيرها ثم أرقصته هاربة، والرقص ضرب من السرعة في السير(ابن منظور: رقص)، وقوله: همّت بإلقاء الزمام أي همّت أن تلقي زمام بعيرها وتعطي بيدها ليأخذوها، وقوله: فقلت لها اقصري منه أي كُفي وترفقّي في سيرك فقد أمنتِ.

(3) الخدام: الخلاخل: أراد بها مواضع الخلاخل من الساقين، والمعنى أنهنّ يحرّكن أرجلهنَّ فيستحثثن الإبل لينجون، فيسمع لخلاخلهنّ عند قرع جزائرهنّ صوت، الجزائز: الخرز التي تكون بمكة، وهي شبيهة بالجِزْع يقال لها جزز الحرير، ويقال هي خلاخيل من الصوف (ابن منظور: خدم، جزز).

(4) ابن عبد ربه، العقد الفريد،ج6: 57- 59.

وأخذ رمحه، ثم مَنّ عليه، وعاد عامر إلى قومه مجزوزاً. فقال زيد الخيل في ذلك(1): (البسيط)

إنّا لَنُكْثِرُ فِي قَيْسٍ وَقَائِعَنَا ... وَفِي تَمِيمٍ وَهَذَا الحَيِّ مِنْ أَسَدِ

وَعَامِرِ بن طُفَيْلٍ قد نَحَوْتُ له ... صَدْرَ القَنَاةِ بمَاضِي الحَدِّ مُطْرِدِ

لمّا أحَسَّ بأَنَّ الوَرْدَ مُدْرِكُهُ ... وَصَارِماً وَرَبِيطَ الجَأْشِ ذَا لُبَدِ

نَادَى إلَيَّ بِسِلْمٍ بَعْدَ مَا أَخَذَتْ ... مِنْهُ المَنِيّةُ بِالحَيْزُومِ وَ اللُّغُدِ

وَلَو تَصَبَّرَ لِي حَتَّى أُخَالِطَهُ ... أَسْعَرْتُهُ طَعْنَةً تَكْتَار بِالزَّبَدِ

وقد تُنقذ السبية وترد إلى أهلها فتكون عاقبتها القتل إذا نال أسرها منها، فحين ارتجع الحارث بن عَمْرو الكِنْديّ امرأته من ابن هَبُولة الغَسَّاني، وقد كان نال منها، فقال لها: هل كان أصابَك. قالت: نعم واللّه، فما اشتملتْ النِّساء على مِثْله، فغضب من جوابها، فأوْثقَها بين فرسين، ثم استحضرهما حيث قَطّعاها وقال في ذلك(2): (الخفيف)

إنّ من غرّه النساء بودٍّ ... بعـد هنـدٍ لجاهلٌ مغرور

كلّ أنثى وإن بدا لك منها ... آية الحبّ حبّها خيْتَعورُ(3)

وقد عجز بعضهم عن ردّ السبايا، فعندما سبى الصّمة أبو الشاعر دُرَيْد بن الصمة رَيحانة بنت معد يكرب الزبيدي أخت عمرو بن معد يكرب، ثم تزوجها فأولدها بنيه، فعجز أخوها عمرو عن إنقاذها، فقال فيها(4): (الوافر)

أمن رَيْحانة الدَاعِي السَّمِيعُ ... يُؤرِّقني وأصْحابي هُجُوعُ

---

(1) زيد خيل، **الديوان**، ق9: 95.

(2) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج3: 354.

(3) خيتعور: امرأة خيتعور: لا يدوم ودّوها (ختعر).

(4) الطرابيشي، **شعر عمرو بن معد يكرب**، ق44: 148.

سباها الصِّمةُ الجُشّميُّ غصباً كأنَّ بياضَ غُرَّتِها صديعُ
وحالت دونها فرسان قيس تَكَشَّفُ عن سواعدها الدروعُ
إذا لم تستطع شيئاً فدعْهُ وجاوزْهُ إلى ما تستطيعُ

المرأة في السبي

شكّل السّبي في العصر الجاهلي تجربة قاسية، عانت منها المرأة معاناة كبيرة مؤلمة؛ من فقد الحرية، والبعد عن مرابع القبيلة، وفراق الأهل والأحبّة، فكان يُنظر إلى السبايا على أنهنّ غنائم حربٍ، تقسّم بين أفراد القبيلة المنتصرة؛ فيُضرب عليهنّ بالسّهام، فيخرج لكل مقاتل نصيبه من السبايا، قال الأعشى إنّهم عادوا بالنساء سبايا ذليلات، وقد اقتسموهنّ فيما بينهم(1): (الطويل)

فَمَا بَرِحُوا حتى استُحِثّتْ نِساؤهم وَأجْرَوْا عَلَيها بالسّهامِ، فذَلّتِ

وقال عامر بن الطفيل في صورة متكاملة تبين حال السبايا، وقد أردفهنّ المحاربون خلفهم يحملونهنّ إلى ديارهم ثم يقتسمونهنّ فيما بينهم، ويذكر عجز الرجال عن حماية زوجاتهم ويعيرهم بضياع حريمهم وعدم المحافظة عليهنّ، وقد أسروا الرجال وقيدوهم بالأصفاد(2): (الوافر)

وَجِــئنا بِالنِّــساءِ مُــرَدَّفـاتٍ وَأَذوادٍ فَـكُــنَّ لـَنا طَـعـاما
وَبَيَّتنا زُبَــيــداً بَعـــدَ هَدءٍ فَصَبَّحَ دارَهُـم لَـجِـبـاً لُهاما
وَقَـد نِـلنا لِعَــبدِ القَيسِ سَبياً مِـنَ الـبَحـرَيـنِ يُقتَسَمُ اِقتِساما
وَلاقَــينا بِــذي نَجَبٍ حُصَيناً فَأَهلَكــنا بِـمُـقـلَـتِـنا أُســاما
وَأَفـلَـتَـنا عَلى الحَومانِ قَيسٌ وَأَســلَـمَ عِــرسَهُ ثُمَّ اِستَقاما

---

(1) الأعشى، **الديوان**، ق40: 261.

(2) عامر بن الطفيل، **الديوان**،111-112.

وَلَو آسى حَليلَتَهُ لَلاقى هُنالِكَ مِن أَسِنَّتِنا حِماما
وَآلُ الجَونِ قَد ساروا إِلَينا غَداةَ الشِعبِ فَاِصطُلِموا اِصطِلاما
قَتَلنا مِنهُمُ مِئَةً بِشَيخٍ وَصَفَّدناهُمُ عُصَباً قِياما

والسّبي قد يقع بين أفراد القبيلة الواحدة إذا ما كان بينهم خلاف وقتال، ولم يشفع للمرأة صلة القرابة والنسب، من أخذها سبيّة لدى أبناء عمومتها، فقد دعا الشاعر الأعشى إلى تجنب الصراع الداخلي للقبيلة، وحل الخلافات بشكلٍ وديّ، محذرًا من عواقب الخلاف بين بطون القبيلة الواحدة، ليجنب القبيلة الحرب والاقتتال والدمار، فتغدو المرأة سبيّة وخادمةً لابنة عمها(1): (الطويل)

وَتُلقى حَصَانٌ تَخْدُمُ اِبنَةَ عَمِّها كَما كَانَ يُلقى النَّاصِفَاتُ الخَوَادِمُ
إذا اِتَّصَلَتْ قالَتْ أَبَكْرَ بنَ وائِلٍ وَبَكْرٌ سَبَتْهَا وَالأُنُوفُ رَوَاغِمُ

وقد لاقت السبايا معاملة عنيفة في بعض الأحيان، تُنزلهنّ منزلةً وضيعة لا تليق بكرامة الإنسان فلمّا غزا عرعرة بن عاصية هذيلاً يطلبهم بدم أخيه، فقتل منهم بعض رجالهم، وسبى نساءهم وكانت ريطة بنت عاصية سبيّة من بينهنّ، فجردها من ثيابها، ثم ساقها معه عارية إلى بلاد بني سليم، فقالت ريطة عند ذلك تصف ما حلّ بالسبايا من سوق فاحشٍ لم يراعِ حرمة النساء، ولا صون شرفهنّ، فترك في نفسها حزناً عميقاً، وفي شخصيتها كسراً كبيراً، وفي صدرها حِقداً دفيناً فذهبتْ تدعو فرسان قومها هذيل وتحرضّهم على أخذ الثأر من بني سليم، وأن يأخذوا نساءهم سبايا، ويعاملونهنّ بالمثل فيسوقونهنّ بامتهان مكشوفاتٌ عوراتهنّ؛ وبذلك تهدأ نفسها، وتقر عينها ويُمحى عارها(2): (الطويل)

---

(1) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ق9: 81.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج12: 72.

ألامَتْ سُلَيْمٌ في السِّياق وأَفحشتْ وأفرطَ في السَّوقِ العنيف إسَارُها

لعلّ فتاةً منهمُ أن يسوقَها فوارسُ منّا وهْيَ بادٍ شَوارُها

فإنْ سَبَقتْ عُلْيَا سُلَيْمٍ بذَحْلِها هُذَيْلاً فقد باءتْ فكيف اعتذارُها

ألا ليت شِعْرِي هل أرى الخيلَ شُزَّباً تُثير عَجَاجاً مستطيراً غُبَارُها

فَتَرْقا عيونٌ بعد طُول بُكائها ويُغْسَلُ ما قد كان بالأمس عارُها

ومن النساء من لجأت إلى قتل نفسها هربا من عار السبي، فلمّا أغار أبو بُرْدَة بن هِلال بن عُوَيْمِر، على هوازن في بلادها، وسبى نسوةً من بني عامر: منهن صخرة بنت أسماء بن الضَّريبة النَّصريّ، ثم انصرفوا راجعين، فلما انتهوا إلى هَرْشى خنقت صخرة نفسها، فماتت(1).

وسجلت بعض السبايا مواقف اتسمت بالشجاعة، وعدم الخوف من القتل، فلم تنكر نسبها ولا اعتزازها بنفسها وبقومها، ففي يوم أوارة الثاني عندما أحرق عمرو بن هند من بني دارم تسعة وتسعين رجلا -- وكان قد أقسم ليحرقنّ من بني دارم مائة رجل-- ثم قيل له لو تحللتَ بامرأة منهم، فقد أحرقت تسعة وتسعين رجلاً. فدعا بامرأة من بني حنظلة، فقال لها: من أنت؟ فلم تنكر نفسها، فقالت: أنا الحمراء بنت ضمرة بن جابر بن قَطَن بن نهشل بن دارم، فقال: إني لأظنك أعجمية، فقالت: ما أنا بأعجمية ولا ولدتني العجم. ثم أنشدت(2): (الرجز)

إنِّي لبـنـتُ ضـمـرةَ بن جابر سادَ معدّاً كـابراً عن كابرِ

إنّي لأختُ ضَمرة بنِ ضَمرةْ إذا الـبلاد لُـفِّعَـت بجمرةْ

---

(1) الأصفهاني، **الأغاني**، ج14: 93- 94.

(2) **السابق**، ج22: 134 135.

قال عمرو: أما والله لولا مخافة أن تلدي مثلك لصرفتك عن النار، فأجابته بشجاعة وحزم: أما والذي أسأله أن يضع وسادك، ويخفض عمادك، ويسلبك ملكك، ما قتلت إلا نساء، أعاليها ثُدِيّ وأسفلها دُمِيّ. قال: اقذفوها في النار، فالتفتت، فقالت: ألا فتى يكون مكان عجوز، فلما أبطؤوا عليها قالت: صار الفتيان حمما، فذهبت مثلاً، فأحرقتْ.

وقد ذهب بعضهم إلى استيلاد السبايا؛ لاعتقادهم بأنهنّ ينجبن أولادًا يتمتعون بالقوة والشدة والشجاعة، وهنّ كذلك لا يكلفنهم مهرا. فلمّا أصاب زرارة بن عدس سبية من الرُّفيدات -- رفيدة قبيلة من كلب-- يُقال لها رُشَيَّة، فولدتْ له؛ عمراً وذُؤيباً وبَرْغُوثاً(1). وكان لضمرة بن جابر زوجات من سباياه؛ فكانت عنده سَبِيّة من عبد القيس فولدت له شهابَ بن ضمرة، وسَبِيّة من الأزد من بني طَمَثان فولدتْ له عَنْوَة بن ضمرة(2).

ونجد من أبناء السبايا المشهورين دُرَيْد بن الصمة سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم وكان مظفراً ميمون النقيبة، وكان لدُرَيْد أخوةٌ وهم عبد الله الذي قتلته غَطَفَان، وعبد يغوث قتله بنو مرة، وقيس قتله بنو أبي بكر بن كلاب، وخالدٌ قتله بنو الحارث بن كعب، أمهم جميعاً ريحانة بنت معد يكرب الزبيدي أخت عمرو بن معد يكرب كان الصمة سباها ثم تزوجها فأولدها بنيه(3).

وكانت المرأة إذا ما خافت من السّبي تشبّهت بالأَمَة، فيزهد المقاتلون بها فلا يأخذونها. قال سَبْرَةُ بن عَمْرٍو الفَقْعسي في ذلك يشير إلى الذل والمهانة التي لحقتْ بأفراد القبيلة بسبب ما آلت إليه حال نسوتها(4): (الطويل)

---

(1) الضبي، **أمثال العرب**، ص: 52.

(2) الميداني، **مجمع الأمثال**، ص 130.

(3) دريد بن الصمة، **الديوان**، ص12- 13.

(4) المرزوقي، **الحماسة**، 237.

ونِسْوَتُكُمْ في الرَّوعِ بادٍ وجُوهُها   يُـخَـلْـنَ إمـاء والإمـاءُ حَرَائِـرُ

وتعرضت السبايا لأشكال متعددة من الإهانة والإذلال والسخرية، فهذا بشر بن أبي خازم يصف حال السبايا من بني عامر وقد حُملنَ على الخيل والأبل، فأسرعت بهنّ، فدمين لذلك، وأصبحن ذليلات، بأن ملّكوا أمرهنّ لخدمهم وأجرائهم، وقد فُجعن بأولادهنّ وحيل بينهنّ وبين ديارهنّ، فكنّ خائفات مفزوعات من هول ما حلّ بهنّ(1): (الطويل)

بَني عامِرٍ إنّا تَرَكنا نِساءَكُم   مِنَ الشَلِّ وَالإيجافِ تَدمى عُجوبُها

عَضاريطُنا مُستَبطِنو البيضِ كَالدُمى   مُضَرَّجَةً بِالزَعفَرانِ جُيوبُها

تَبيتُ النِساءُ المُرضِعاتُ بِرَهوَةٍ   تَفَزَّعُ مِن خَوفِ الجَنانِ قُلوبُها

وقد أدركتْ المرأة ما كان ينتظرها إذا أخذت سبية وما هي الحال التي ستؤول إليها من الذلّ والخزي والعار، فكانت لا تملك إلا العويل رفضا لواقعها ومصيرها المرتقب ، قال عامر بن الطفيل(2):

فأُبْنَا غَانِمِين بِما اسْتَفَأنَا   نسَوقُ البِيضَ دَعْواها الأليلُ(3)   (الوافر)

ويذكر امرؤ القيس البؤس والشقاء الذي لحق بالسبايا من بني يربوع، فشبههنّ بالغيلان، قد نال منهنّ الجوع والعطش، ولا يحملونهنّ بل يتركونهنّ يمشين من حولهم فأصبحن هزيلات ذليلات، فقال في ذلك(4):

أَبْلِغْ شهابًا وأبْلِغْ عاصما   ومالكا هل أَتاك الخُبْرُ مالِ

أنّا تركنا منكمُ قتلَى بخَوْ   عى وسُبيًّا كـالـسَّـعـالي

---

(1) بشر بن أبي خازم، **الديوان**، 31- 32.

(2) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ص97.

(3) الأليل: الأليل والأنين من الصراخ وهو أن تَوَلْوَلَ وتصرخ لأنها أُسِرتْ فهي غريبة تبكي (ابن منظور: ألل).

(4) امرؤ القيس، **الديوان**، ص210، وهذه الأبيات مختلفة البحور مضطربة الوزن (الديوان:210) الخُبْر: العِلْم (ابن منظور: خبر). خَوْعَى: اسم موضع.

يَـمْـشِـينَ حَــوْلَ رحــالـــنَا   مـعـتـرفاتٍ بـجـوعٍ وهُزَالِ

فأجابه شهاب اليربوعي(1):

لم تَسْبِنَا يا امرأَ القيْس   حتى اسْتَفَأْنَاكَ مِنْ أَهْل ومَالِ

ذَاكَ وَكَمْ سَوْداءَ كِنْديّةٍ   تَسْتَقْبِلُ الْقَوْمَ بِوَجْهٍ كالجِعَالِ

قَايَظْنَنَا يَأْكُلْنَ فِينَا   قِدًّا وَمَحْرُوتَ الْخُمَالِ

أَيَام صَبَحناكُمُ مَلْمُومةً   كأنَّما نُطِّقَتْ في حَزْمِ آلِ

مِنْ كُلِّ قَبَّاءَ تَعْدُو الوَكَرَى   إذ ونتِ الخيلُ بالْقَوْم الثِّقالِ

وقال عامر بن الطفيل يقدّم صورة بشعة للسبايا، وقد لاقين معاملة قاسية بلا رحمة ولا شفقة، فقد شُقّتْ بطون النساء الحبالى، وفي غارة أخرى وصل خوف السبايا إلى درجة لا تحتملها(2)(الطويل)

وَنَحنُ صَبَحنا حَيَّ أَسماءَ بِالقَنا   وَنَحنُ تَرَكنا حَيَّ مُرَّةَ مَأتَما

بَقَرْنا الحَبالى مِن شَنُوءَةَ بَعْدَما   خَبَطنَ بِفَيفِ الرّيحِ نَهداً وَخَثعَما

مُجَنَّبَةً قَد لاحَها الغَزْوُ بَعْدَما   تُبارِي مَراخيها الوَشيجَ المُقَوَّمَا

وَنَحْنُ صَبَحْنا حَيَّ نَجْرانَ غارَةً   تُبيلُ حَبالاهَا مَخافَتَنَا دَمَا

ولمّا غزت بنو عبس طيئاً بعد ما قُتل عنترة فسبوا نساء خارجات من الجبل، فتبعتهم طيىء فقاتلتهم

---

(1) امرؤ القيس، **الديوان**، ص211، وردت هذه الأبيات مضطربة الوزن، استفأناك: من الفيء أي غنمناك، الجعال: خرقَةٌ تُنزل بها القِدْر، وإنما شبه وجهها بها في سوادها ودَرَنها، والجِعلان: الخرقتان، قايظننا: من القيظ وذلك شدة الحر أي اقمن القيظ كله محروت الخمال: أي أصول الخمال وهو شجر يكون في الرمال والخمال في غير هذا داء يصيب الأبل، صبحناكم: أي جعلنا هذه الغارة لكم كالصبوح وهو شرب الغداة، ملمومة: الكتيبة أو الحرب، نُطِّقضتْ: أي أُوزِّرَتْ وجُعل لها نطاق حولها، الحزم: الغليظ من الأرض، آل: اسم جبل، القباء: الفرس الضامر، الوكرى: ضرب من السير والعدو السريع.

(2) عامر بن الطفيل، **الديوان**، 117- 118. مجنبة: الخيل، شنؤة ونهد وخثعم من قبائل اليمن، لاحها: غيرها، المراخي: جمع مرخاء وهي الفرس السريعة، الوشيج: شجر الرماح (ابن منظور: جنب، لوح، رخا).

عبس حتى ردوهم إلى جبلهم، وجاؤوا بالنساء إلى بني عبس. فقال عروة بن الورد في ذلك يصف السبايا وقد كان منهنّ حوامل، ومنهنّ مراضع لأطفالهنّ، وترى المرأة الناعمة يظهر جمالها إذا ما نزل الليل وقد تخففت من لباسها، بعدما سُبيت في آخر الليل فكانت خائفة فزعة، وليس لها رجوع إلى قومها(1): (الطويل)

أبلغْ لديكَ عامراً إن لقيتَها فقد بلغَتْ دارُ الحِفاظِ قرارَها(2)

رَحلْنا من الأجبالِ أجبالِ طَيءٍ نسوقُ النساءَ عُوذَها وعِشارَها(3)

ترى كُـلَّ بيضاءِ العوارضِ طَفْلةٍ تُغَرِّي إذا شالَ السماكُ صدارَها(4)

وقد علمتْ أن لا انقلابَ لرحلِها إذا تَـرَكَتْ من آخِرِ الليل دارَها

وأوضح النابغة الذبياني صورة السبايا بعد أن عاد الجيش منتصرا، فكلل نصره بإحراز السبايا الثيبات والأبكار الشابات، وقد بلغ الحزن غايته لديهنّ، فقعدن يخططن بالعيدان في الأرض ويلزمن أولادهنّ بعطف وحنان، وهنّ لم يلقين شدّة وبؤساً قبل هذا اليوم، قد فقدن الأمل بالنجاة ويئسن من أن يرحل إليهنّ أحدٌ من قومهن بفدائهنّ فيفديهنّ، فقال النابغة(5): (الطويل)

فَآبَ بِأَبكارٍ وَعونٍ عَقائِلٍ أَوانِسَ يَحميها اِمرُؤٌ غَيرُ زاهِدِ(6)

---

(1) عروة بن الورد، **الديوان**، 86- 87.

(2) دار الحفاظ: من المحافظة على الحسب والحزم. قرارها: مستقرها.

(3) عوذها وعشارها: وهي في الإبل الواحد عائذ وهي الحديثة النتاج. والعشار: التي قربت أن تضع، وأراد أن من النساء حوامل ومنهن مراضع (ابن منظور: عوذ، عشر).

(4) العوارض: هي من الأسنان الضواحك، الطفلة: الناعمة الرطبة، تغري: تشق صدارها إذا شال السماك أي النجم ارتفع، الصدار شيء تلبسه المرأة على صدرها (ابن منظور: عرض، طفل، صدر).

(5) النابغة الذبياني، **الديوان**، ق25: 139.

(6) العُون: جمع عَوان وهي النصف من النساء، ويقال هي الثّيب، العقائل: الكرائم الخيار (ابن منظور: عون، ثيب، عقل).

يُخَطِّطنَ بِالعيدانِ في كُلِّ مَقعَدٍ   وَيَخبَأنَ رُمّانَ الثُدِيِّ النَواهِدِ(1)

وَيَضرِبنَ بِالأَيدي وَراءَ بَراغِزٍ   حِسانِ الوُجوهِ كَالظِباءِ العَواقِدِ(2)

غَرائِرُ لَم يَلقَينَ بَأساءَ قَبلَها   لَدى ابنِ الجُلاحِ ما يَثِقنَ بِوافِدِ

ونجد من أشكال المعاملة القاسية للسبايا وضعهنّ السبايا في القيود مكبلات، قال مالك بن خالد الخناعي الهذلي يفخر بمعاملة قومه القاسية للسبايا، فقد أحاطت القيود بمعاصمهنّ، ومزّقت السيوف ثيابهنّ، بينما تبكي أحداهن من الشوق إلى أهلها(3):   (الطويل)

فِدىً لِبَني لِحْيانَ أُمِّي فَإِنَّهُمْ   أَطاعُوا رَئيساً مِنهُمُ غَيرَ عُوَّقِ

أَبَأْنا بِيَوْمِ العَرْجِ يَوماً بِمِثْلِهِ   غَداةَ عُكاظٍ بِالخَليطِ المُفَرِّقِ(4)

فَقَتْلَى بِقَتلاهُم وَسَبْياً بِسَبْيِهِمْ   وَمالاً بِمالٍ عاهِنٍ لَم يُفَرَّقِ(5)

فَيَبرَحُ مِنهُم مُوثَقٌ في حِبالِنا   وَعَبْرى مَتى يُذْكَرْ لَها الشَّجْوُ تَشْهَقِ

مُكَبَّلَةً قَد خَرَّقَ السَيفُ حِقْوَها   وَأُخرى عَلَيها حِقْوُها لَم يُخَرَّقِ(6)

وقال النابغة الذبياني يصف تقييد السبايا، وإنْ كانت إحداهنّ كريمة النسب كمهاة الرمل في حسن عينيها، إلا أن ذلك لم يشفع لـها عند سابيها، فجعل قيود الحديد في يديها، فأوجعتها، فراحتْ

---

(1) يُخَطِّطْنَ بالعيدان: أي هُنّ مأسورات قد بلغ منهنّ الحزن فإذا قَعَدْنَ خطَّطن بالعيدان في الأرض وذلك من فعل المحزون يَتَعَبَّثُ بالحَصَى والتَّخطيط يَتَلَهَّى بذلك عما هو فيه، وقوله: رُمّان الثُّدِيّ: أي هنّ شوابٌ لم تنكسر ثُدِيُّهنّ بعدُ، النَّواهد: التي نتأت ولم تسترسل (ابن منظور: رمم، نهد).

(2) يضربن بالأيدي: أي يلزمن أولادهنّ ويضممنهم إليهنّ تأنساً بهم. البَراعز: جمع البَرْغَز وهو ولد البقرة. العواقد: التي مدّت أعناقها عطفاً على أولادها (ابن منظور: برغز، عقد).

(3) الهذليين، **الديوان**، ج3، 8-9. غير عوّق: لا تحبسه الأمور فيدرك حاجته.

(4) العَرْج: موضع بين مكة والمدينة.

(5) العَاهِن: المال العاهن الذي يبيت في أهله (ابن منظور: عهن).

(6) الحَقْوُ: هنا الزوج، والحَقْو في موضع آخر: الإزار (ابن منظور: حقو).

بقومها قُعين(1): (البسيط)

أو حرّةٍ كمهاة الرمل قد كُبِلَتْ   فوق المَعاصِم منها والعَراقِيبِ

تدعو قُعَيْنا وقد عَضّ الحَديدُ بها   عَضّ الثِّقَافِ على صُمِّ الأنابِيبِ

وقال المثقب العبدي عندما ذهب إلى النعمان بن المنذر يشفع لديه أن يطلق سبايا وأسرى من عبدالقيس ويفكهنّ من قيودهنّ(2): (الطويل)

فأَنْعِمْ أَبَيْت اللَّعْنَ إنَّكَ أَصْبَحَت   لدَيْكَ لُكَيْزٌ كَهْلُهَا ووَلِيدُها

وأَطلِقْهُمُ تَمْشِي النِّساءُ خِلالُهمْ   مُفَكَّكَةً وَسْطَ الرِّحال قُيُودُها

وفي موقف مؤلم بعيد عن الشعور الإنساني، أمر المنذر بن ماء السماء يوم أوارة الأول بالسبايا من بكر بن وائل أن يحرقنَ بالنار، ثم توسط رجل من قيس بن ثعلبة لدى المنذر لإطلاق ما تبقى من السبايا. فقال الأعشى مفتخراً بشفاعة القيسي(3): (الطويل)

ومنّا الذي أعْطَاهُ في الجمع رَبُّه   على فَاقَةٍ ولِلمُلُوك هباتُها

سبايا بني شَيْبَان يَوم أُوَارَةٍ   على النّار إذ تُجْلى به فَتَيَاتُها

إلا أننا نجد من أحسن معاملة السبايا وأكرمهن، وعرفوا لهنّ منزلتهنّ، فخلطوهنّ بخير نسائهم وافتخروا بأولادهنّ، فهم يتميزون بالشجاعة الكبيرة، يقول حاتم بن عبد الله الطائي(4): (الطويل)

وما أنْكَحُونَا طائِعين بَناتَهِمْ   ولكنْ خَطَبْنَاها بأسْيافِنَا قَسْرضا

فما زادَهَا فِينَا السِّباءُ مَذَلَّةً   ولا كُلِّفتْ خُبْزًا ولا طَبَخَتْ قِدْرَا

---

(1) النابغة الذبياني، **الديوان**، 52-53.

(2) المثقب العبدي، الديوان، تحقيق كامل الصيرفي، ص 116.

(3) الأعشى، **الديوان**، ص87. وانظر: جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**، ص99.

(4) حاتم الطائي، **الديوان**، ق111: 298.

ولكنْ خَلَطْناها بِخَيْرِ نِسائِنا فجاءَتْ بهِمْ بِيضاً وُجُوهُهمُ زُهْرا

وكائنْ تَرَى فِينا مِنْ ابْن سَبِيَّةٍ إذا لَقِيَ الأبْطَالَ يَطْعُنُهُمْ شَزْرا

وقد أبغضتْ المرأة السّبي، وكان وقعه عليها مؤلماً وقاسياً، ينتظرها مصير مجهول لا تأمن عواقبه ولا تخفى نتائجه، قال بِسْطام بن قيس سيد بني شيبان لأمّه ليلى بنت الأحوص: إنّي قد أخدمتك من كل حيّ أَمَةً، ولستُ منتهيا حتى أخدمك أمةً من بني ضَبَّةَ(1).

كان الحزن والألم والخوف يسيطر على مشهد السبايا، فلمّا غزا مجمع بن هلال يريد بني سعد بن زيد مناة فلم يصب شيئاً، فرجع من غزاته تلك، فمر بماء لبني تميم عليه ناس من بني مجاشع فقتل فيهم وأخذ منهم سبايا، فقال في ذلك يصف ما لاقته امرأة من مجاشع حين أخذها سبيّة وقد تمكن الخوف منها، وتملك الجزع قلبها، واستولى عليها الحزن والقلق فأخذت تتعثر لوجهها ولا تستقيم في مشيها. وقد تغلغل الحزن في صدرها فلا زوال له، وملأ الدمع عينها فلا انقطاع له. ثم أنها قالت لمجمع تدعو عليه بالقتل والهلاك، وأن يلحقه الانكسار والنكس مثلما ألحقه بها وبزوجها فأجابها بأن التعاسة والشقاء سيكون لها ولقومها الذين لم يمنعوها وأسلموها له، وقد قتل زوجها برمح طويل كأن به ناراً عند الطعن، ويؤكد على كثرة النساء الكريمات اللواتي أخذهنّ سبايا فرحن يخمشن وجوههنّ ويتفجعن جزعا على ما حل بقومهنّ من ذلّ وعار، فقال(2): (الطويل)

وعاثِرَةٍ يَوْم الهُيَيْمَا رَأَيْتُها وقَدْ ضَمَّها من دَاخل الخِلْبِ مَجْزَعُ

لَهَا غَلَلٌ في الصّدْرِ لَيْسَ ببَارحٍ شَجىً نَشِبٌ والعَيْنُ بالماءِ تَدْمعُ

---

(1) جاد المولى، **أيام العرب في الجاهلية**، ص382.

(2) المرزوقي، **الحماسة**، ص716- 719.

تقولُ وقد أفْرَدْتُها من حَلِيلِها تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَنِي يا مُجَمِّعُ
فَقُلْتُ لَها: بَلْ تَعْسَ أُخْتِ مُجَاشِعِ وقَوْمِكِ حَتَّى خَدُّكِ اليَوْمَ أضْرَعُ
عَبَأْتُ له رُمْحاً طويلاً وألَّةً كأنْ قَبَسُ يُعْلَى بها حين تُشْرَعُ
وكائنْ تَرَكْتُ مِن كَرِيمةٍ عليها الخُمُوشُ ذاتِ حُزْنٍ تَفَجَّعُ

وكانت السبايا تعبّر عن رفضها الشديد للسّبي فإذا ما أصابهنّ الفرسان والمحاربون أخذن يذرفن دموعهنّ، ويخمشن خدودهنّ، ويلطمن وجوههنّ، قال عامر بن الطفيل في هذا المعنى(1): (الوافر)

وأرْدَفْنَـا نِـسـاءَهُمُ وجِـئْـنَا وقد دَمِيَتْ من الخمشِ الخُدودُ

وقال آخر يصف النساء وقد شمرن للسعي، فبدت خلاخيلهن كما تبدو أسورتهن. وأخرى قد تخففتْ للنجاءة فوضعت خلخالها في يدها؛ ويشير إلى دهشتها حيرتها فرقاً، فلم تتجه للبس خلخالها، ولا علمتْ موضعه من موضع سوارها(2): (الطويل)

لعَمري لَنعمَ الحيُّ حَيُّ بني كَعبٍ إذا نَزَلَ الخلخالُ مَنْزِلةَ القُلْبِ

لقد رفضت المرأة قبول واقعها المرير أن تكون سبيّة، وربما قتلتْ نفسها فرارا من ذل السبي، ومن ذلك ما فعلته بنفسها فاطمة بنت الخرشب الأنمارية عندما قتلتْ نفسها خوفاً من العار حيث رَمَتْ بنفسها على رأسها من البعير، فماتت خوفاً من أن يلحق بنيها عار فيها(3).

ولم يكن إكرام السبيّة ومعاملتها معاملةً حسنةً يُذْهِبُ بُغض المرأة للسبي؛ فقد ذُكِر أنَّ امرأة من طسمٍ يقال لها عنز، أخذت سبيّة، فحملوها في هودج، وألطفوها بالقول والفعل، فعندها قالت: "شرُّ

---

(1) عامر بن الطفيل، **الديوان**، ص51.

(2) أبوعبيد البكري، التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه، ص41.

(3) الأصفهاني، الأغاني، ج17: 132- 133

يوميها وأغواه لها" تقول شرُّ أيامي حين صرتُ أكرم للسّباء، وفيه بيت سائر(1):

شرُّ يوميها وأغواه لها ركبت عنز بحدجٍ جملاً

وقد كانت بعض السبايا تتحين الفرصة المناسبة للهروب والعودة إلى قومها حتى ولو بعد زمن طويل، وكذلك فعلتْ أمرأة من بني أسد هي جمرة بنت نوفل سباها الحارث بن تولب، فوهبها لأخيه النمر بن تولب ففركته، فحبسها، حتى استقرتْ، وولدتْ له أولاداً، ثم قالتْ له في بعض أيامها: أزرني أهلي فإني قد اشتقت إليهم، فقال لها: إني أخاف إن صرت إلى أهلك أن تغلبيني على نفسك، فواثقته لترجعن إليه. فخرج بها في الشهر الحرام، حتى أقدمها بلاد بني أسد، فلما أطل على الحي تركته واقفاً، وانصرفت إلى منزل بعلها الأول، فمكثت طويلاً، فلم ترجع إليه، فعرف ما صنعت وأنها اختدعته فانصرف، وقال(2): (الطويل)

جزى الله عنَّا جَمرةَ ابنة نوفَلِ جزاء مُغِلٍّ بالأمانةِ كاذبِ

لهان عليها أمسِ موقفُ راكبٍ إلى جانب السَّرْحات أخيبِ خائبِ

وقد سألتْ عنِّي الوشاة ليَكذِبوا عليَّ وقد أبليتها في النوائبِ

وصدَّتْ كأنَّ الشمسَ تحتَ قِناعها بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

وقال فيها أيضاً، يذكر نقضها العهد الذي قطعته بأن لا تتركه وأن تعود إليه(3): (المتقارب)

وكلّ خليلٍ عليها الرعا ثُ والحُبَلاتُ كَذوبٌ مَلِقْ

وقامتْ إليَّ فأَحلفتُها بهَدْيٍ قلائده تختفقْ

---

(1) العسكري، أبو الهلال، **جمهرة الأمثال**، ط2، بيروت: دار الفكر تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، 1988، ج1: 539. وانظر: **ابن منظور**: العنز، والبيت مضطرب الوزن.

(2) الأصفهاني، **الأغاني**، ج22: 193.

(3) **السابق**، ج22: 193. الرعاث: القِرْطَة، الحبلات: جنس من الحلي.

بأن لا أخونَكَ فيما علمت   فإن الخيانَة شرُّ الخُلقْ

ولما أغار عروة بن الورد على مزينة فأصاب منهم امرأةً من كنانة بكراً يقال لها سلمى وتكنى أم وهب، فاستاقها ورجع وهو يقول(1):   (الطويل)

تبغ عـدياً حيـث حلت ديـارها   وأبناء عـوف في القـرون الأوائل

فإلا أنـل أوسـاً فإنــي حسـبها   بمنبطح الأدغال من ذي السلائل

فاعتقها واتخذها لنفسه، فمكثتْ عنده بضع عشرة سنة، ثم أن هذه المرأة احتالت على عروة كي تعود إلى أهلها فقالت له يوماً: لو حججت بي فأمر على أهلي وأراهم. فحج بها، فأتى مكة ثم أتى المدينة، وكان يخالط من أهل يثرب بني النضير فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم. وكان قومها يخالطون بني النضير، فأتوهم وهو عندهم؛ فقالت لهم سلمى: إنه خارج بي قبل أن يخرج الشهر الحرام، فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحيون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحته سبيةً، وافتدوني منه فإنه لا يرى أني أفارقه ولا أختار عليه أحداً، فأتوه فسقوه الشراب، فلما ثمل قالوا له: فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة، وإن علينا سبةً أن تكون سبية، فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إلينا فإننا ننكحك؛ فقال لهم: ذاك لكم، ولكن لي الشرط فيها أن تخيروها، فإن اختارتني انطلقتْ معي إلى ولدها وإن اختارتكم انطلقتُم بها؛ قالوا: ذاك لك؛ قال: دعوني أله بها الليلة وأفادها غداً، فلما كان الغد جاءوه فامتنع من فدائها؛ فقالوا له: قد فاديتنا بها منذ البارحة، وشهد عليه بذلك جماعة ممن حضر، فلم يقدر على الامتناع وفاداها، فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها، ثم أقبلت عليه فقالت: ياعروة، أما إني أقول فيك وإن فارقتك الحق: والله ما

---

(1) عروة بن الورد، **الديوان**، ص62. انظر: الأصفهاني، الأغاني، ج3: 52– 55.

أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خيرٍ منك، وأغض طرفاً وأقل فحشاً وأجود يداً وأحمى لحقيقة؛ وما مر علي يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلي من الحياة بين قومك، لأني لم أكن أشاء أن أسمع امرأة من قومك تقول: قالت أَمَة عروة كذا وكذا إلا سمعته؛ ووالله لا أنظر في وجه غَطَفَانية أبداً، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم. فقال عروة في ذلك(1): (الوافر)

أَرِقتُ وَصُحبَتي بِمَضيقِ عُمقٍ … لِبَرقٍ في تِهامَةَ مُستَطيرِ

إِذا قُلتُ اِستَهَلَّ عَلى قَديدٍ … يَحورُ رَبابُهُ حَورَ الكَسيرِ

تَكَشَّفَ عائِذٍ بَلقاءَ تَنفي … ذُكورَ الخَيلِ عَن وَلَدٍ شَفورِ

سَقى سَلمى وَأَينَ دِيارُ سَلمى … إِذا حَلَّت مُجاوِرَةَ السَريرِ

إِذا حَلَّت بِأَرضِ بَني عَلِيٍّ … وَأَهلي بَينَ زامِرَةٍ وَكيرِ

ذَكَرتُ مَنازِلاً مِن أُمِّ وَهبٍ … مَحَلَّ الحَيِّ أَسفَلَ ذي النَقيرِ

وَأَحدَثُ مَعهَداً مِن أُمِّ وَهبٍ … مَعَرَّسُنا بِدارِ بَني النَضيرِ

وَقالوا ما تَشاءُ فَقُلتُ أَلهو … إِلى الإِصباحِ آثَرَ ذي أَثيرِ

بِآنِسَةِ الحَديثِ رُضابُ فيها … بُعَيدَ النَومِ كَالعِنَبِ العَصيرِ

أَطَعتُ الآمِرينَ بِصَرمِ سَلمى … فَطاروا في عِضاهِ اليَستَعورِ

سَقَوني النَسءَ ثُمَّ تَكَنَّفوني … عُداةُ اللَهِ مِن كَذِبٍ وَزورِ

وَقالوا لَستَ بَعدَ فِداءِ سَلمى … بِمُغنٍ ما لَدَيكَ وَلا فَقيرِ

أَلا وَأَبيكَ لَو كَاليَومَ أَمري … وَمَن لَكَ بِالتَدَبُّرِ في الأُمورِ

---

(1) عروة بن الورد، **الديوان**، ص55– 60.

إذاً لَمَلَكتُ عِصمَةَ أُمُّ وَهبٍ عَلى ما كانَ مِن حَسَكِ الصُدورِ
فَيا لِلناسِ كَيفَ غَلَبتُ نَفسي عَلى شَيءٍ وَيَكرَهُهُ ضَميري
أَلا يا لَيتَني عاصَيتُ طَلقاً وَجَبّاراً وَمَن لي مِن أَميرِ

وقد تُخيّر السّبية بين البقاء عند آسرها أو العودة إلى قومها، فقد روي أن الهذيل بن هبيرة أغار على بني كوز وعلى هاجر من بني ضبة فأصاب منهم ثلاثين امرأة فيهن مَنْضُورة بنت شقيق أخت عامر بن شقيق، فأطلقهن إلا منضورة؛ ثم طلبها أخوها وزوجها، فخُيّرتْ بين سابيها وزوجها فقالتْ: والله ما كنتُ لأؤيم زوجي ولا أنكس برأس أخي فأعطاهم إياها، فقال(1): (الطويل)

أعْتَقْتُ مِنْ أَفْنَاءِ كُوزٍ وَهَاجِرٍ ثَلاثِينَ لَمْ تُهْتَكَ لِسِرٍّ جُيُوبُهَا
ومَنْضُورَة الحَسْنَاء كُنْتُ اصْطَفَيْتُها فأعْتَقْتُها لَمَّا أتَاني حَبِيبُهَا

ونجد أن بعض السبايا إذا خُيِّرتْ بين قومها وبين سابيها اختارتْ سابيها وذلك لشعورها بتقصير قومها عن حمايتها وتركهم لها تعاني ذلّ السبي ففي يوم العداب، وهو يوم أغارت فيه بنو عبد مناة بن أد بن طابخة، على عجل وحنيفة بالأراكة من أرض جو اليمامة. وسبيت حسينة بنت جابر بن بجير بن شريط العجلي أخت أبجر بن جابر، وكانت عند ابن عمها تمام بن سواده بن بجير ففرّ عنها يومئذ فأُخِذتْ سبيّة؛ سباها عمرو بن الحارث بن أقيش العُكلي، فلبثتْ عنده، ثم أن تماماً زوجها وأباه سوادة، أتياها ليفاديانها، فاختارتْ عمرو بن الحارث، وقالت في ذلك حسينة تعير تماماً زوجه(2): (الكامل)

---

(1) التبريزي ، **الحماسة**، 640.

(2) المرزباني، أبو عبدالله محمد بن عُمران ت 384هـ، **أشعار النساء**، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، عالم الكتب، ص132-133.

تمَّامُ قـــد أسلمتني لرماحهم ومضيتَ تركض في عجاج القسْطلِ
وتلومــني أن لا أكرَّ علـيــكـم هيــهـات ذلــك منـكـم لا أفعل
إني وجدتكم تكون نساؤكم يوم اللقاء لمن أتاكم أول

ثم أن أخاها أبجر بن جابر أتاها بعدما ردّتْ تماماً وأباه، فلامها على اختيارها على قومها، فرضيتْ بالرجوع مع أخيها، ففادها بمائة من الإبل وخمسة أفراس. وسار معها عمرو بن الحارث حتى جوّزها أرض بني تميم، وقال في ذلك عمرو بن الحارث العكلي(1): (الوافر)

وخَــيرنا حُسَـيْـنة إذْ أتاها سـوادةُ ضـارعاً مَعَهُ الفِداء
فقالت إن رجعتُ إلى لجيْم مخـايرةً فقد ذهب الحياءُ
فما صبروا ولا عطفوا علينا وندعوهم فما سُمِعَ النداءُ
وكنتُ مَهيرةً فيكم فأمسي ومهري فيكمُ الأسَلُ الظِماءُ
وكانَتْ صفوتي من سَبي عجْلٍ حُسَينة من كواعِب كالظباء
وهبناها لأبجر إذْ أتانا وفينا غيرها منهم نساء
فكانَ ثوابُه منها جياداً وسَوْقَ هُنَيْدَةٍ فيها رِعاءُ

وقد تؤخذ المرأة سبيّة بسبب ظلم لحق بأحدهم، فلم يجد وسيلة إلى طلب حقّه إلا أن يسبي مِنْ نساء مَنْ ظَلَمَهُ، ومن ذلك أن الربيع بن زياد العبسي منع درعا لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي ثم إن الربيع سيّر إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلإ، وأمر أهله فظعنوا، وركب فرسه وسار إلى المنزل، فبلغ الخبر قيساً، فسار في أهله وإخوته فعارض ظعائن الربيع، وأخذ زمام أمه فاطمة بنت

(1) **السابق**، 132- 133.

الخرشب وزمام زوجته. فقالت فاطمة أم الربيع: ما تريد يا قيس؟ قال: أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي. قالت: وهيفي ضماني وخل عنّا، ففعل(1).

ولمّا أغار قيس بن زهير على بني يربوع فنهب وسبى، ورأى غلامين أحدهما على الفرس المشهور داحس والآخر على الغبراء فطلبهما فلم يلحقهما، فرجع وفي السبي أم الغلامين وأختان لهما، وقد وقع داحس والغبراء في قلبه، ثم جاء وفد بني يربوع في فداء الأسرى والسبي، فأطلق الجميع إلا أم الغلامين وأختيهما وقال: إن أتاني الغلامان بالمهر والفرس الغبراء وإلا فلا. فامتنع الغلامان من ذلك، فقال شيخ من بني يربوع كان أسيراً عند قيس، وبعث بها إلى الغلامين(2): **(الخفيف)**

إنّ مهراً فدى الرباب وجملاً ... وسعاداً لخير مهر أناس
ادفعوا داحساً بهنّ سراعاً ... إنّها من فعالها الأكياس
دونها والذي يحجّ له النا ... س سبايا يبعن بالأفراس
إنّ قيساً يرى الجواد من الخي ... ل حياةً في متلف الأنفاس
يشـتري الطّـرف بالجراجرة الجـ ... لّة يعـطي عـفواً بغير مكاس

فلما انتهتْ الأبيات إلى بني يربوع قادوا الفرسين إلى قيس وأخذوا النساء.

وعلى هذا الأساس كثر وشاع السّبي في العصر الجاهلي، وحرص العربي على أخذ السبايا ليحقق بذلك مكاسب كثيرة؛ فكانوا يفادونهنّ بالمال، أو يبادلونهنّ بالأسرى، أو يتزوجونهنّ بلا مهور وأخذ السبايا كذلك إمارة للتفوق على الخصم، وتأكيد على إلحاق الهزيمة بالأعداء، ولقد كان السبي هدفا كبيراً يسعى إليه المقاتلون والفرسان، فكان الشعر الجاهلي معبرا عن ظاهرة السبي في صور

---

(1) ابن الاثير، **الكامل في التاريخ**، ج1: 449.
(2) **السابق**، ج1: 450.

متعددة ومتباينة، فذهب الشعراء يفخرون بإحراز قومهم نساء الأعداء سبايا، بينما هم يتغنون بحماية نسائهم وصونهنّ من السبي، ويدافعون عنهنّ بشجاعة وإقدام دون رهبة من العدو أو خوف من الموت، ولم يقتصر سبي النساء على أيام الحرب والقتال فقط، بل إن المرأة كانت عرضة للسبي في مختلف الأوقات، فلم تسلم الظعائن من السّبي، بل كان الخطر يتهددها في كل حين ولذلك حرص العربي على حماية الظعينة، ودافع عنها دفاعا مريراً، وقد ذمّ الشعراء مَنْ عَجزَ عن حماية نسائه، ومدحوا مَنْ تمكن مِن إنقاذ نساء قومه من السّبي. ولاقتْ السبايا معاملة قاسية ومؤلمة، بلا رحمة ولا شفقة، فكان السبي محنة حقيقة يجسد معاناة المرأة في أعنف صورة فأبغضت النساء السبي وعابتْ قومها على خذلانهم لها.

الخاتمة

لقد ظهر لنا من هذه الدراسة أن مجموعة العوامل الجغرافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي سادتْ الجزيرة العربية في العصر الجاهلي قد أذكت روح التنازع بين القبائل العربية، فساهمت في شيوع ظاهرة الأسر والسبي، وقد عانى عدد من الشعراء والسادة والقادة والفرسان مرارة الأسر فكان الشعر مترجما لحالهم في محنتهم، ومعبرا عن تجربتهم القاسية، وقد أثّر الأسر في حياتهم وغيّر أحيانا مواقفهم من مختلف الأحداث الدائرة آنذاك، فراحوا يستعطفون آسرهم ويتقربون إليه بمختلف الوعود والعهود.

ونجد أن هذه الظاهرة قد حظيت باهتمام الشعر العربي في العصر الجاهلي؛ فراح الشعراء يسجلون محنة الأسرى والسبايا، وهم مكبلون بالأصفاد والسلاسل، وقد كان لمكانة الأسرى في قومهم أثر كبير في تحديد مصيرهم من فداء أو قتل أو مَنّ، فحمدوا مَنْ أنعم على الأسرى بإطلاق سراحهم، وذموا من تخلى عن نجدة الأسرى، أو تخاذل في منع النساء من السبي. فقد رافقت المرأة الرجال إلى ساحة القتال، فكانتْ عرضة لمخاطر كثيرة، وقد تؤخذ سبية، فتلاقي الذل والإهانة فأبغضتْ النساء السبي وفضلن الموت على ذلك الأمر، إلا أن بعضهن قد آثرن البقاء عند سابيهنّ احتجاجا على عجز أهلهن عن حمايتهن. ونستطيع أن نجمل دوافع الأسر والسبي على النحو الأتي:

1- عدم وجود سلطة سياسية مركزية تدير شؤون المجتمع وتقيم العدل بين الأفراد والجماعات في مختلف المنازعات.

2- تنازع الغساسنة والمناذرة في مدّ نفوذهم داخل الجزيرة العربية، وما كانوا يقومون به من تأجيج العصبية القبلية وإثارة النعرات بين القبائل العربية المنافسة لهم.

3- عدم استقرار القبائل العربية وتنقلها المستمر حسب الظروف الطارئة.

4- البيئة الصحراوية .

5- الفقر وقلة الموارد المعيشية وتتبع مناطق الخصب.

6- حب السيطرة وتناحر القبائل والجماعات فيما بينها.

7- التنافس على السيادة والرئاسة والمجد والشرف.

8- شيوع الغارات والغزوات والاقتتال بين الجماعات القبلية.

9- التغني بالقوة والفروسية وإظهار الشجاعة.

10- شيوع مبدأ العصبية القبلية المسيطر على علاقات الأفراد والجماعات.

11- بعض العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الجاهلي، مثل الثأر.

قائمة الأعمال المقتبسة

القرآن الكريم

ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن(630هـ)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت: دار الكتب العلمية، 1987.

الأصفهاني، أبو الفرج(356هـ)، **الأغاني**، ط3، تحقيق إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، بيروت: دار صادر، 2008.

الأصمعي، عبدالملك بن قريب الباهلي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، تحقيق آل ياسين ومحمد حسين، بغداد: مطبعة المعارف: ، 1959م.

الأعشى الكبير ميمون بن قيس، **الديوان**، تحقيق محمد محمد حسين، بيروت: دار الكتاب العربي، 1992م.

الأفْوه الأوْدي، **الديوان**، ط1، شرح وتحقيق محمد التُّونجي، بيروت: دار صادر، 1998م.

الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر، (ت370هـ)، **المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم**، ط1، صححه وعلق عليه ف. كرنكو. بيروت: دار الجيل، 1991.

أمرؤ القيس، **الديوان**، ط5، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف.

أوس بن حجر، **الديوان**، تحقيق محمد يوسف نجم، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م.

أمين، فوزي محمد، **شعر بشر بن أبي خازم الأسدي رؤية تاريخية وفنية**، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1993.

الباجوري، عبدالله بن عفيفي، **المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها**، ط2، المدينة المنورة: مكتبة الثقافة،1350هـ- 1932م، ص18.

البرزة، أحمد مختار، **شعر زيد الخيل الطائي**، ط1، بيروت: دار المأمون للتراث، 1988م.

---، الأسر والسجن في شعر العرب، ط1، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، 1985.

بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العرب**، ط5، نقله إلى العربية عبدالحليم النجار، القاهرة: دار المعارف.

بشر بن أبي خازم الأسدي، **الديوان**، ط1، تحقيق عزة حسن، بيروت: دار الشرق العربي، 1995.

البكري الأندلسي، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، ت487هـ، **التنبيه على أوهام أبو علي القالي في أماليه**، ط2، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 2000م.

البصري، علي بن أبي الفرج بن الحسن، ت659 هـ. **الحماسة البصريّة**، تحقيق عادل جمال سليمان، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1999م، ق194: 278.

البغدادي، عبد القادر بن عمر(1093هـ)، **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، ط4، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997.

التبريزي، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد (ت502)، **شرح ديوان الحماسة**، كتب حواشيه غريد الشيخ، بيروت: دار الكتب العلمية، 2000.

---، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد(502هـ)، **شرح ديوان عنترة**، ط1، تقديم مجيد طراد، بيروت: دار الكتاب العربي، 1991.

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس، **البصائر والذخائر**، ط1، تحقيق وداد القاضي، بيروت: دار صادر ج6: 131- 132.

جاد المولى بك، محمد أحمد، وعلي البيجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، **أيام العرب في الجاهلية**، بيروت: المكتبة العصرية، 2003.

الجندي، علي، **شعر الحرب في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار الفكر العربي، 1989.

حاتم الطائي، **الديوان**، (شرح أبي صالح بن مدرك الطائي)، تقديم حنا نصر الحتي، بيروت: دار الكتاب العربي، 1994.

الحارث بن عباد، **الديوان**، جمعه وحققه: أنس عبدالهادي أبوهلال، أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث المجمع الثقافي، 2008م.

ابن حبيب، أبو جعفر محمد البغدادي ت245هـ، **أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء**، ط2، المجموعة السادسة في نوادر المخطوطات، تحقيق عبدالسلام هارون، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، 1973م.

حتّي، فيلب، أدرود جرجي، جبرائيل حبور، **تاريخ العرب**، ط7، بيروت: دار تمندر للطباعة والنشر والتوزيع، 1986.

حسّان بن ثابت، **الديوان**، تحقيق وليد عرفات، بيروت: دار صادر، 2006.

الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، (ت: 626هـ)، **معجم البلدان**، ط2، بيروت: دار صادر، 1995م.

الخالديان، أبو بكر محمد ت 380هـ وأبو عثمان سعيد ت391هـ ابنا هاشم، **الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين**، تحقيق: السيد محمد يوسف، القاهر: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

دُرَيْد بن الصّمة، **الديوان**، تحقيق عمر عبدالرسول، القاهرة: دار المعارف، 1985م.

دقة، محمد علي ، **السفارة السياسية وأدبها في العصر الجاهلي**، ط2، دمشق، 1989.

ديوان الهذليين، القاهرة: الدار القومية، 1965.

الراميني، عرسان حسين، "الارتباط السياسي لشعر بشر بن أبي خازم،" **دراسات**، مجلد36، عدد2، 2009.

---، الراميني، في مصطلح المرباع، **أبحاث اليرموك**، م26، ع2، 2010م، ص351- 370.

ابن رشيق، أبو على حسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت 463هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، ط5، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، 1981م.

زُهَيْر بن جَنَابٍ الكَلْبيّ، **الديوان**، ط1، صنعة محمد شفيق البيطار، بيروت: دار صادر 1999م.

الشطيّ، عبد الفتاح عبد المحسن، **شعراء إمارة الحيرة في العصر الجاهلي**، القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، 1998.

الشِّمْشَاطي، أبو الحسن علي بن محمد بن المهر العدوي، **الأنوار ومحاسن الاشعار**، تحقيق السيد محمد يوسف، الكويت: مطبعة حكومة الكويت.

الشنفرى، عمرو بن مالك، **الديوان**، ط2، جمعه وحققه وشرحه إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتاب العربي، 1996م.

شيخو، لويس، **النصرانيّة وآدابها بين عرب الجاهلية**، ط2، بيروت: دار المشرق، 1989.

الضّامن، حاتم صالح، **عَشَرَة شُعراء مُقِلُّون**، بغداد: جامعة بغداد، 1990م.

الضبيّ، المفضل بن محمد (168هـ)، **أمثال العرب**، ط1، تحقيق إحسان عباس، بيروت: دار الرائد العربي، 1983.

---، **المفضليات**، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبدالسلام هارون، دار المعارف: القاهرة، ط7، 1983م.

ضيف، شوقي، **الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور**، القاهرة: دار المعارف، 1984م.

---، **البطولة في الشعر الجاهلي**، ط2، القاهرة: دار المعارف.

---، **العصر الجاهلي**، ط22، القاهرة: دار المعارف،2000.

الطبري، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (ت310هـ)، **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت: دار الكتب العلمية ط1، 1407هـ.

طُفَيل الغَنَويّ **الديوان**، ط1، تحقيق حسّان فلاح أوغلي، بيروت: دار صادر، 1997.

عامر بن الطفيل العامري، **الديوان**، بشرح أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري قراءة على أبي العباس ثعلب، بيروت: دار صادر، 1979.

ابن عبدربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة، بيروت: دار الكتب العلمية، 1983م.

أبو عبيدة، معمر بن المثنَّى التَّيميّ البَصريّ ت209هـ، **كتاب النقائض نقائض جرير والفرزدق**، ط1، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989م.

عبيد ين الأبرص، **الديوان**، ط1، شرح أشرف أحمد عدرة، بيروت: دار الكتاب العربي، 1994م.

عَدي بن زيد العبّادي، **الديوان**، تحقيق محمد جبّار المعيبد، بغداد: شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد 1965م.

عشّا، جدلية العصبية القبلية والقيم في نماذج من الشعر الجاهلي، **مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق**، الجزء3، المجلد 83، ص1- 28.

علي، جواد، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط2، بغداد: جامعة بغداد، 1993م.

عمرو بن كلثوم، **الديوان**، ط1، حققه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي: بيروت، 1991م

الفريحات، عادل، **بشر بن أبي خازم الأسدي حياته وشعره**، بيروت: دار الجيل، 1991.

ابن قتيبة، أبو محمد عبدالله بن مسلم، **عيون الأخبار**، ط1، تحقيق منذر محمد سعيد أبو الشعر، بيروت: المكتب الإسلامي، 2008م.

---، **كتاب المعاني الكبير في أبيات المعاني**، صححه سالم الكرنوكي، بيروت: دار النهضة.

---، **الشعر والشعراء**، ط1، تحقيق محمد أحمد شاكر، القاهرة: دار المعارف، 1982.

القرشي، أبو زيد محمد بن الخطاب، **جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام**، تحقيق علي محمد البجاوي، مصر: نهضة مصر، 1981.

كعب بن زهير، **الديوان**، ط1، صنعة أبي سعيد السكري، شرح ودراسة مفيد قميحة، الرياض: دار الشوّاف للطباعة والنشر، 1410هـ-1989م.

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(711هـ)، **لسان العرب**، تحقيق عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، القاهرة: دار المعارف، 1981.

المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران ت 384هـ، **معجم الشعراء**، ط2، تصحيح وتعليق ف . كرنكو، بيروت: دار الكتب العلمية ، الناشر: مكتبة القدسي، 1402 هـ - 1982م.

---، أبو عبدالله محمد بن عُمران ت 384هـ، **أشعار النساء**، تحقيق سامي مكي العاني وهلال ناجي، عالم الكتب.

المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن(421هـ)، **شرح ديوان الحماسة**، ط1، نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، 1991.

---، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، **الأزمنة والأمكنة**، ط1، ضبطه خليل المنصور، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996م.

النابغة الجعدي، **الديوان**، ط1، تحقيق واضح الصمد، بيروت: دار صادر، 1998.

النابغة الذبياني، **الديوان**، ط2، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1985م.

النص، إحسان، **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**، بيروت: دار الفكر، 1973م

منصور، حمدي، "السَّبيَّة في الشعر الجاهلي"، **مجلة جامعة النجاح للأبحاث** العلوم الإنسانية، المجلد 24، الإصدار 3، 2010. ، ص 947- 972.

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت518هـ)، **مجمع الأمثال**، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت: دار المعرفة.

الهذليون، **الديوان**، ط2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1995.

ABSTRACT

Alkhaz'la, Firas Ghazi Awad, The issue of captivity in pre-Islamic poetry, Master's Degree Thesis, Yarmouk University, 2014, Supervisor: Dr. Irsan Alramini

This study aimed to observe the phenomenon of capturing and captivity in pre-Islamic poetry, by tracking the political, economic, and social factors that contributed in spreading it between Arabian tribes until it became a tradition of its own customs and cultures that reflected in Arab pre-Islamic poetry, poets moved to royal courts and other tribes' heads as ambassadors for their tribes, they approached and praised them in order to release the prisoners.

The political, social and material motivations were present for the sake of releasing the prisoners, captured and captive persons were the subject of poets, by reporting prisoner's conditions, describing their suffering, and poets' attitudes towards capturing, this phenomenon has different negative impacts on the individual (man, woman) and the tribe, where these impacts contributed in destructing the Arab community in the pre-Islamic era.

This study consisted of three chapters, first: historical review of capturing and captivity, second: capturing in the pre-Islamic poetry, captivity in the pre-Islamic poetry.

Keywords: prisoners, captive, pre-Islamic poetry, Arab pre-Islamic history.